غيوم ميسو

لأنني أحبك



رواية

سما للنشر

غيوم ميسو

لأنني أحبك

رواية

ترجمة: محمد عثمان

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

غيوم ميسو

لأنني أحبك

العنوان الأصلي للرواية:

Parce que je t'aime

By: Guillaume Musso

الكتاب

لأنني أحبك

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

محمد عثمان

الطبعة

الأولى، 2012

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-575-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ليس ثمة ما هو أفضل من رواية لجعل الناس يفهمون أن الواقع مصنوع بطريقة رديئة، وأنه غير كاف لإشباع الرغبات، والشهوات، والأحلام الإنسانية. . .

ماريو فارغاس يوسا

قبل البدء، رسالة من المؤلف:

لكي توفر لهم الدهشة، لا تخبر أصدقاءك بما حدث
في نهاية هذا الكتاب!

1

الليلة عندما بدأ كل شيء

ينبغي أن نتعوّد على ذلك: على أكثر تقاطعات
طرق حياتنا أهمية، إذ ما من إشارات على الطريق.

إرنست همنغواي

كانون الأول/ ديسمبر 2006

مساء عيد الميلاد، في قلب مانهاتن...

كان الثلج يتساقط بلا توقف منذ الصباح. وكانت «المدينة التي لا تنام أبداً» مخدرة بالبرد وتدور ببطء، رغم المغالاة في الأنوار.

بالنسبة إلى مساء عيد ميلاد، كانت حركة المرور تجري بسلاسة مدهشة، إذ كان من شأن طبقة الذرور المنتشرة في الأجواء والاحتفالات الكثيفة أن تجعل من الصعوبة بمكان القيام بأدنى تنقل.

مع ذلك، عند تقاطع شارع ماديسون في شارع ستة وثلاثين، كانت عربات الليموزين تمر تباعاً وفي إيقاع منتظم. تصب ركابها في باحة مبنى مصمم على النمط المعماري لعصر النهضة. إنه مقر مكتبة مورغان، إحدى أكثر مؤسسات نيويورك الثقافية روعة، وكانت تحي اليوم ذكراها المئوية الأولى.

على السلم الوسيع، زوبعة من أدخنة التبغ والأثواب الباذخة

وأثواب الفرو والحلي، يتداخل الجمع وهو في طريقه نحو المقصورة المشيدة من الزجاج والفولاذ والتي تطيل البناية بحيث ترسخها على نحو هارموني في القرن الواحد والعشرين.

في الدور الأخير، ثمة رواق يقود إلى حجرة فسيحة حيث، خلف واجهات زجاجية، تعرض المؤسسة بعض كنوزها: إنجيل غيتنبورغ، مخطوطات مزخرفة من القرون الوسطى، رسومات لرامبرانت، لليوناردو دافنشي، لفان غوخ، رسائل لفولتير، لأينشتاين، وحتى رقعة من مقوى ورقي كان بوب ديلان كتب عليه كلمات ذهب مع الريح.

شيئاً فشيئاً يخيم الصمت، ويلتحق المتأخرون عن الموعد بمقاعدهم. هذا المساء، أعيد ترتيب جزء من صالة المطالعة بعناية خاصة بحيث يسمح لبضعة محظوظين الاستماع لعازفة الكمان نيكول هاثواي إذ تعزف سوناتات لموزارت وبرامز.

تصعد الموسيقية إلى الخشبة تحت دوي التصفيقات. كانت امرأة شابة في الثلاثينيات من عمرها وبمظهر أنيق ورزين. وكانت جديلتها الملتفة في كعيكة على مؤخرة الرأس على طريقة غراس كيلي، تمنحها سيماء بطلة هيتشكوكية. وكان سبق لها أن استقبلت على خشبة المسارح العالمية وعزفت بصحبة فرق الأوركسترا الأبرز شهرة، ومنذ أن سجلت ألبومها الأول، وكانت آنذاك في الحادية عشرة، تلقت تكريمات لا تحصى. قبل ذلك بخمس سنوات نزلت عليها مصيبة دمرت حياتها. وقد عملت الصحافة والتلفزيون منها ضجة عظيمة. ومنذ ذلك الوقت، تجاوزت شهرتها دائرة المولعين المحدودين.

حيّت نيكول جمهورها ونصبت آلتها. كان جمالها الكلاسيكي ينسجم كلياً مع المقر الأنيق والنبيل، إذ بدت وكأنها تحتل على نحو تلقائي مكانها بين النقوش القديمة ومخطوطات عصر النهضة.

باستهلال صادق وعميق، نسج قوسها حالاً حواراً مع الأوتار وأدامه على مدار مدة الأداء.

في الخارج، استمر سقوط الثلج في الليل البارد.

أما هنا، فكان كل شيء مريحاً ومرفّهاً بإفراط.

*

على مسافة تقل عن الخمسمائة متر من هنا، غير بعيد عن محطة مترو غراند سنترال، ارتفع غطاء بالوعة ببطء مفسحاً المجال لبروز رأس أشعث ذي نظرة خاوية ووجه أتلفته الكدمات...

بعد أن خلص اللابرادور(*) ذا الزغب الأسود وحمله بين ذراعيه، انتصب رجل بمشقة على الرصيف المتثلج. اجتاز الشارع وراح يتقدم متعرجاً على قارعة الطريق، متلهفاً إلى تحطيم نفسه وسط جوقة نفير العربات.

هذا الرجل هو الـ إس. دي. إف(**)، وكان نحيلاً وواهناً ويرتدي معطفاً رثاً ومتسخاً. وعندما يلتقي عابرين، كان هؤلاء يحثون الخطى ويبتعدون عنه غريزياً.

ذلك أمر طبيعي. فقد كان يدرك أنه يثير الخوف، بما يفوح منه من قذارة وبول وعرق.

لم يكن إلا في الخامسة والثلاثين، مع أن مظهره يوحي أنه في الخمسين.

في ما مضى، كان لديه عمل وامرأة وطفل ومنزل -كان ذلك منذ زمن طويل- أما اليوم فلم يعد سوى طيف تائه، شبح مغلف بالخرق البالية يتمتم بكلمات غير مترابطة.

(*) اللابرادور: كلب صيد، سُمي بذلك نسبة إلى الفصيلة التي ينحدر منها.

(**) إس. دي. إف.: اختصار يقصد به متشرد، والكاتب يستخدمه أحياناً اسماً وأحياناً صفة.

يقف بصعوبة، يسحب نفسه أكثر مما يمشي، ويترنّح.

في أي يوم نحن؟ في أي ساعة؟ في أي شهر؟

لم يعد يعرف، ففي رأسه تختلط الأشياء كلها وتتراقص أمام عينيه أضواء المدينة. وكانت الندف الثلجية التي تحملها الريح تلسع وجهه مثل الأمواس. وكانت أقدامه متجمدة، ومعدته تتلوى، وعظامه قابلة للانقصاف.

منذ عامين، غادر مجتمع البشر كي يفترش أحشاء المدينة. ومثل آلاف آخرين، وجد إس. دي. إف ملاذاً داخل مصران المترو والمجاري ونظام سكك الحديد. ربما طمأن المواطنون الصالحون والسواح أنفسَهم: أن سياسة التسامح صفر التي تلقى التبجيل من المجلس البلدي آتت أُكُلَها، منظفة على نحو مدروس سطح مانهاتن. لكن تحت ناطحات السحاب البراقة ترتعش مدينة موازية: نيويورك الفضلات الآدمية التي تروي شبكة واسعة من الأنفاق، من الكوى والفجوات. آلاف من البشر الخُلديين(*) الملفوظين إلى الأعماق السحيقة، بدواعي الهرب من صلف البوليس، يجدون أنفسهم محصورين داخل الأنفاق القذرة وسط الجرذان والغائط.

هكذا هو الحال.

ينبش المرء في جيبه، فيعثر على قنينة من الكحول الرديء. يتجرعها بالطبع. هل ثمة خيار آخر؟

كأس زعاف، يليه آخر أيضاً.

كي ينسى البرد والخوف والوساخة.

(*) نسبة إلى حيوان الخلد الذي يعيش في كوى تحت الأرض.

كي ينسى حياته الماضية.

*

آخر نقرة قوس من نيكول هاثواي. الزمن بإيقاعين هو صمت متأمل يحلق فوق الحضور، هذا الصمت الشهير الذي يعقب موزارت، والذي يفترض أنه يصدر من موزارت أيضاً، طردته في الحال تصفيقات حادة.

أحنت عازفة الكمان رأسَها، تلقت باقة ورد، ثم اجتازت الحجرة كي تتلقى تهانيَ لا تنتهي. كان المدعوون متحمسين، مع أن نيكول كانت تعرف جيداً أن أداءها لم يكن رائعاً. فهي عزفت هذه السوناتات بمهارة عالية، بنقاء ليزري، وبكثير من الحيوية، لكن ليس من أعماقها.

بشرود، على نحو آلي، أخذت تصافح بضعة أيادٍ مبللة شفتيها في كأس من الشمبانيا، وها هي تسعى الآن لأن تتوارى.

- هل تودين أن نغادر، عزيزتي؟

استدارت بتؤدة باتجاه هذا الصوت المطَمئن. كان صوت إيريك، مرافقها، وكان يقف في تلك اللحظة أمامها وبيده كأس من المارتيني. وكان محامي القضايا الخاصة هذا يشاطرها الحياة، بهذا القدر أو ذاك، منذ بضعة أشهر. وكان مستعداً لتقديم خدماته على الدوام، فقد عرف كيف يكون هنا لأجلها في اللحظة ذاتها، حيث تكون بحاجة إليه.

- نعم، أشعر بدوار في الرأس، عد بي إلى البيت.

قبل أن تكمل إجابتها، هرع إلى خزانة الملابس وناولها معطفها المصنوع من الفلانيل ذي اللون الرمادي الذي ارتدته قبل أن تلقي بذراعها على عنقه.

ودعا مضيفيهم على نحو مقتضب. وبينما كانا ينحدران عبر السلم المرمري المهيب، كان العيد في الدور الأرضي يبلغ بالكاد أوج حيويته.

- سأطلب لك تاكسي، اقترح إيريك عندما وصل إلى بهو المدخل. فيما أذهب أنا إلى المكتب لإحضار سيارتي.

- سأرافقك، سيستغرق الأمر خمس دقائق بالكاد.

- تمزحين! الجو رديء.

- إني بحاجة إلى المشي وتنسم قليل من هواء منعش.

- لكن ذلك قد يكون خطراً.

- منذ متى كان خطراً قطع ثلاثمائة متر على الأقدام؟ ومن ثم، أنت معي.

- كما تشائين.

خرجا إلى الرصيف من دون أن يتبادلا كلمة، وبلغا شارع الخمسين بخطى حثيثة في البرد القارص. كانت حركة السير لا تزال خفيفة كما كانت في السابق، فيما استمر الثلج في التساقط على المدينة ندفاً ثقيلة صامتة.

في الوقت الراهن، لم يعد يفصلهما عن السيارة سوى مائة متر، وكانت واقفة خلف بريينت بارك بالضبط. في الأيام المشمسة، يقدم هذا المكان بساطاً من الخضرة الرائعة والمثالية لوقفة في الشمس، يتناول المرء خلالها وجبة طعام أو يلعب دور شطرنج بالقرب من النافورة. لكن كان المكان في هذا المساء مخيف وغارق في الظلمة ومقفر...

- **نقودك!**

أطلقت نيكول صرخة مقتضبة.

كان قد انبثق أمام عينيها نصل براق مثل شعاع.

- **نقودك، أمرك!**

أمر الشخص ذو السكين.

كان رجلاً بلا عُمر، كل ما فيه فظٌّ وجلف. وكانت جمجمته الحليقة تبرز من سترة طويلة تصل إلى ركبتيه. وكان وجهه مثقوباً بعينين ضيقتين يهيجهما بريق مجنون، وتشقه طولياً ندبة مقعرة.

- **بسرعة!**

- موافق، موافق!

خضعَ إيريك مُخرجاً محفظته. من تلقاء نفسه، ناول الرجل ساعته وهاتفه المحمول.

استولى الرجل عليهما، ثم اقترب من نيكول كي ينتزع منها حقيبتها اليدوية وعلبة الكمان. حاولت الموسيقية أن تخفي قلقها. غير أنها أخفقت في مواجهة نظرة المعتدي ولم تفعل شيئاً سوى إغماض عينيها. وفيما تنتزع يدٌ عقدَها اللؤلؤي منها، راحت تتلو الأبجدية بالمقلوب وبسرعة. كما اعتادت أن تفعل في طفولتها، كي تسيطر على مخاوفها.

ي و ه ن م ل...

وكان هذا كل ما وجدته لتلهي نفسها، منتظرة الوقت حيث لا تعد هذه اللحظة سوى ذكرى سيئة.

ق ف غ ع ظ ط...

سيغادر عما قريب بعد أن حاز ما يريد: بعض النقود، وتلفون محمول، وبعض المصوغات.

ض ص ش س ز ر...

سيغادر، قتلُنا لن يفيده في شيء...

ح ج ث ت ب ا . . .

لكنها، حين فتحت عينيها، كان الرجل لا يزال هنا، وذراعه متأهبة كي تسدد لها طعنة سكين.

رأى إيريك الطعنة تنطلق، لكن سمّره الخوف، ولم يأتِ بأدنى حركة لحمايتها.

لماذا لم يدهشها سلوكه؟

في كل حال، هي لم يعد لديها الوقت لتتحرك.

مشلولة ومنومة مغناطيسياً، شاهدت النصل الذي سيشق حلقها.

إذاً، هل هذه حياتها؟ بداية واعدة، وسط متألق، يليه انحدار إلى جهنم ثم نهاية قذرة أقبلت بلا تحذير، بصحبة هذا الإحساس الأليم بأنها بطلة قصة غير مكتملة. . .

أمر غريب. يقال أحياناً إننا في لحظات الموت، على نحو متسارع، نرى مجدداً اللحظات المهمة من وجودنا. نيكول، هي الأخرى، لم تر سوى مشهد وحيد: شاطئ يمتد على مد البصر، مقفر، إلا من اثنين يلوحان ناحيتها بفرح. ترى على نحو غريزي وجهيهما. الأول وجه الرجل الذي أحبته منذ الأزل ولم تدر كيف تحتفظ به، والثاني وجه ابنتها التي لم تحسن حمايتها.

*

أنا ميتة.

لا، ليس بعد. لماذا؟

شخص ظهر للتو من مكان ما.

متشرد ما.

في البدء، ظنت نيكول أن الأمر يتعلق بهجوم جديد قبل أن تفهم أن القادم الجديد يحاول إنقاذها. وبالفعل، كان هو من تلقى الطعنة

على كتفه في اللحظة الأخيرة. رغم الجرح، نهض برشاقة وارتمى بشراسة على المعتدي. تسنى له أن يجرده من السلاح ويسترد الغنيمة منه. جسده الضئيل لم يعقه عن التفوق. بمساعدة اللابرادور ذي اللون الداكن، تمكن أخيراً من إجبار خصمه على الفرار.

لكنّ نصره لم يكن بلا ثمن، إذ انهار على الثلج خائر القوى، والتصق وجهه بالرصيف الذي يغطيه الجليد.

الآن جاء دور نيكول كي ترتمي ناحيته، فاقدة في الأثناء إحدى خفيها المبهرجين.

هاهي هنا، تجثو على برودة الثلج كي تعتني بالرجل الذي أنقذ حياتها. لاحظت آثار دم في الثلج. لماذا عرض هذا الـ إس.دي.إف نفسه للمخاطر لأجلها؟

-سنعطيه عشرين دولاراً لقاء ما قام به، اقترح إيريك على نحو أخرق وهو يلتقط محفظته والهاتف المحمول من الأرض المعفرة.

الآن وقد زال الخطر استعاد المحامي كبرياءه.

أشاحت نيكول وجهها الذي علته ملامح الاحتقار.

- ألا ترى أنه جريح؟

- في هذه الحالة سأبلغ البوليس.

- ليس البوليس من ينبغي تبليغه، بل الإسعاف!

بصعوبة، تسنى لها أن تضع الرجل المجهول على ظهره. وضعت يدها على كتفه الذي ينزف بغزارة وراحت تحدق في وجهه الذي تلتهمه لحية كثيفة.

في البدء لم تتعرف إليه، إلى أن رأت عينيه المحمومتين تنظران إليها بثبات.

حينئذٍ، تحطم شيء ما في داخلها، موجة من الحرارة غمرت

كينونتها. لا تعرف ما إذا كان ألماً أم راحة. اكتواء أم أمل، هذا الذي تجلى لها في عمق الليل.

انحنت باتجاهه، أدنت وجهه من نهدها كأنها تريد أن تحميه من زوبعة الثلج التي تغلفهما.

- ماذا تفعلين؟ أصاب إيريك القلق.

- أغلق هاتفك واذهب فتش عن سيارتك، خاطبته بنبرة آمرة فيما كانت تنهض.

- لماذا؟

- هذا الرجل... أنا أعرفه.

- تعرفينه، كيف ذلك؟

- ساعدني على حمله إلى منزلي، طلَبت منه من دون أن تجيب عن سؤاله.

أومأ إيريك برأسه، ثم في زفير:

- اللعنة، لكن من هذا الرجل؟

وقد اتخذت نظرتها مظهراً غامضاً، تركت نيكول لحظة طويلة تمر قبل أن تهمهم:

- إنه مارك، زوجي.

2

المختفية

إننا لا نشعر، في أي يوم من أيام حياتنا، بأننا غير محصنين ضد الألم إلى هذا الحد إلا عندما نحب.

فرويد

بروكلين. في الضفة الأخرى من النهر. في الرفاهية الناعمة لمنزل صغير من العصر الفيكتوري، مزخرف بأبراج صغيرة وميازيب. . .

نار مضطرمة تطقطق داخل المدفأة.

كان مارك هاثواي ممدداً على كنبة الصالون، يلف غطاءاً سميكاً حول ساقيه. كان لا يزال في غيبوبة. وكانت الدكتورة سوزان كينغستون تنحني فوق كتفه موشكة على الانتهاء من تقطيب جرحه.

- جرح سطحي، أوضحَت لنيكول وهي تنتزع قفازيها. إن ما يقلقني هو صحة مارك العامة على الأرجح. لديه التهاب حاد في الشعب الهوائية، وجسده مغطى بالأورام الدموية والتشققات.

حينما تلقت سوزان مكالمة من جارتها نيكول هاثواي ترجو منها المجيء للاعتناء بزوجها الجريح، كانت تتذوق بودنغ عيد الميلاد

وسط أفراد عائلتها، ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ بداية الأمسية العائلية.

على الرغم من دهشتها، لم تتردد ثانية واحدة في تلبية النداء. فقد كانا، زوجها وهي، يعرفان حق المعرفة مارك ونيكول. كانت العائلتان على وئام قبل وقوع الحادث المأساوي قبل خمس سنوات، وغالباً ما كانتا تخرجان معاً لتجربان المطاعم الإيطالية لحي بارك سلوب، واحداً تلو الأخر، هازئتين من تجار الأثريات في بروكلين هايت، وفي نهاية الأسبوع تركضان على مروج بروسبكت بارك الفسيحة.

ذلك الزمن يبدو بعيداً اليوم، غير واقعي تقريباً.

وبينما تثبت عينيها على مارك، لم تستطع سوزان أن تقي نفسها الشعور الرهيب بالتورط.

- هل كنت تعرفين أنه يعيش في هذا الشارع؟

أومأت نيكول برأسها، عاجزة عن الكلام.

ذات صباح، منذ عامين، أخبرها زوجها أنه سيغادر، لأنه لم يعد قادراً على العيش «هكذا»، ولأنه لم تعد لديه الطاقة لذلك. حتى ذلك الوقت، كانت قد فعلت كل شيء من أجل الاحتفاظ به، لكن أحياناً ما يكون كل شيء غير كافٍ. ومنذ ذلك الحين لم تعد تصلها أي أخبار عنه.

- أعطيته جرعة من المهدئات وكذلك مضادات حيوية، أوضحت سوسن وهي تحزم أغراضها.

رافقتها نيكول إلى الباب.

- سأمر غداً صباحاً، وعدت سوسن، لكن. . .

توقفت في وسط الجملة، مستحية ومرعوبة في الآن ذاته مما كانت ستتفوه به:

- . . . لا تدعيه يغادر في هذه الحالة، أتمت كلامها، وإلا . . . سيموت فيها.

*

- إذاً؟

- إذاً ماذا؟

- ماذا سنفعل بزوجك؟ سأل إيريك.

كان المحامي يذرع المطبخ جيئة وذهاباً وكأس من الويسكي في يده.

نظرت نيكول إليه بمزيج من الإجهاد والنفور. ماذا كانت تعمل مع هذا الرجل منذ ما يقرب العام؟ كيف حدث أن تركته يدخل حياتها؟ ولماذا تعلقت به؟

- إذا سمحت، غادر، تمتمت.

هز إيريك رأسه.

- لا يخطر ببالي أن أتخلى عنك في لحظة كهذه.

- عندما كانت السكين في حلقي، لم يعقك ذلك عن التخلي عني!

جمد في مكانه وأعوزته بضع ثوان قبل أن يحاول التبرير:

- لكن لم يكن لدي الوقت لـ . . . لم يتسن له إتمام جملته.

- اذهب، كرَّرت ببساطة.

- لو كان هذا بالفعل ما تريدينه . . . لكنني سأتصل بك غداً، أضاف قبل أن يغرب عن وجهها.

وقد تخلصت منه انتاب نيكول شعور بالارتياح، فعادت إلى داخل الصالون. أطفأت كل الأضواء. ومن دون أن تثير أدنى ضجة، دنت من إحدى الكنبات كي تكون قريبة من مارك.

كانت الحجرة التي لم يعد يضيئها سوى الوميض البرتقالي لجمر المدفأة تسبح في جو هادىء الآن.

منهكة وتائهة، وضعت يدها على يد زوجها وأغمضت عينيها. لطالما عرفا أوقاتاً سعيدة في هذا المنزل! ابتهجا إلى حد الجنون في اليوم الذي عثرا فيه عليه. كان واحداً من تلك المنازل التي شيدت في نهاية القرن التاسع عشر، بواجهته من الأحجار السمراء وبحديقته الرائعة. ولقد مرت عشر سنوات منذ شرائهما إياه، بالتحديد قبل ميلاد طفلتهما التي أرادا لها أن تنشأ بعيداً عن جنون مانهاتن.

على رفوف المكتبة، كانت بضعة صور مؤطرة تذكر بالأيام السعيدة. في البدء، بنظرات متواطئة وحركات ولهى، رجل وامرأة واليد في اليد. إجازات رومانسية في هاواي واجتياز جسور، بالدراجة النارية، لجراند كانيون. ثم صورة إيكوغرافية لطفل في الرحم، وبعد بضعة أشهر، صورة لوليد ذي وجه دائري، يحتفل بأول عيد رأس سنة. على النسخ الأخيرة، الوليد وقد صار فتاة صغيرة خسرت أسنانها الأولى. وها هي ذي تضع الطعام أمام زرافات حديقة برونكس، وتعيد ضبط قبعتها تحت سحب مونتانا وتعرض على عدسة الكاميرا سمكَتيها-المهرجتين، إرنيستو وكابوتشينو.

كانت الروائح العطرة للأيام السعيدة قد اختفت إلى الأبد...

عطس مارك في نومه، فسرت في جسد نيكول قشعريرة. لم يعد الرجل الذي ينام على الكنبة يمت بصلة إلى ذلك الذي تزوجته. وحدها الشهادات الجامعية والتكريمات التي تغطي الجدار مثل غنائم تشهد أن مارك كان ذات يوم عالم نفس شاب وشهير. فقد جرت العادة أن تقوم الوكالة الفيدرالية للملاحة الجوية ووكالة الأمن القومي باستدعائه عند وقوع كوارث جوية أو اختطاف رهائن وذلك باعتباره متخصصاً في ردود الفعل الارتكاسية. وعقب 11 أيلول/ سبتمبر،

شارك في وحدة علم النفس التي أنشئت بهدف متابعة عائلات الضحايا وموظفي برج التجارة العالمي ممن نجوا من الكارثة. وذلك أن المرء لا يخرج متعافياً من مأساة كهذه، بل يظل جزء منه على الدوام حبيس الصرخات والنيران والدم. وربما تكون أنت قد نجوت من الموت، بيد أنك تستمر في الشعور بأنك تلوثت، يتآكلك الشعور بالإثم، ويلتهمك الضيق الأصم، ويجتازك السؤال الهائل الذي لن يعرف إجابة أبداً: لماذا نجوت أنت وليس الآخرون؟ أنت وليس ابنك، زوجتك، أبواك...

قبل ذلك، بالتوازي مع عمله كعالم نفس، نشر مارك تجاربه في مجلات علمية تصدر بطبعات كبيرة. وألزم نفسه في هذه المقالات بأن يقوم بالتعريف بطرائق العلاج الجديدة -أدى الدور، التنويم المغناطيسي...- التي كان يشتغل عليها رائداً مع شريكه وصديق طفولته كونور ماك كوي. وشيئاً فشيئاً صار مارك عالم نفس رائج يشاهد على شاشات التلفزة. ولقد دفعت هذه الشهرة المفاجئة بهما، هو ونيكول، إلى صدارة المشهد الإعلامي. ففي عددها المكرس للثنائيات الأكثر شعبية في نيويورك، كرس لهما اللامع فانيتي فاير مقالة من أربع صفحات مع صور رائعة لتأييد ما ذهب إليه. وذلك نوع من التبجيل.

لكن حكاية الجنيات هذه على الورق الصقيل تطايرت في شظايا من اليوم إلى الغد. ففي عصر أحد أيام آذار/ مارس، اختفت ابنتهما الصغيرة ليلى، ذات السنوات الخمس داخل مركز أورونج كاونتي التجاري في جنوب لوس أنجلوس. وكانت آخر مرة شوهدت فيها بينما تحدق في الألعاب أمام واجهة ديزني ستور. وكانت حاضنتها الشابة، أسترالية مقيمة، قد تركتها بمفردها لبضع دقائق. بما يكفي بالضبط كي تجرب بنطال جينز مدفوع الثمن في محل دييزل المجاور...

كم مر من الوقت قبل أن تلحظ اختفاءها؟ «ليس أكثر من خمس دقائق» هكذا أكدت الحاضنة للمحققين. وهذا وقت طويل، فكثير من الأشياء يمكن أن تحصل خلال خمس دقائق.

إن الساعات الأولى التي تلي اختفاء طفل هي ساعات حاسمة، ذلك ما نعرفه من التجربة، فخلالها يكون هنالك حظ أكبر في العثور عليه حياً. لكن هذه الاحتمالات تنخفض على نحو خطير بعد مضي ثمانية وأربعين ساعة.

كانت تمطر بغزارة خلال 23 آذار/ مارس ذاك. وفي حين حدث الاختفاء في وضح النهار وفي مكان يغص بالناس، وجد المحققون صعوبة في قطف شهادات موثوقة. ولم تفضِ الاستفادة من أشرطة فيديو المراقبة إلى شيء بهذا الخصوص، وأكثر من ذلك إفادات الحاضنة، المتهمة بالتقصير في المراقبة، لكن ليس باختطاف طفلة.

في الأثناء، تتالت الأيام...

خلال أسابيع، مشط أكثر من مائة رجل بوليس، تساندهم الكلاب المدربة والمروحيات، المنطقة بالتفصيل. لكن لم يتم العثور على أي أثر ملموس يتيح تحديد مكان وجود الصبية.

... ثم الأشهر...

ضلل غياب الأدلة البوليس. كما لم يتصل أحد طالباً الفدية، ولم يبَن أي سبيل موثوق. لا شيء...

... والسنوات...

كانت صور ليلى لا تزال منذ خمس سنوات معلقة في المحطات والمطارات ومكاتب التوظيف، إلى جوار صور أطفال آخرين اختفوا.

لكن ليلى لم تظهر.

تبخرت.

*

بالنسبة إلى مارك، توقفت الحياة في 23 آذار/ مارس 2002.

باختفاء ابنته غرق في ضيق مطلق. وتحت تأثير الزلزال الداخلي من الألم والذنب انقطع عن مهنته وزوجته وصديقه.

خلال الأشهر الأولى، جند أفضل المخبرين السريين ليقوموا بالبحث مجدداً في أدق التفاصيل. لكن دونما نتيجة.

والحال كذلك، ارتمى هو نفسه في استقصاءات عبثية.

استمر البحث المنذور للفشل ثلاث سنوات. بعدها اختفى مارك بدوره، من دون أن يترك أي خبر، لا لزوجته، ولا لصديقه كونور.

لم تعرف نيكول انحرافاً مماثلاً.

في البدء، ضاعف من قنوطها شعور خاص بالذنب: كانت هي من ألحت على ليلى كي ترافقها إلى لوس أنجلوس، حيث كانت تقدم سلسلة من الحفلات الفنية، كما كانت هي أيضاً من جند الحاضنة التي تسبب تقصيرها في حدوث المأساة. ولمواجهة الأسوأ، لم تجد استعراضاً آخر غير مضاعفة النشاط، فراحت تنظم الحفلات الموسيقية والتسجيلات، موافقة حتى على استدعاء مأساتها في الصحف أو في التلفزيون، كضحية راضية بالفرجة غير السوية.

مع ذلك، لم تمر بضعة أيام حتى صار الألم لا يحتمل. وحينما لم تعد نيكول قادرةً على مقاتلة أفكارها المرضية، استأجرت غرفة في فندق ولزمت مرقدها تحت الأغطية كما لو كانت في حالة سبات شتوي.

على المرء أن يبقى على قيد الحياة بقدر ما يستطيع...

*

فجأة، فرقعت حطبة داخل المدفأة، فبدرت عن مارك حركة مفاجئة فتح معها عينيه. هب جذعه منتصباً بعنف ولثوانٍ راح يتسأل عن المكان الذي يوجد فيه وعما حصل له.

بينما ينظر في وجه نيكول، عاد وعيه إليه ببطء.

- هل جرحتِ؟ سأل امرأته.

- لا، بفضلك.

للحظة، بدا كما لو أنه عاود السقوط في وهنه قبل أن ينهض بوثبة واحدة.

- ابقَ مضطجعاً أرجوك، أنت بحاجة إلى الراحة!

كما لو لم يكن يسمعها، تقدم بضع خطوات نحو الواجهة الزجاجية. خلف الحاجز الزجاجي، كان الشارع يتلألأ ناصعاً وساكناً.

- أين ملابسي؟

- رميتها، كانت متسخة يا مارك.

- وكلبي؟

- أتيتُ به هنا معك، لكن... هرب.

- سأغادر، صرخ وهو يتقدم مترنحاً باتجاه الباب.

اعترضت طريقه بهدف إعاقته عن التقدم.

- اسمع، الوقت ليل وأنت مجروح ومنهك... لم نر بعضنا منذ عامين. ينبغي أن نتحدث.

مدت ذراعها ناحيته، لكنه دفعها. تشبثت به، فراح يتخبط مصطدماً في طريقه بالأرفف. سقط إطار على الأرض مصدراً ضوضاء زجاج يتحطم. التقطه مارك وأعاده إلى مكانه. انزلقت نظرته على صورة ابنته. بعينين خضراوين ضاحكتين وبابتسامة على الشفتين، كانت تلهم السعادة وبهجة الحياة.

حينئذٍ، تحطم شيء ما في أعماقه وانخرط في النشيج بينما يسند ظهره إلى الحائط. بدورها تكورت نيكول على صدره ليبقيا هكذا وقتاً طويلاً، خائرين في أحضان بعضهما، يكابد كل منهما الضيق نفسه،

بشرة رقيقة إزاء بشرة خشنة، الرائحة النفاذة لعطر جيرلين تختلط بنتانة أولئك الذين يحيون في الشارع.

*

أمسكت نيكول يد زوجها وقادته باتجاه صالة الحمام وفتحت له رشاش الدش قبل أن تتوارى. ثمل بالرائحة المسكرة للشامبو، بقي مارك ما يقارب النصف الساعة تحت الوابل المنزلي الكاوي والمجدد للنشاط. كان الماء لا يزال يقطر من جسده حينما تدثر بمنشفة كبيرة وخرج إلى الرواق مخلفاً وراءه مع ذلك غدراناً صغيرة من الماء على الأرضية الملمعة. فتح خزانة ملابسه فتأكد له أن أثوابه لا تزال في مكانها. لم يلقِ أي نظرة على بدلاته القديمة التي تحمل ماركة أرماني وبوس وزيجنا، بقايا حياة لم تعد حياته... مكتفياً فقط بارتداء كالسون وبنطال جينز من كتان سميك وقميص بأكمام طويلة وكنزة واسعة.

نزل السلم كي يلتحق بنيكول في المطبخ؛ الذي هو مزيج من الخشب والزجاج والمعدن، بحيث يبدو شفّافاً. وكان سطح أفقي فسيح بخطوط انسيابية يمتد على طول الجدار، بينما جزيرة مركزية جيدة التجهيز تدعو إلى الشروع في الطهي. قبل ذلك بسنوات، كانت هذه الحجرة تردد أصداء البيئة المرحة لوجبات الإفطار العائلية، لتصبيرات الفطائر، ولوجبات العشاء الغرامية. لكن منذ وقت طويل لم يُعِد أحد وجباته هنا بالفعل.

- أعددت لأجلك عُجَّة بيض وشرائح من الخبز المحمص، صرحت نيكول فيما تصب القهوة في قدح، القهوة يتصاعد منها البخار.

ما إن جلس مارك أمام طبقه حتى نهض في الحال تقريباً وقد

بدأت يداه في الارتعاش. كان يجب عليه أن يشرب بعض الكحول قبل أن يلمس طعامه.

تحت نظرات نيكول المندهشة، فتح بتهيج أول قنينة نبيذ وقعت في يده وأفرغ نصفها في جرعتين طويلتين. وقد هدأ مؤقتاً. . تناول وجبته ملتزماً الصمت إلى أن تجرأت نيكول فسألته أخيراً:

- أين كنت يا مارك؟

- في صالة الحمام، أجابها من دون أن ينظر إليها.

- لا، أين كنت خلال هذين العامين؟

- في الأسفل.

- في الأسفل؟

- داخل أنفاق المترو، في البالوعات، في أنابيب القنوات، مع المشردين.

والدموع في مآقيها، هزت زوجته رأسها في إشارة لعدم الفهم.

- لكن لماذا؟

- أنت تعرفين لماذا، قال رافعاً صوته.

اقتربت نيكول منه كي تمسك بيده.

- لكن لديك زوجة يا مارك، مهنة وأصدقاء. . .

سحب يده ناهضاً عن الطاولة.

- دعيني بسلام!

- وضح لي أمراً، صرخت كي تستبقيه. ما الذي حملك على العيش متشرداً؟

نظر إليها بحدة.

- أحيا هكذا لأنني لا أستطيع أن أحيا بطريقة أخرى. أنت تستطيعين. أما أنا فلا. .

- لا تحاول أن تشعرني بالذنب يا مارك.

- أنا لا ألومك على شيء، أعيدي بناء حياتك، إذا كان هذا يلائمك. أما أنا، فإن الألم هو ما لا استطيع أن أتجاوزه.

- أنت عالم نفس يا مارك، ساعدت الناس على تجاوز كل نوع من أنواع المصائب.

- هذا الألم، لا أريد أن أتجاوزه، بما أنه الشيء الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة. إنه كل ما بقي لي منها، هل تفهمين؟ لا تمر دقيقة واحدة من دون أن أفكر بها ، من دون أن أسأل نفسي حول ما يمكن أن يكون قد فعله خاطفها بها، هذا من دون أن أسأل نفسي أين يمكنها أن تكون بالضبط في هذه اللحظة.

- لقد ماتت يا مارك، تخلت عن نيكول ببرود.

كان ذلك يفوق طاقة مارك على التحمل، فرفع يده باتجاهها، وأمسك بعنقها كما لو كان سيخنقها.

- كيف يتسنى لك أن تتلفظي بشيء كهذا؟

- مضت خمس سنوات يا مارك! صرخت وهي تخلص نفسها. خمس سنوات من دون أدنى دليل، خمس سنوات من دون أي طلب لفدية!

- يظل هنالك حظ دائماً. . .

- كلا، يا مارك، هذا الأمر انتهى. لم يعد هنالك أي أمل للتبشث به. لن تعاود الظهور بين ظهيرة وضحاها. هذا لا يحصل أبداً، أتفهم، أبداً!

- اخرسي!

- إذا تم العثور على شيء فسيكون جثمانها، لا شيء أكثر.

- لا!

- بلى! ولا تعتقد أنك الوحيد الذي سيتألم لذلك. ماذا يجب علي أن أقول، أنا التي، علاوة على البنت، فقدت زوجاً أيضاً؟

من دون أن يجيب، خرج مارك من المطبخ مهرولاً. لحقت به نيكول وقد قررت أن تهاجمه داخل معقله الأخير:

- ألم تفكر قطُّ أن بوسعنا امتلاك أطفال آخرين؟ ألم تقل لنفسك قطُّ أن الحياة يمكنها أن تتخلق من جديد داخل هذا المنزل؟

- قبل أن يكون لدينا أطفال آخرون، أريد أن استعيد ابنتي.

- دعني أتصل بكونور. منذ عامين وهو يبحث عنك في كل مكان. بمقدوره مساعدتك على الكف عن الاستسلام للانحدار.

- لا أريد أن أكف عن الانحدار. ابنتي تتألم وأريد أن أتألم معها.

- إذا كنت ستثابر على الحياة في العراء، ستموت! هل هذا ما تريده؟ إذاً، اذهب! أطلق على نفسك رصاصة في الرأس!

- لا أريد أن أموت، لأنني أريد أن أكون هنا في اليوم الذي سيجدونها فيه.

كانت نيكول بحاجة لمساعدة. أخذت هاتفها النقال وأدخلت رقم كونور.

ارفع السماعة يا كونور، ارفع السماعة!

في مكان ما من الليل، ترددت بضع رنات في الفراغ. أدركت نيكول أن كونور لن يرد وأنها خسرت المعركة. إذ بمفردها لم يكن بوسعها أن تتوصل إلى استعادة زوجها.

في الصالون، اضطجع مارك على الكنبة ونام بضع ساعات إضافية.

نهض مع بزوغ النهار، والتقط حقيبة رياضية من داخل خزانة

الملابس كي يضع داخلها غطاء وسترة وعلب بسكويت وبضع قنان من الكحول.

توجت نيكول هذه العدة بهاتف محمول وبطارية وشاحن.

- إما أن تقرر إجراء مكالمة مع كونور أو أسعى أنا إلى الانضمام إليك...

عندما دفع مارك باب المنزل كان الثلج قد توقف وكانت أضواء النهار الأولى تلون المدينة بانعكاسات زرقاء.

بمجرد أن وضع قدمه على المعطف الثلجي، كما لو بفعل السحر، ظهر اللابرادور الأسود من وراء صندوق قمامة تاركاً نباحاً يفلت منه. فرك له مارك رأسه علامةً على العرفان. نفخ داخل يديه ليمنحهما بعض الدفء قبل أن يضع حقيبته على كتفه ويسير باتجاه بروكلين بريدج.

من على عتبة الباب نظرت نيكول إلى رجل حياتها وهو يبتعد في الصباح. حينئذٍ، تسمرت وسط الشارع ورفعت صوتها بالصراخ:

- إنني بحاجة إليك!

مثل ملاكم مترنح استدار مارك على مسافة عشرات الأمتار أمامها. بحركة عريضة، باعد ما بين ذراعيه كما لو ليعرب لها عن أسفه.

ثم اختفى في ركن الشارع.

3

شخص ما يشبهني

الحياة هي طوق من المخاوف.

بيورك

«البنت التي تحلم بصفيحة من الديزل وعود ثقاب».

عنوان رواية لـ **ستيغ لارسون**

كانت عيادة الدكتور كونور ماك كوي تقع في أحد مباني تايم ويرنر سنتر الزجاجية الرائعة في أقصى غرب سنترال بارك.

كان كونور فخوراً بعيادته التي صممت بحيث يشعر فيها المرضى بالتحسن، وبأنهم يتلقون عناية أفضل. بفضل ما يتناقله الناس عنها، لم يتوقف زبائنه عن التزايد حتى لو كانت مناهجه الأرثوذكسية لا تتلاءم كثيراً مع ذوق جميع زملائه.

في ليلة عيد الميلاد هذه، كان كونور لا يزال في مكتبه غارقاً في ملف أحد المرضى. كبح تثاؤباً وألقى نظرة على ساعته.

الواحدة والنصف صباحاً.

في كل الأحوال، لم يكن هنالك أحد لينتظره. لا رفيقة ولا عائلة. كان يحيا من أجل مهنته فقط.

أسس عيادته الأولى بالاشتراك مع صديق طفولته، مارك هاثواي الذي تقاسم معه الشغف ذاته بعلم النفس. وكان الصديقان قد ترعرعا معاً في حي بائس من أحياء شيكاغو وعرفا معاً الألم عن قرب قبل أن يكرسا حياتهما وطاقتهما لبلورة أشكال مختلفة من العلاج. ولقد حققا نجاحاً باهراً ما كان له أن يستمر لولا المأساة التي أصابت مارك. حينئذٍ، بأقصى ما يستطيع، مد كونور يد العون لصديقه مستأنفاً معه التحقيق حول اختفاء ابنته عندما كان البوليس قد كف عن ذلك. لكن مساعدته لم تكن كافية: وقد حطمه الغم، اختفى مارك بدوره. الأمر الذي أغرق كونور في بلبلة عميقة. إذ بذلك لم يفقد أفضل صديق له فحسب، لكنه عرف للمناسبة نفسها أكبر إخفاق مهني.

لطرد الذكريات السيئة، نهض كونور من مقعده وتناول كأساً به بقية من مشروب الجعة الخالص.

أعياد الميلاد، صرخ إذ يرفع كأسه نحو خياله في المرآة.

كانت الغرفة المحاطة بصفائح الزجاج تسبح في ضوء غير واقعي وتقدم إطلالة على المتنزه تبعث على الدوار. فهنا حيث كل شيء زاهد ومتقشف، كانت منحوتتان لجياكوميتي تشرفان على المكان من علو، من على رف معدني، في حين كانت، على الجدار، لوحة لروبرت ريمان أحادية اللون تترك الحيرة لدى من لا يرونها إلا مربعاً أبيض. ولقد كان كونور نفسه مفتوناً بتبدلات الضوء الطفيفة على قماش اللوحة.

أن تدرك اللامرئي يعني أن ترى ما وراء المظاهر...

وذلك هو لب مهنته بالذات.

ولا يزال الكأس في يده، تفحص الطبيب بعض الصور على شاشة جهازه المحمول. كانت عبارة عن تشكيلة من الصور الدماغية

التي تمثل بقعة في مخ أحد المرضى. في كل مرة يراقب هذا النوع من النيغاتيفات يصاب كونور بالافتتان.

أن تتألم، أن تحب، أن تكون سعيداً، تعيساً: كل ذلك يحدث هنا في الداخل، داخل خفايا دماغنا، وسط مليارات الخلايا العصبية. إن الرغبة، والذاكرة، والخوف، والعدوانية، والتفكير، والنوم، كل ذلك يعتمد جزئياً على ما يفرزه الكل العضوي من مواد كيميائية مختلفة وعلى الناقلات العصبية المكلفة بتمرير الرسائل من خلية عصبية إلى أخرى. وقد استولى عليه الشغف بالاكتشافات الأخيرة لعلم الخلايا العصبية، صار كونور أحد رواد التحليل البيولوجي للاكتئاب. وكمثال فقد أظهرت الدراسة التي كان له إسهام فيها أن شكلاً أكثر قصراً من جين ناقل تهيئكم للكآبة أو الانتحار. إذاً، لا يولد الأفراد متكافئين من حيث القدرة على مواجهة خبرات الحياة.

مع ذلك، لم يستقر كونور على خيار ألا يأخذ بالاعتبار سوى هذه الحتمية الجينية. بدافع قناعته بأن الكيمياء النفسية والبيولوجيا شديدتا الترابط، حرص الطبيب الشاب باستمرار على تكوين نفسه داخل كلا المجالين: علم النفس ومبحث الأعصاب. فإذا كان إرثنا الجيني الإنساني وذلك مؤكد يفرض نفسه علينا، فإن العلاقات الانفعالية والعاطفية تقوم على مدار حياتنا بإعادة برمجة دماغنا.

في كل الأحوال، كان مبدأه على هذا النحو: لا شيء محدد على نحو حتمي أبداً.

ابتلع الطبيب جرعته من الويسكي بنفَس واحد، ثم خلع معطفه وغادر المكتب.

كانت العمارة تضم فندقاً ذا خمسة نجوم، ومطاعم، ونادياً لموسيقى الجاز. وكان صخب الأعياد يتصاعد من كل الأدوار مضاعفاً بعض الشيء عزلة الطبيب النفسي.

في المصعد فتح حقيبة الظهر كي يتأكد من أنه لم ينس أياً من ملفاته التي كان قد نوى أن يدرسها في بيته في الغد. فبعد يومين، كان عليه أن يعقد جلسة علاج نفسي جماعي، ولكي يؤتي هذا النوع من العلاج النتائج المرجوة منه، فقد كان يستلزم إعداداً كاملاً.

وصل إلى الموقف الأرضي ذي المدخل المحمي بنظام تعرف شبكي. اتبع الإجراءات المحددة والتحق بسيارته الأستون مارتين الفضية البرّاقة. بكبسة واحدة على المفتاح، انفتح النيزك والتقى هو برائحة الجلد المدبوغ. نقل حقيبته إلى مقعد الراكب وخرج من الكاراج الذي يفضي إلى كولومبوس سيركل. كان الثلج لا يزال يتساقط ندفاً كبيرة، مضفياً على الأرض لزوجة. وصل إلى جادة الأمريكتين باتجاه تريبيكا.

في الراديو، كانت موسيقى فرقة راديوهايد تحيل على مستقبل غير محدد ومجرد من الآدمية، مستقبل خسر فيه الإنسان كل معاركه. موسيقى تتوافق مع حالة الروح الحالية المجبولة بتعاسة عميقة لم تعد تفارقها.

عند تقاطع برودواي، استسلم لغواية السير بسرعة محفوفة بالمخاطر موشكاً على الخروج عن الطريق. كانت تنتابه أكثر فأكثر اللهفة إلى مغازلة الخطر. وكانت تلك طريقة بين أخريات يحس معها بأنه على قيد الحياة.

توقف عند الإشارة الحمراء بمدخل غرينيش فيلاج . وبينما هو منحن على عجلة القيادة، أغلق عينيه خطفاً.

عليّ أن أتمالك نفسي!

إلى ما قبل قليل، كان يعتقد، بدواعي المهنة، أنه تجاوز مخاوفه القديمة نهائياً.

حتى أنه كان قد كتب كتاباً، البقاء على قيد الحياة، يحكي فيه

قصته ويوصل رسالة أمل. لكن تواري مارك ذهب بكل شيء أدراج الرياح، وتردى به داخل يأس خطير ووحدة مدمرة وشعور دائم بالذنب.

أخرجه رنين هاتفه النقال من شروده فراح يفرك جفونه. تناول الجهاز من جيب معطفه ورأى على الشاشة اسم المتصل:

نيكول هاثواي

نيكول؟ لم يعودا يتحادثان قط منذ أن كانت تخرج مع ذلك المحامي، إيريك. المغفل. أخذ قلبه يدق بسرعة وقد خالجه الأمل، من دون أن يعول على آماله كثيراً، بأن تكون لديها أخباراً جديدة عن مارك. مستنفراً، راح يهيئ نفسه للرد عندما...

- **اللعنة!**

فتح فجأة باب الراكب في سيارته الأستون مارتين، واستولت يد على حقيبته الجلدية. من دون تفكير، وثب خارج السيارة وبدأ في ملاحقة اللص أو بالأحرى... اللصة.

رغم ندف الثلج، كان يميز بوضوح الشعر الطويل للفتاة الشابة وهي تضم مسروقاتها إلى صدرها.

ضاعف كونور من سرعته، موشكاً في كل خطوة أن يقع على الرصيف المتجلد. لم يكن يفصله عنها سوى مترين عندما اجتازت الشارع بغتة وسط السيارات موشكة على السقوط.

الشريرة الصغيرة!

من دون أن يتوخى أي حذر، حاذى خطوها. كان مستعداً أن يخاطر بكل شيء في العالم على ألا يفقد الملفات التي في الحقيبة. كانت تحتوي على الحياة الخاصة وعلى الأسرار الأكثر شخصية لزبائنه.

في الوقت الحالي، كان يركض بكل ما أوتي من سرعة معوضاً ثانية تخلفه عن الجانحة. عندما تأكد له أن الفتاة استهلكت أخر نفس لها، رمى جسده إلى الأمام لكي يطبق عليها بكل ثقله. وجدت نفسها مستلقية ووجهها في الثلج، ساكنة، وذراعها الملتوي يرتد إلى ظهرها.

- أعيدي إليَّ هذا! أمرها كونور فيما ينتزع منها حقيبة الظهر.

وقد استرد ملكيته، نهض الطبيب ببطء قابضاً بشدة على ذراع خصمته حتى يجبرها على النهوض معه.

- افلتني! صرخت وهي تتخبط.

من دون أن يصغي لطلبها، جرها على امتداد بضعة أمتار حتى يتمكن من رؤيتها تحت ضوء الإنارة العمومية. حينئذٍ، رآها حقاً.

كانت فتاة في حوالي الخامسة عشرة. خيال هزيل وطويل الأطراف. وكانت سحنتها الشاحبة تتعارض مع شعرها الأسود المضفور في خصل كابية تموج بالقرمزي. وكانت ترتدي معطفاً من الفانلة، بالٍ، يتدلى فوق فوطة قصيرة تشف عن تراكب لباس ضيق أعيد تغطيته بنسيج شبكي.

- أفلتني! رددت مراراً.

غير مصغ لصرخاتها شدد كونور من قبضته عليها. ماذا تفعل فتاة مثلها، وحيدة في منتصف الليل، في أمسية عيد الميلاد؟

- ما اسمك؟

- تباً لك! شتمته.

- والأمر كذلك، سأقودك إلى رجال الشرطة!

- حقير!

قاومت بشراسة إلى درجة أن محفظتها سقطت من جيب

معطفها. بمهارة التقطها كونور من الثلج. كانت تحتوي بداخلها على بطاقة هوية أخبرته بهُوية مَن سرقته:

إيفي هاربر

من مواليد 3 أيلول/ سبتمبر 1991

- ماذا تفعلين في الخارج في الثانية صباحاً، يا إيفي؟
- ارجع إليَّ هذه المحفظة! لا يحق لك!
- لست أدري إن كنت في وضع يسمح لك بالتحدث عن الحق، أدلى كونور بالملاحظة.

تركها تفلت. وقد استعادت حريتها، تقهقرت بضعة أمتار، لكن دون أن تهرب، بل وقفت بمواجهته بتحد.

راح كونور يتفرس في وجهها. كانت إيفي ترتجف من البرد وكانت جفونها محاطة بالكُحل. لكن خلف ماكياج مصاصة الدماء هذا، كان بالإمكان تمييز العينين البراقتين لصبية مذعورة، يلتمع فيهما مع ذلك تصميم غريب.

- اسمعي، سأعيدك إلى أبويك.
- ليس لدي آباء! قالت فيما تتقهقر.
- أين تعيشين إذاً؟ في مركز رعاية؟ في ضيافة عائلة؟
- تباً لك!
- قلت لي هذا من قبل، تمتم الطبيب. هل هو كل ما تعلمته في المدرسة؟

كان يتملكه إزاء هذه الفتاة شعور هو مزيج من السخط والشفقة. ذكرته إيفي بشخص ما، لكن ما كان له أن يعرف من. خصوصاً وأنه كان يحس أنها خائفة. حزر كذلك أنها كانت تتألم وأن هذا الألم كان يجرف كل شيء في طريقها.

- هل أنت بحاجة إلى نقود؟

لا إجابة. لكن عينيها ما فتئتا تفشيان الذعر الذي كانت تجاهد لإخفائه.

- لكي تحصلي على المخدرات، هذا هو الأمر؟ تريدين الحصول على جرعتك؟ أنت بحاجة ماسة إليها؟

ثارت ثائرة إيفي:

- لست مدمنة!

- هل ترتادين مدرسة في مكان ما؟

- ما الذي يهمك في الأمر؟

دنا كونور من إيفي، وحاول مقاربة أكثر عقلانية.

- اسمعي، أنا طبيب وبوسعي أن أجد لك مأوى تمضين فيه ليلتك.

- تريد أن تخلصني، هذا هو الأمر؟

- أريد مساعدتك.

- وأنا في غنى عن مساعدتك!

- ماذا تريدين إذاً؟

- بعض النقود، هذا كل شيء.

- بعض النقود لأجل ماذا؟

- غريب أمرك! أنت شرطي أو ماذا؟

بخمشة من أصبعه، فتح كونور قفل محفظة إيفي كي يرى محتوياتها.

لا شيء. لا تذكرة. ولا أدنى قطعة نقد.

ارجع بطاقة الهوية إلى مكانها وناول المحفظة إلى الصبية التي استرجعتها بحركة خاطفة.

- هل أشتري لك وجبة دافئة؟ اقترح عليها.

- وأقدم لك ماذا، بالمقابل؟

- لا شيء يا إيفي، وأحنى رأسه.

في الأثناء، كانت تحدق بريبة ناحيته. لقد علمتها الحياة أن ترتاب بالرجال حتى مع وجود هذا الشيء المطمئن الذي يفوح من هذا الرجل.

- ولماذا ترغب في مساعدتي؟

- لأنك تذكريني بشخص ما.

بدت مترددة، ومن ثم:

- إنني أتخلى، أنا في غنى عن وجبتك.

لكن كونور ألح:

- أصغي إليَّ، هنالك وجبة عشاء في أعلى شارع 14. البيرتو، ذلك هو اسم المطعم. أنت تعرفين أين يقع؟

هزت إيفي رأسها بالإيجاب، بتمَلْمل.

- سأعود إلى سيارتي، صرح كونور، ثم سأذهب إلى هناك لتناول وجبة شهية. البيرتو، في نيويورك، هو ملك الهامبرغر. مطاعم الماكدونالد لا تقارن معه في شيء، سترين...

- لن أرى شيئاً مطلقاً.

- في كل الأحوال، سأكون هناك. آنذاك، بعد عشر دقائق، إذا كنت ذاهبة من أجل شريحة لحم مع قطعة خبز هشة، بضعة بصلات صغيرات، رقائق خيار، وبطاطا مقلية، فإنك تعرفين أين تجدينني.

من دون عجلة، استدار ورجع من حيث أتى، سار إلى وسط الرصيف. كان قد اجتاز عشرين متراً عندما استدار.

كانت انعكاسات الأضواء تلون بالفضي ندف الثلج التي استمرت

في السقوط مضفية على الشارع مظهراً خلاباً. كالمخدرة من البرد، لم تتحرك إيفي سنتمتراً واحداً. مجدداً، صعق كونور لهزالها وشحوبها الجثماني، بدت كما لو أن شيئاً فيها مات سلفاً.

- لن آتي، أكدت بنوع من التحدي.

- القرار عائد إليك، صرخ كونور باتجاهها.

*

بعد ربع ساعة على الأكثر، كانت إيفي تجلس إلى كونتوار الكوفي شوب، تلتهم وجبتها بشهية من لم يتناول وجبته منذ يومين.

كان عشاءً خارج الزمن، وكانت الوجبة تغمر برائحتها الزكية النيو جيرسي بمقاعده المنجدة بجلد الفرو العتيق والمطلية بالكروم الصقيل. على الجدار، خلف درج المحاسب، سلسلة من الصور المهداة التي تترك الانطباع بأن جاك نيكلسون وبروس سبرنجستين أو سكرليت جونسون ارتادوا المكان منذ وقت قريب. في عمق المطعم، صوت نائح يصدر عن عجوز يدعى كلابتون لأجل نصف دزينة من الزبائن المتوحدين.

في الخارج، على الرصيف، كان كونور يدخن سيجارة ويتفحص الفتاة عبر الواجهة الزجاجية كما لو كان بوسعه أن يرى خلف مظهرها أسرار روحها.

كانت إيفي قد وضعت معطفها مكوراً على المقعد وفتحت صدريتها على قميص اسود مخطط بشعار: «Kabbalists do it better». على عنقها، من طرف سلسلة فضية، يتدلى صليب مقلوب ونجمة خماسية. كانت تلتهم هامبرغرها بعجلة، بحيث لطخت بعصارة الكاتشب كل ما حولها. وبينما هي تزيل البقع مستخدمة المحارم الورقية، لاحظ كونور أنها كانت تضع لصقة حول

رسغيها. لاحظ على نحو خاص آثار الحزوز الذاتية على باطن ذراعيها. لنقل أنه إذا كانت هذه الفتاة ليست على ما يرام فإن في ذلك تلميحاً. أحسها كونور مدفوعة بقوى معاكسة، مفعمة بالتصميم، لكن في الوقت نفسه قريبة من الانهيار.

أن يرى ما يدور في أعماق الناس، فتلك ملكة كان يتقاسمها مع مارك منذ سني شبابهما.

مارك...

وإذ يفكر في صديقه، اضطربت نظرته. كانا قد تعاهدا في طفولتهما على أن يعتمد كل منهما على الآخر. على مدار سنوات، تعلما كيف يقاومان لكي يجتازا معاً الضربات القاسية التي لم تبخل الحياة عن تسديدها إليهما. لكن اختفاء ليلى نسف معالم طريقهما ووعودهما الرائعة.

سحب كونور النفس الأخير من سيجارته ورمى العقب في الثلج. في عشية أعياد نويل هذه، ينتابه الإحساس بأنه يحمل كل تعب العالم على كتفيه. ماذا يعمل هنا، في الثالثة صباحاً، متجمداً من البرد عوضاً عن أن يكون في منزله؟ ليس بوسعه الاستمرار في اتباع هذا النمط من الحياة. لا يسعه أن ينقذ كل الناس. كان ثوب الأم تيريزا أثقل من أن يُحمل. ربما كان الوقت مناسباً لعمل وقفة، لنسيان مرضاه، لمغادرة مانهاتن والذهاب إلى مكان آخر وبدء حياة جديدة.

أن يولد مجدداً.

خلال ثوانٍ، رفرف هذا الاحتمال في أعماقه كشيء مثير للغبطة إلى حد أحس معه بنظرة إيفي تستقر عليه، من الجانب الأخر من الزجاج. رفع رأسه، وللمرة الأولى تتقاطع نظراتهما حقاً. حينئذٍ، فهم كونور ببداهةٍ بمن تذكره هذه الفتاة.

بنفسه.

من دون أن يعرفها، كان يحس أنهما يتقاسمان الوجع نفسه. كانت تحمل ألمها مثل راية في حين كان يموه ألمه خلف وضعيته كطبيب. لكن في النهاية كانا ينتميان إلى العائلة نفسها.

قرر كونور أن يتراجع إلى دفء الكوفي شوب. كان جيتار كلابتون قد أخلى مكانه لجيتار بوب ديلان. **الاحتماء من العاصفة**. إنها أحد أغانيه المفضلة، وكان ديلان قد كتبها في العام 1975 بعد انفصاله عن امرأته سارة. وفي ذلك برهان جديد على التأثيرات المفيدة للحزن على الإبداع الفني...

إذاً، هل أعجبك الهامبرغر؟ سأل فيما يجلس على المقعد أمامها.

- لا بأس، أقرت إيفي فيما تبتلع جرعة من مخفوق الحليب.

انحنى كونور باتجاه الفتاة. إذا كان يرغب في مساعدتها، فعليه أن يعرف أكثر عنها. وضع في صوته كل ما لديه من قدرة على الإقناع:

- قلت لي للتو إنك كنت تريدين بعض النقود...

- تجاهل الأمر، خاطبته.

- لا، وضحي لي، هذه النقود كانت لأي هدف؟ أريد أن أفهم.

- لا يوجد شيء للفهم.

- إذا كنت ستأخذين الأمر على هذا النحو...

أطلق كونور زفرة طويلة. فلماذا أراد الشيطان دائماً أن ينشغل بالناس ضد رغبتهم؟

مغتاظاً، غادر الطاولة واتجه نحو الكونتوار، طلب كورونا واحدة مبقياً عينيه على إيفي. قلقة، كانت تقضم أظافرها المطلية بالأسود بينما الوجه باتجاه النافذة.

دفع ثمن مشروبه من البيرة، وراح يتفحص محفظته. كانت تحتوي على ثلاثة أوراق نقدية من فئة المائة الدولار التي سحبها حديثاً من الصراف الآلي. لكي يريح ضميره، كان بحاجة ليتكرم عليها بمبلغ كبير من النقود. ردة فعل كلاسيكية لفقير سابق. لكن فكرة نبتت في نفسه. فنزل عن مقعده واقترب من إيفي التي كانت تجمع أغراضها قبل المغادرة.

- سنلعب لعبة صغيرة، خاطبها فيما يضع على الطاولة إحدى الأوراق النقدية من فئة المائة دولار.

- ما اسم لعبتك؟ رشوة قاصرة؟

- حسبت أنك ترغبين في كسب بعض المال. . .

نظرت إلى الورقة النقدية بمزيج من الاحتقار والفضول. كانت يد كونور تغطيها جزئياً وقد لاحظت أن سلامي ينقص بنصر يده.

- إذا أردت، الأمر عائد إليك، قرر كونور أن يمد الورقة النقدية باتجاه الفتاة. تجيبين على سؤالي وتحصلين عليها. . .

نظرت إليه بتمعن، مترددة في الدخول إلى دولاب مسنن لا تفهم منطقه. لكن، أخيراً:

- اطرحه. .

- ما حاجتك للنقود؟ سأل كونور فيما يحلق فيها بحدة.

أدنت إيفي يدها من الورقة النقدية الخضراء.

- لكي أبتاع لنفسي بندقية. قالت بجسارة.

واستولت على الورقة النقدية ووضعتها في جيبها ملقية نظرة تحدي نحو كونور.

كانت هذه النقود هي الأكثر يسراً التي جنتها خلال كل حياتها. تجمد كونور. صعقته إجابة الفتاة. اجتازت صورة السلاح الناري ذهنه

فجأة، متبوعة بانفجار وعويل. ذكرى مدفونة منذ وقت طويل، عاودت الظهور على حين غرة.

وقد خامره شعور بعدم الراحة، أخرج من جيبه ورقة نقدية ثانية ووضعها في المكان نفسه.

- لماذا أنت بحاجة لبندقية؟

هذه المرة، ترددت إيفي لوقت أطول. خطر ببالها للوهلة الأولى أن تكذب. لكنها حزرت أن كونور استشعر نيتها. على نحو ما، كانت الحقيقة نادرة وغالية وكانت مئات الدولارات التي سيقدمها لها هي ثمن هذه الحقيقة.

- لأنني أريد أن أقتل رجلاً.

سقطت الجملة مثل عقوبة. مترنحاً، في البدء، هز كونور رأسه وقد أصابته إجابة الفتاة بالذعر.

مع ذلك بسط ورقته النقدية الثانية ووضعها على الطاولة وطرح سؤاله الأخير:

- لماذا تريدين قتل رجل؟

هذه المرة لم يعتر إيفي أي تردد. كانت قد ذهبت الآن إلى حيث لم يعد بإمكانها التقهقر. استولت على الدولارات الأخيرة كما يجمع اللاعبون ما كسبوه من مال في لعبة البوكر.

- لكي أثأر لنفسي.

آنذاك، انبثقت في رأس كونور، ثلاث كلمات من الماضي - ثأر لا يعرف الصفح- وأشاعت، البرد في ظهره.

- هكذا، تثأرين لنفسك؟ ممن؟ ولماذا؟

لكن إيفي كانت ارتدت معطفها سلفاً وعقدت شالها.

- آسفة، قالت فيما هي تنهض. سؤالك هذا يعادل سؤالين إضافيين وأنت لم يعد لديك ما تدفعه.

وقد وقع في الفخ الذي وضعه لنفسه، راح يرمقها بلا حيلة وهي تجتاز باب المطعم.

- انتظري! صرخ ليستوقفها.

لحق بها في الشارع. كان الثلج لا يزال يتساقط بإيقاع منتظم ملقياً على المدينة رداءه الأصم والثقيل.

- لا يمكنك أن تغادري هكذا. الجو بارد وهذا خطر عليك. سأجد لك مأوى تقضين فيه ليلتك.

أعطته ظهرها ولم تكلف نفسها عناء إجابته.

وقد استنفد كل الوسائل، حشر كونور في جيبها كرت الزيارة مع كل عناوينه.

- إذا غيرت رأيك. . .

كان يعرف مع ذلك أنه لن يحدث.

كانت إيفي تجتاز الشارع حين توقفت فجأة وسط الشريط المخصص للمشاة واستدارت نحو كونور كي تطرح عليه بدورها سؤالاً وحيداً:

- الشخص الذي أذكرك به. . . من هو؟

بينما لا يزال واقفاً أمام الكوفي شوب، أشعل كونور سيجارة جديدة. كانت نفثات الدخان الأزرق تتكاثف في البرد وتتكون في أشكال حلزونية ترتفع إلى أعلى رأسه.

- أنا.

أمعنت النظر فيه. كانت إجابته قد أدهشتها وخضتها في الوقت نفسه. لمرة أخيرة، التقت نظراتهما قبل أن تستأنف إيفي سيرها. راح

كونور يراقبها فيما تبتعد في الظلام مرسلاً نفثات عصبية من دخان سيجارته. كانت تغيب الآن عن نظراته، مع ذلك بقي لدقائق طويلة يتمعن بذهول في آثار الخطوات التي خلفها حذاؤها على الثلج.

لا يسعه بطبيعة الحال أن ينقذ كل الناس.

لكن، كم عساه يكون متوسط عمر فتاة في الخامسة عشرة،

ضائعة،

بدون موارد،

في منتصف ليلة شتوية،

في مانهاتن؟

4

طريق الليل

عندما تنظر إلى نفسك في المرآة وترغب
في أن تحطمها، فليست المرآة هي ما يجب
أن يحطم، لكن أنت من يجب أن يتغير.
مجهول

أوقف كونور سيارته في شارع بروم واجتاز على الأقدام صفي المنازل التي تفصله عن مسكنه. مثل باقي المدينة، كان حي سوهو يرزح تحت ثلج متجانس يمحو لافتات كاليريهات الفن ولافتات المطاعم ومحلات الموضة.

وصل أمام عمارة من الحديد الصلب تستند إلى دعامة من الحديد المصهور. وكانت واجهة العمارة المرممة حديثاً مزينة بمئات القناديل، بينما على الرصيف وجِد رجل ثلج، - غير مكتمل - مزيَّن بقبعة وجزرة وغليون.

- ارتدي هذا باستمرار، يا صديقي، قال له الطبيب عاقداً شاله حول عنقه.

حين وصلِ إلى البهو، تناول بريده قبل أن يتوجه نحو المصعد. قادته كابينة المصعد إلى الدور الأخير حيث توجد شقته، عبارة عن

طبقة علوية واسعة ذات ديكور صارم. في الداخل، لا تنتشر على مدار ساعات نكهة البسكويت ولا رائحة اللحم الرومي المشوي بالفرن. لا شجرة عيد الميلاد ولا حجرة طفل. لا دفء ولا حياة. وكان اشترى هذه الشقة قبل خمس سنوات رمزاً للنجاح الاجتماعي، إلا أنه لم يكن أثثها حقاً ولا صنع لها ديكوراً. ليس سوى مزيد من العمل ومن التعقيدات... خصوصاً أن أحداً لا يتقاسمه السكن.

بينما كان كونور يكرس حياته لسبر أرواح الآخرين، كان نفسه رجلاً غامضاً وخفياً. كان يحب النساء، لكن كل مغامراته الغرامية ظلت حتى الوقت الراهن بدون منظور مستقبلي. حتى عندما كانت أموره تسير على ما يرام، كانت هنالك على الدوام لحظة تعيب فيها عليه شريكته كونه كائناً لا يمكن الإمساك به. كيف له أن يقر بأنه لم يصل إلى المستوى الذي يجد فيه علاقة غرامية ما على درجة من الحميمية التي تربطه بمرضاه؟

كبح تثاؤباً وفتح ثلاجته كي يعثر فيها على قنينة من شاردونيه وكانت لا تزال في بدايتها. صب لنفسه كأساً قبل أن يعود إلى الصالون. وبما أن الشقة كانت باردة، ارتشف في جرعة واحدة حصته من الكحول ثم لم يقاوم رغبته في أن يصب لنفسه كأساً أخرى.

هذا المساء يحس غريزته القديمة في تدمير الذات تطفو إلى السطح مجدداً. كان قد أمضى حياته في مكافحتها، لكنه كان يعرف أن هذه المعركة تتطلب احتراساً في كل اللحظات.

فك ربطة عنقه وتقدم بضعة خطوات باتجاه الواجهة الزجاجية، ثم ارتمى على الكنبة. كانت لا تزال ترفرف في أعماقه صورة تلك الفتاة الغريبة، إيفي، التي سعت إلى أن تسرق منه حقيبته. وجد نفسه يفكر في الكرب الذي قرأه في نظرتها وشعر مجدداً بالأسف لعدم استطاعته أن يفعل شيئاً لأجلها. كلماتها المثيرة للقلق كانت لا تزال

تتردد في رأسه مسببة له الصداع النصفي: «أريد أن أقتل رجلاً ما»، «أريد أن أثأر لنفسي».

- لا تقترفي هذه الحماقة، تمتم كما لو كان بوسع إيفي أن تسمعه. أياً كان ما عمله لك هذا الرجل، لا تقتليه.

وفي هذه اللحظة بالضبط زن هاتفه المنزلي. غضن حواجبه. إنها نيكول بالتأكيد. في انهماكه بهذه القصة نسي أن يتصل بها.

رفع السماعة.

لم تكن نيكول.

كان صوت امرأة شابة وقد تغير كلية بفعل الخوف وكانت تتهم نفسها بقتل شخص ما.

5

النور

ليس بوسع أحد أن يبلغ الفجر من دون
المرور بطريق الظلام.

جبران خليل جبران

بعد ثلاثة أشهر...

الوقت نهاية الخريف، ومطلع الربيع.

فجر وردي شاحب يبزغ على الجانب الشرقي من المدينة، مبشراً بمقدم نهار مشرق.

غير بعيد عن مصارف إيست ريفير تنتصب كنيسة نوتردام، عبارة عن أبرشية صغيرة إسبانية، محصورة بين مخزن للبضائع ومبنى بلا روح. ويشتمل بهوها على مركز إيواء للمشردين مؤقت. وعلى الرغم من تجهيزاته البدائية - بلاطات متشظية وفواصل مزعزعة وأنابيب مياه مختلة... يحظى المكان بالتقدير من قبل هؤلاء الذين يعيشون في الشارع. ذلك أنهم كانوا يعرفون أنه، على عكس المآوي الرسمية، لن يطرح عليهم هنا أي سؤال، وأنه سيكون بوسعهم أن يجدوا بعض الغذاء والملابس النظيفة.

في مهجع غرف النوم، كان عشرات المشردين ينهون ليلتهم

مضطجعين على الأسرة الميدانية بينما في الصالة المشتركة - في الدور الأول- كان أوائل الناهضين يتناولون وجبة إفطارهم الرخيصة. إنها نسخة القرن الواحد والعشرين من مأوى المشردين: إلى طاولة، تجلس امرأة في مقتبل العمر، مع ذلك، كانت قد فقدت أسنانها وكانت تلعق قدح القهوة. إلى جوارها، يجلس روسي طويل بذراع مبتور، يفتت على نحو أخرق قطعة بسكويت كي يطيل من أمد تناولها. على مسافة أبعد قليلاً، بالقرب من النافذة، يلتف عجوز أسود داخل كيس نوم تالياً صلواته على نحو وسواسي، ولا يبدو عليه أي اكتراث بالغذاء.

فجأة، ينفتح الباب، فيتراءى خلفه رجل بمعطف أسود ولحية كثة. مع أنه لم ينم هنا فقد كان من مرتادي المكان. وكان قد تعوّد منذ بعض الوقت أن يأتي كي يعيد شحن بطارية هاتفه في صالة الملجأ.

محنياً وغير مبالٍ بما يحيط به، تقدم مارك هاثواي إلى زاوية الغرفة وتهاوى بالقرب من مقبس كهربائي قبل أن يوصل به الجهاز المطلي بالكروم.

لم يكن قد رأى زوجته منذ أعياد الميلاد. وحالياً، لم يعد يشبه شيئاً. بشعر أشعث ونظرة منطفئة ووجه ملطخ بالوسخ، غادر عالم الأحياء منذ وقت طويل كي يتقدم في ضباب مستمر، كمرحلة أخيرة قبل السقوط.

لديك رسالة جديدة.

لم يوقظ فيه الصوت المعدني الصادر من الجهاز شيئاً إلى أن . . .

- مارك؟ هذا أنا . . .

هذا الصوت، على العكس سابقه، تعرف إليه: إنه صوت امرأته. على الرغم من روحه المشوشة، لمس نشيجاً في صوتها.

- **اذكرني، لأمر ضروري.**

صمت قصير، ثم:

- **ينبغي أن أخبرك بشيء...**

في هذه اللحظة، كان مارك مقتنعاً أن نيكول ستعلن له اكتشاف جثة ليلى. انتابته فجأة رؤياً وحشية: غول، حيوان، فتاة صغيرة عوت عبر الليل، لكن...

- **كنت على...**

لم يتسن له التنفس. وكان نبض قلبه يتردد في صدغيه.

- ... **كنت على حق**، استأنفت نيكول.

صمت جديد. هذه المرة لم يعد يصدق شيئاً، لم يعد يفهم شيئاً، ثم:

- **وجدوها...**

يغلق عينيه، يجد القوة لكي يتمتم صلاة من دون أن يعرف إلى من يتقدم بها.

- **إنها على قيد الحياة يا مارك.**

موجة كاوية عبرت جسده وصعقته. حالياً كان هو الذي يبكي.

- **ليلى على قيد الحياة.**

6

باقية على قيد الحياة

أن نحب يعني أن نتعهد بالرعاية عزلة الآخر،
من دون أن نشغلها أبداً ومن دون أن نعرفها حتى.
كريستيان بوبين

لم يعاود مارك الاستماع للرسالة حتى. ليلى على قيد الحياة! قبل دقيقة، كان على مشارف الموت أما في الوقت الراهن فيحس بنفسه ينبعث إلى الحياة مجدداً ممسوساً بالخبر الذي بلغه للتو.

غادر الملجأ وركض إلى حد انقطاع نفسه على طول شارع ستانتون كي يصل إلى ليتل إيطالي. حاول مراراً أن يوقف تاكسي، لكن أحداً لم يقبل أن يقله. في كل الأحوال، لم يكن في جيبه أدنى دولار. الأسوأ من ذلك أنه كان عليه أن يتحايل كي يستقلّ المترو إلى بروكلين.

لكي يسترد أنفاسه، استلقى على أحد مقاعد القطار. لم يعد قادراً على التنفس وتشوش نظره، لكن ما كان له أن ينهار. ليس الآن. كان عليه أن يهدأ ويستعيد قواه بالتدريج، حتى إذا كان رأسه يوشك على الانفجار وقلبه ينبض بمعدل مائة وستين درجة.

تمالك نفسك. ينبغي عليك أن تصير ما كنت عليه من قبل. قم

بذلك من أجل ليلى. إنها على قيد الحياة. كنت تعلم ذلك على الدوام. لست تعرف على وجه اليقين لماذا، لكنك عرفت ذلك على الدوام.

أغمض عينيه، وحاول أن يعيد أفكاره إلى نصابها.

من أجل هذه اللحظة، قاومت الرغبة في الذهاب بدمارك إلى نهايته. كي تكون هنا عندما يتم العثور عليها مجدداً. حالياً، سيكون عليك مساعدتها. سيكون عليك أن تكون قوياً من أجلها.

بقي على هذا الوضع وقتاً طويلاً من دون أن يفتح عينيه إلا ليلقي نظرة على اسم كل محطة يتوقف عندها القطار.

فجأة، وسط الغموض الذي يكتنف دماغه، انبثق شيء ما. كان حدساً أكثر منه استنتاجاً أكيداً.

التاريخ! تأكد من التاريخ!

على المقعد أمامه، كانت تتأرجح نسخة من **نيويورك بوست** الصباحية. اختطف الجريدة، وباضطراب طاف بنظراته فيها كي يرى تاريخ اليوم: السبت 24 آذار/ مارس 2007. البارحة مساءً، بعثت نيكول رسالتها الهاتفية. إذاً، فقد تم العثور على ليلى بالأمس.

23 آذار/ مارس 2007!

هذا التاريخ في حد ذاته لا يستدعي شيئاً خاصاً، لكن بالنسبة إليه فقد علَّم في قلبه ورأسه كالحُرق.

كانت ليلى قد اختفت في 23 آذار/ مارس 2002.

مضى على ذلك خمس سنوات.

يوماً بعد يوم.

*

وصل مارك إلى شارع بروكلين الصغير والهادئ الذي يحتضن

المنزل الذي كان «منزله»، لكنه لم يعد كذلك. على الرصيف رأى عربة البوليس مركونة في موضع من غير الجائز التوقف فيه. بخطوتين واسعتين، تسلق درج السلالم الخارجية، ثم طرق الباب من دون أن يعبأ بالضغط على الجرس. أطل وجه نيكول من خلال الكوة. تبادلا نظرة عفوية تقول كل شيء: ألم الفقدان، متانة الروابط الصادقة. . . ثم بداية عناق أوقفه ظهور عميل سري من مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكان متوارياً خلف امرأته.

- صباح الخير، دكتور هاثواي، قال رجل البوليس فيما يبرز شارته. فرانك مارشال، من مكتب التحقيقات الفيدرالي في كاليفورنيا، أحسب أنك تتذكرني.

استدار مارك باتجاهه. وكان على نيكول أن تختصر اللقاء بما أن الرجل لم يبدِ اندهاشاً لوقوفه أمام متشرد. كانت لديه بنية صلبة مقارنة بإيد هاريس: كان قصيراً ممتلئاً بقصة شعر على شكل الفرشاة وبملامح ودودة على نحو يستعصي على التحديد. ولقد كان هو من أشرف على التحريات المتعلقة باختطاف ليلى.

- أين هي؟ نطق مارك. أين هي ليلى؟

فتحت نيكول فمها، لكن مارشال أجاب نيابة عنها.

- ينبغي الحذر يا دكتور هاثواي. . أنذره فيما يتقدم ناحية الحاسوب المحمول الموضوع على طاولة الصالون. للحظة لم نكن متيقنين 100% إن الأمر يتعلق بالضبط بابنتك. تحليل الـ إيه. دي. إن (ADN) الذي هو تحت الإعداد سيقول لنا المزيد.

ضغط مارشال على الزر فظهر وجه الطفلة على الشاشة.

- التقطت هذه الصورة مساء أمس، بعد بضع ساعات من ظهورها.

دنا مارك من الشاشة.

- إنها ليلى. . ومن دون تردد. . إنها ابنتنا!

- هذا ما آمل، أجاب مارشال.

- أريد أن أراها!

- هي ليست في نيويورك يا مارك.

تقدم مارك باتجاه مارشال.

- أين هي؟

- في لوس أنجلوس، في مستشفى سانت ميموريال للعناية الطبية.

- كيف. . . كيف حالها؟

- لا يزال من الصعب الحديث عن ذلك. لا يزال الأطباء يجرون الاختبارات. من السابق لأوانه أن. . .

- هل تعرضت لاعتداء. . اغتصبت؟

- بصدق، لا نعرف شيئاً عن ذلك.

انفجر مارك.

- كيف ذلك، لا تعرفون شيئاً عنها!

كان قد اقترب من الشرطي إلى حد ملامسته وبحلق فيه بسحنة متوعدة.

- اهدأ، اقترح مارشال فيما يتراجع إلى الخلف. سأحكي لك كل شيء بالتسلسل كما فعلت مع امرأتك للتو.

سحبتهما نيكول إلى المطبخ وأعدت لهما القهوة. جلس الرجلان جنباً إلى جنب وأخرج مارشال دفتر الملاحظات من جيبه كي يطمئن بأنه لن ينس شيئاً.

- طفلة في الثانية عشرة، عثر عليها أمس بعد الظهر، حوالي

الخامسة، تائهة في أحد أروقة جاليري سان شين بلازا التجاري في الأورنج كاونتي لا.

أمسك مارك برأسه بين يديه. استمر مارشال:

- عمرها، محياها، السمات الوراثية، ندبتها على الذقن: كل ذلك جعلنا نعتقد أن الأمر يتعلق بابنتكما.

- هذا المركز التجاري، لهث مارك. هل هو نفس...؟

- ... أن تكون قد اختفت قبل خمس سنوات بالضبط، يوماً بعد يوم، أكمل مارشال.

تعبير ينم عن الريبة بدا على وجه مارك.

- الساعة نفسها، المكان نفسه، مع فاصل خمس سنوات...

- ليس هذا بالتحديد ما يمكن تسميته بالمصادفة، أنا أوافقك الرأي.

- وليلى، بماذا أخبرتكم؟

- هنا تكمن المشكلة يا دكتور هاثواي، ابنتكما لم تخبرنا بشيء..

غضن مارك حاجبيه.

- لم تتلفظ بأدنى كلمة، شرح فرانك.. لا أمامنا ولا أمام الفريق الطبي الذي يعتني بها منذ مساء أمس.

خرس كامل؟

الآن كان مارك يفكر في طبيب. مراراً، خلال مساره المهني، كان قد اعتنى بأطفال يعانون من الخرس الذهاني.

- سمعت بما فيه الكفاية! قال ذلك وانتفض من مكانه. سأغادر إلى لوس أنجلوس وأعود بليلى معي.

- لقد حجزنا مقاعد لليوم أو الغد، صرح فرانك ناهضاً بدوره.

اتصل بي عندما تكون على أهبة الاستعداد. إحدى سياراتنا ستقلك إلى المطار.

- أنا على أهبة الاستعداد، جزم مارك. من غير المفيد الانتظار.

صمت قهري خيم فجأة على الحجرة، بعد ذلك تحدثت نيكول:

- كلا.

استدار مارك باتجاه زوجته وعلى وجهه علائم عدم الفهم.

عوضاً عن كل إجابة، صوبت نيكول إصبعها باتجاه الحائط الزجاجي. نظر مارك إلى الزجاج فرأى انعكاس صورته كما لو في مرآة. كانت صورة شخص غريب هزيل ومتسخ وبشعر طويل مليء بالقاذورات وبلحية شعثاء وفك مجوف وعيون محتقنة بالدم. وإجمالاً فقد كان يبعث على الذعر.

- أنت لا ترغب في أن تراك على هذا الحال، أليس كذلك؟

خجلاً، نكس مارك رأسه علامةً على الموافقة.

*

- لحسن الحظ أن جميع زبائني لا يفعلون ما تفعل! غمغم جو كالاهان، أحد آخر الحلاقين التقليديين في بروكلين. انتظار عامين بين حلاقة وحلاقة، شيء غير معقول يا دكتور هاثواي! هذا من دون أن أتطرق إلى اللحية حتى!

على أقل تقدير، استلزم الأمر ساعة من الجهد الشاق كي ينتهي الحلاق العجوز من عمله. على الرغم من أنه قد قام بعمله على خير ما يرام، فقد وضع مرآة بيضاوية عند مؤخرة رأس الطبيب لكي يتسنى له معاينة قصة شعره الجديدة.

- في المرة القادمة آمل أنك لن تأتيني بعد تركك لشعرك ينمو لوقت طويل، عدني مارك.

بعد خروجه من عند الحلاق، عرج سريعاً على محل بارك سلوب الأنيق الذي كان يقتني منه ملابسه عندما كان لا يزال طبيباً شاباً مفعماً بالمستقبل والطموح. ببنطلون من الكتان ومعطف حسن الصنع، وكان الأخير من منتجات بولو الأخيرة بعلامته ذات التمساح الفضي، فقد بدا بكل تأكيد راهباً. قبل بضعة ساعات لم يكن سوى حطام يتسكع بثياب رثة ودبقة. وهاهو، مع قليل من الدهان وبعض الأقنعة، يفتن مجدداً.

عاد إلى منزله سيراً على الأقدام. كانت سيارات الشرطة قد اختفت من أمام المنزل.

خلصنا منهم.

كان يوشك أن يضغط على الجرس عندما تذكر أن نيكول أرجعت إليه مفاتيحه. فتح الباب واجتاز البهو. كانت النوافذ مفتوحة، والصالون يسبح في نور ربيعي ويفوح بأريج الليمون وأزهار البرتقال. وكان قرص لكيث غاريت يدور داخل جهاز هاي-فاي (hi-fi)، ويزخ مطراً من الألحان البلورية. **كونسيرت كولين**: رائعة غاريت، الكونسيرت المرتجل الأكثر روعة لكل العصور، ألبوم الجاز الذي يثير إعجاب حتى أولئك الذين لا يحبون الجاز. تجمد مارك من التأثر. كان القرص ينطوي على قيمة عاطفية بالنسبة إليه: أهدته نيكول إليه في مطلع قصتهما العاطفية.

- نيكول؟ نادى مارك.

لا إجابة. لابد أنها في الطابق العلوي.

صعد السلالم أربعاً فأربعاً.

- نيكول؟

فتح باب صالة الحمام.

لا أحد هناك.

توقف على عتبة غرفتها. وقع على كرت بريدي ملصق بالباب. وكان يصور جسدين، يضمان بعضهما ويتلويان داخل ستار شفاف. في الحال، تعرف مارك إلى **رقصة الفالس**، منحوتة كاميل كلوديل التي أثارت إعجابهما في متحف رودان خلال زيارتهما الأولى لباريس.

موسيقى غاريت والشغف بكاميل كلوديل.

قطعتي الـ«حلوى» اللتين تركتهما نيكول، أعادتاه إلى ماض بعيد.

لكن أين هي امرأته؟

حائراً، انتزع الكرت البريدي وقرأ على الصفحة اليسرى بضع كلمات مكتوبة على عجل:

> **حبيبي مارك**
>
> **لا تقلق بشأني. أنا بخير، مع ذلك فإنني لا أستطيع الذهاب إلى لوس أنجلوس في الوقت الحالي.**
>
> **على أن أكثر ما يهمني: أن أكون معك ومع ابنتنا مجدداً.**
>
> **لكن ذلك مستحيل.**
>
> **هذه الرحلة يجب أن تقوم بها بمفردك.**
>
> **أعتذر لعدم قدرتي على التحدث معك أكثر بهذا الشأن.**
>
> **في قادم الأيام، ستفهم ذلك.**
>
> **مهما يكن ما سيحدث بعد ذلك، فاعلم أنني أحببتك على الدوام وسأظل أحبك.**
>
> **نيكول**

7

من الجَنَّة

أثناء ما كنت خائفة، أقبل هو
وبمجيئه، تقلص خوفي.
إميلي ديكنسون

بعد اثنتي عشرة ساعة
لوس أنجلوس
مستشفى سانت فرانسيس ميموريال

لم يكن المصعد قد انتهى من صعوده الطويل. وبينما كان مارك هاثواي وفرانك مارشال محصورين بين جدرانه، راحا يحملقان بحنق في بعضهما. فقبل أن تبلغ كابينة المصعد هدفها، قرر عميل مكتب التحريات الفيدرالي أن يطرح السؤال الذي كان يحرق شفتيه:

- ألا تجده أمراً غريبا، أن زوجتك لم ترافقنا؟

لم يرد مارك بشيء، مثيراً لدى فرانك شعوراً بغيضاً بأنه يتحدث للفراغ.

- في نهاية المطاف، استأنف فرانك.. ابنتها التي ظننتها ماتت عادت إلى الظهور و...

- إلى ماذا تريد أن تصل؟ قاطعه مارك وقد انتابه شعور بالانزعاج.

تردد فرانك للحظة ثم قال:

- إذا كنت تعرف أشياء نحن نجهلها بخصوص زوجتك، إذا كانت لديك بعض الشكوك، فينبغي أن تقولها لنا، هذا ما أود الوصول إليه.

لكن مارك استمر في تجاهله وأدار ظهره إليه علانية. كان عليه أن ينسى تلك الكلمة الغريبة التي تركتها نيكول والتي لم يكن يعرف كيف يفسرها. بالنسبة إلى اللحظة، لم يكن يجب عليه أن يفكر إلا في ابنته التي كان بصدد رؤيتها بعد بضع دقائق. لا شيء آخر له قيمة، لا شيء له أي أهمية.

- شيء آخر أيضاً، أضاف فرانك: لدواعي التحقيق لا يرجو مكتب التحريات الفيدرالي أن يتم إفشاء خبر ظهور ابنتكما. لم ننشر الخبر في الصحف ونتمنى أن يبقى الصحفيون خارج الموضوع في الوقت الراهن.

- لماذا؟

- لدينا مبرراتنا، أجاب فرانك بحذر.

لكن مارك قام بهجمة مضادة:

- إلى حد أنكم لن تقولوها لي، طبعاً! هوسكم بالسرية لا حدود له! لكن كل هذا انتهى: لم يعد لديكم ما تملونه عليّ!

منزعجاً لتصرف مارك، ضغط فرانك على زر إيقاف الطوارئ محتجزاً بذلك المصعد بين دورين كي يتسنى له استيضاح الوضع.

- حتى نكون متفقين يا هاثواي: سأدعك تعود بليلى معك إلى نيويورك، بشرط أن تراعي عدداً من القواعد.

- أنت لا تعني لي شيئاً. شَغِّل المصعد.

- أطالب بأن تخضع ابنتك للمعاينة يومياً من قبل طبيب نفسي تابع للمكتب. وبمجرد أن تقرر أن تتكلم فنحن من سيأخذ أقوالها.

كان ذلك فوق طاقة مارك، وفي أقل من ثانية، قبض على العميل الفيدرالي من ياقة معطفه وألصقه إلى مرآة المصعد بقوة غير متوقعة تأرجحت معها كابينة المصعد.

- الطبيب النفسي هو أنا، مفهوم؟ لن ترَ ابنتي شخصاً آخر، إنني متخصص في هذا النوع من الحالات وأنا الأفضل في مجالي.

لم يحاول فرانك المقاومة لكنه ببساطة أدلى بهذه الملاحظة:

- ربما كنت الأفضل في ما مضى، أما الآن فلم تعد سوى رجل عدواني وطائش أمضى عامين من حياته في الشارع. وهذه ليست بالمؤهلات المطلوبة لطمأنة طفلة تعاني من صدمة، أظنك توافقني الرأي.

شدد مارك من قبضتيه مضاعفاً من ضغطه.

- لم تكن كفؤاً للعثور على ليلى! إذا كانت هاهنا اليوم فليس بفضلك! لذلك، فاتركني بسلام! أنا سأتولى زمام الأمور. حُسمَ الأمر.

أرخى مارك قبضتيه وضغط على الزر كي يعيد الحركة إلى المصعد.

أعاد فرانك ضبط ياقته موضحاً بنبرة محايدة:

- لن تنتهي القضية إلا عندما نضع خاطف ابنتك في الأصفاد.

*

انفتحت أبواب المصعد على رواق طويل ذي واجهات زجاجية يصفعها المطر والريح. حين وضع مارك قدميه على طرف الرواق،

كان الظلام حل وامتدت الأنوار إلى ما لا نهاية على مدينة الملائكة.

حسب التعليمات التي زود مارك بها وحرص على اتباعها، كانت حجرة ليلى تقع عند نهاية الرواق. ولقد تسنى له أن يلمح بابها الواقع على مسافة أربعين متراً أمامه.

غرفة 466

أربعون متراً.

كان المستشفى يدندن برقصة الباليه التي يرقصها الأطباء والممرضات، لكن مارك لم يسمع شيئاً من ذلك. لائذاً بفقاعة من الصمت، راح يتقدم ببطء كما لو كان بصدد غطسة انقطع نفسه لها. كان نافد الصبر وممتلئاً بالمخاوف. ولكي يستعيد طمأنينته، راح يردد لنفسه كل ما افترض من قبل: ربما لا تتعرف ابنته إليه أو ظهرت بمظهر العدوانية، وربما لا يجد في نفسه القدرة على تخليصها مما ألم بها وربما...

ثلاثون متراً.

يمتد الوقت إلى ما لا نهاية. لماذا هو خائف إلى هذه الدرجة؟ كان على صواب مع ذلك. فمنذ خمس سنوات، في الاتجاه المعاكس وضد الجميع، حشد طاقته في اتجاه رفض فكرة موت ليلى. وهكذا حدث أن تصارع الآخرون مع رأسه أكثر مما تصارعوا مع قبضاته. وذلك هو الدرس الذي استقاه، هو وكونور، من طفولتهما في حي شيكاغو العفن، والقناعة التي قادت خيارهما المهني. وعندما كان الألم يتنامى ولا يسعهما رد الضربات المستمرة، كانا ينكفأن على نفسيهما ويدعان العاصفة تمر. ودائماً ما تكون هنالك لحظة يتعب فيها الخصم من الضرب. دائماً ما تكون ثمة لحظة حيث، أخيراً، يشير الوعد إلى مخرج.

عشرون متراً.

وكلما اقترب أكثر أحس بجوهر ما قاساه خلال السنوات الأخيرة، يتصاعد من أعماقه. إنه لزمن طويل، خمس سنوات من الغرق في هاوية الألم، ألم يعرف المرء أن ابنته تتألم وأنه لا يقدر أن يقدم لها شيئاً. شيء يفوق الاحتمال أن لا تجد، كإجابة وحيدة، سوى أن تتألم بدورك كأقصى محاولة للمشاركة.

عشرة أمتار.

خطوات أخرى وسيتلاشى الكابوس.

في هذه اللحظة، يصعب عليه أن يصدق ذلك.

مع أنه لم يلمس الباب، كان الباب ينفتح وئيداً.

في البدء، لم يميز سوى هالة من الشعر المعقوص الذي يبرز من بيجامة وردية واسعة. ثم طفلة صغيرة، وبجانبها ممرضة، رفعت الرأس باتجاهه.

هي! لقد كبرت، بطبيعة الحال. مع ذلك يجدها صغيرة جداً وهشة جداً...

في الحال، انفجرت قنبلة منزوعة الصاعق في قلبه لكنه، لكي لا يخيفها، كبح جماح رغبته في الارتماء ناحيتها مكتفياً بإيماءة صغيرة من يده.

ارتعد من كل أوصاله.

لا ترحلي، ليلى، لا ترحلي!

لم تأت الطفلة بحركة. حينئذٍ تجرأ مارك وترك نظراته تلتقي بنظراتها.

مضى على اختفائها ألف وثمانمائة وثمانية وعشرون يوماً.

كان قد هيأ نفسه لرؤية طفلة منهكة وضائعة، إلا أنه لم يقرأ في

عينيها ذعراً ولا ألماً. على العكس، فقد بدت وادعةً ومطمئنة. وهاهي حتى ترسم ابتسامة، تفلت يد ممرضتها وتركض باتجاهه. حينئذٍ، انخفض مارك كي يكون في مستواها وأخذها أخيراً بين أحضانه.

ضمها إليه وغمره شعور لانهائي بالعرفان.

إحساس يتجاوز في حدته ما شعر به حين ولدت.

- انتهى، همس في أذنها، انتهى.

كي يخلق انطباعاً بأن الأمور عادت إلى مجاريها، راح ينبش في حقيبة ظهره وأخرج منها أرنباً من قطيفة مخملية كان قد جلبه معه من نيويورك.

- جلبت لك أرنبك الأبيض، أتذكرين؟ لم تكوني تنامين قط من دون السيد أرنب.

- انتهى يا صغيرتي، ردد مارك كما لو ليقنع نفسه أكثر بذلك. انتهى. سنرجع إلى المنزل.

8

محطة المغادرة

أن تحلم حلماً مستحيلاً
أن تحمل حسرة الفراق
أن تحترق بحمى ممكنة
أن تغادر إلى حيث لا يغادر أحد. . .

جاك بريل

اليوم
25 آذار/ مارس 2007، الثامنة صباحاً
مطار لوس أنجلوس لاكس

مارك

توقف التاكسي أمام محطة المغادرة رقم 2، لكن مارك لم ينزل منه في الحال. كانت ليلى قد نامت على مدار مشوارهما إلى المطار فلم يشأ أن يوقظها بفظاظة. بعد مغادرتهما المستشفى، كانا قد أمضيا الليل في فندق داون تاون. ولم تكن ليلى قد نطقت بأدنى كلمة، مع ذلك كانت تبدو حورية وسعيدة برؤيته.

- ستستعيدين قدرتك على الكلام، وعدها فيما هي نائمة.

كان أكيداً من ذلك. فما كانت تحتاجه بالضبط أن تحس بنفسها مسيجة ومحمية. وكان مارك سيقوم بكل ما في وسعه كي يجعلها تشعر بالثقة.

من خلال زجاجات السيارة المغطاة بالبخار، نظر مارك بشيء من القلق إلى الحركة التي كانت تسود مداخل المطار الآن. كان يكره لوس أنجلوس، تلوثها، مظهرها الخارجي، وقسوتها. لطالما أعطته هذه المدينة المهولة الانطباع بأنها تبتلع كل شيء في طريقها: الطبيعة كما البشر.

في الشرنقة الواقية للسيارة، أراد أن يحس بالأمان للحظات إضافية مستسلماً للهدهدة التي يثيرها صفاء ألحان تعزف على كمان. كانت تبث عبر الراديو.

هذه الموسيقى... أعرفها.

- جميلة هذه القطعة، ما عنوانها؟

- الشاكون لباخ، أجاب السائق عاشق الموسيقى مناولاً مارك علبة القرص.

تفحص مارك الغلاف المزين بصورة تكاد تفتن: عازفة كمان بثياب قليلة ووجه يميل نحو مرآة. وكانت الصورة توحي بكائن ثنائي الرأس، شهواني ومثير للقلق في الوقت نفسه. وقد كتب على الرقعة الصفراء للملصق الرائع اسم الموسيقية وبرنامج العزف:

نيكول تعزف لباخ

عزف منفرد على الكمان

لم يكن لدى مارك وقت كي يصاب بالاضطراب. كانت ليلى قد فتحت عينيها للتو وراحت تحملق فيه مبتسمة قبل أن تكبح تثاؤباً.

- ارتدي سترتك، اقترح مارك، سنركب الطائرة.

نفذت الطفلة ما طلبه منها قبل أن يغادرا التاكسي متوجهين نحو صالة المغادرة.

في الصالة، كان التوتر على أشده. فقبل أسبوع تم اكتشاف مؤامرة إرهابية جديدة، ولقد بذر ذلك الرعب على جانبي الأطلنطي متسبباً بسلسلة من الإنذارات الخاطئة. وانتقل مستوى الاحتراس المضاد للإرهاب من «ممارسة النقد» إلى «التحذير من الخطر» وهكذا كان يلغى كل يوم عدد من رحلات الطيران. تأكد لمارك أن حالة الاستنفار لم تكن موجهة ضده، فتقدم مستعجلاً نحو الكونتوار المحدد.

كان يعرف أن التشدد في تفتيش المسافرين وتفحص الأمتعة سيؤخرانهما عن اللحاق بموعد الإقلاع، فأراد أن ينتهي من هذا الإجراء الشكلاني بسرعة كبيرة.

في وسط الزحام، أمسك يد ليلى بقوة كما لو كان يخشى أن يفقدها من جديد.

- دكتور هاثواي! دكتور هاثواي!

استدار مارك وقد أدهشه هذا الاستجواب.

على بعد بضعة أمتار وراءه، كان ثمة رجل يهرول باتجاهه ولم يكن قد رآه من قبل.

- ميكائيل فيليبس، أعمل في هيرالد، قدم نفسه.

غضن مارك حواجبه.

- أرغب في الحصول على بضعة كلمات من ابنتك.

صرح الصحفي جاذباً جهاز التسجيل من جيبه.

- ليس لدينا ما نقوله لك، قال مارك على نحو قاطع جاذباً ليلى ناحيته وأسرع في مشيته.

لكن الآخر اعترض طريقه وأراد أن يكون مقنعاً:

- نعرض عليكم عقداً: سبعون ألف دولار لقاء مقابلة وجلسة مصورة...

- اغرب عن وجهي! تفجر مارك.

وفيما يستدير لاحظ أن الصحفي استل هاتفه النقال وراح يعالجه بين أصابعه كي يلتقط له خلسة صورة.

من دون أن يكف عن مسعاه في حماية ليلى، أمسك بفيليبس من بلعومه ونشب أظافره في قصبته الهوائية إلى أن حزم الصحفي أمره على أن يخلي سبيل الجهاز.

سقط الهاتف النقال على الأرض، وبمجرد ذلك هشمه مارك بضربات منتظمة من عقب حذائه.

- ستدفع ثمن فعلتك! هدد الصحفي فيما يمسد عنقه.

للحظات، تفرس مارك في وجهه متعجباً من تهوره والسرعة التي جرت فيها المهاترة.

بينما يستدير على أعقابه متوجهاً إلى دائرة القيد، سمع فيليبس يحذره:

- أنت مصاب بلعنة مقدسة يا هاثواي، وإنك حتى لا تعي ذلك! لقد أجريت تحقيقاً: لدي تعليمات تجيز لي التواصل معك. أنت لا تعرف الحقيقة! لا عن امرأتك ولا عن ابنتك!

*

إيفي

لفظت العربة القادمة من المحطة الاتحادية راكبيها أمام محطة

المغادرة رقم 2. وكانت إيفي، فتاة في الخامسة عشرة من العمر ذات مظهر قوطي، هي آخر النازلين من العربة. بوجه لا تزال آثار النوم بادية عليه، دلفت إلى قاعة المغادرة وراحت، بعيون مسبلة، تتفحص الشاشات لمعرفة موعد رحلتها. كانت قد أمضت ليلتها الفائتة نائمة على أحد المقاعد ولقد خلف ذلك لديها آلاماً موجعة. كانت بطنها تبقبق، ومفاصلها تطقطق، وعظامها من الهشاشة بحيث توشك أن تتقصف. نظرت برغبة إلى الكونتوار حيث يقدمون قهوة الستاربكس والحلويات، لكنها لم تعد تمتلك في جيبها أدنى دولار. خلسة، تحت وطأة الجوع، التقطت من سلة قمامة الكوفي شوب فضلة جاتو وكأساً بداخله راسب عصير البرتقال.

بعد ساعات ستكون في نيويورك. بعد العائق المؤسف وغير المتوقع الذي أجبرها على الذهاب إلى لوس أنجلوس، كان بإمكانها من الآن فصاعداً الوصول إلى الرجل الذي تطارده. كان عنوانه لديها: عمارة في شمال مانهاتن. وإذ تعثر عليه تقتله.

تقتله.

تقتله.

وبعد ذلك ربما صار الألم أقل قسوة.

*

ألیسون

سيارة رباعية الدفع، ذات قاعدة متينة وبمنحنيات حادة، توقفت بصعوبة في المستوى الثالث من الموقف تحت الأرضي التابع لصالة المغادرة 2.

من داخل مقصورة البورش كايين يرتفع إلى أقصى درجة مزيج مسكر من الراب والريتم بلوز (R&B). في الداخل، تجلس أليسون

هاريسون، شابة في السادسة والعشرين، بشعر من البلاتين المقصوص قصة قصيرة وجينز ضيق من ماركة نوتيفي وحزام على شكل حبل صيد الحيوانات ومعطف من الجلد المقوس.

أطفأت أليسون المحرك، وانهارت على المقود. كان جسدها يرتعد بالكامل. وكان عليها أن تعثر على هدوئها إذا ما أرادت أن يسمح لها بالمغادرة. ولأجل ذلك، لم يكن أمامها ستة وثلاثون حلاً. راحت تفتش داخل حقيبتها من ماركة هارميس وأخرجت منها علبة صغيرة من العاج. محمومة، سحبت نشقتين من الكوكايين ثم فركت لثتها بقليل من البودرة البيضاء. وكان هذا التصرف هو الحل الوحيد للحيلولة دون الانهيار. فبدون الكوكايين كانت تحس نفسها قاصرة غير مؤهلة للمواجهة. وكانت قد فقدت من سنوات قدرتها على التحكم بتعاطيه، مع ذلك ما انفكت البودرة تجلب لها التأثير المطلوب.

في أقل من دقيقة، استردت أليسون بالفعل ما بدا أنه ثقتها، ومجدداً أحست بنفسها قوية وجديرة بتوجيه كل شيء الاتجاه الذي تشاء. عما قريب، ستتحول هذه الهناءة إلى غطرسة وفرط حساسية. وبانتظار ذلك، كان عليها أن تجد بالضبط القوة الكافية لتضع مؤخرتها في هذه الطائرة وتعود إلى نيويورك.

انتزعت عدسات قصر النظر الخاصة بها واستبدلتها بعدسات ملونة. حدقة وردية وأخرى زرقاء. نظرت في المرآة الخلفية وأعادت ضبط شعر مقدم الرأس بأن ثبتته بمشبك على شكل فراشة. وقد تزينت على هذا النحو، خرجت متمايلة من السيارة رباعية الدفع ومستريحة فوق كعبيها العاليين بينما تدفع أمامها حقيبة الرحلة ذات العجلات.

عندما اندلع فلاش المصور السري، نظرت أليسون إلى انعكاسها

يجمد في الواجهة الأمامية لسيارة صالون متوقفة. عكس الزجاج لها صورة كريهة لكن دقيقة.

صورة ضرطة كوكايين بقيمة مليار دولار.

*

ها هم الثلاثة هنا، في المسرح الصغير الذي تمثله صالة المطار، بحيث لا يفصل واحدهم عن الآخر سوى أمتار:

مارك

وإيفي

وأليسون.

لم يكونوا يعرفون بعضهم بعضاً، ولا تحدث أحدهم إلى الآخرين من قبل، لكن كان لديهم الآن شيء مشترك.

فثلاثتهم كانوا في دوامة وجودهم.

ساخطين.

على وشك الانفجار.

والثلاثة لديهم ماض مؤلم.

فجميعهم رأوا حياتهم يخلخلها الغياب أو الموت.

جميعهم يحسون بأنهم ضحايا ومذنبين في الوقت نفسه.

لكنهم خلال دقائق سيعتلون الطائرة ذاتها.

ومن ثم ستتغير حياتهم.

*

- حسناً، سأعبر أولاً وأنت ستلحقينني، موافقة ليلى؟

خلع مارك معطفه وحزامه ووضعهما فوق البساط الدوار قبل أن يجتاز البوابة الأمنية.

لم يصدر أي رنين.

- اعبري، جاء دورك. خاطب ابنته فيما يستعيد أغراضه.

بهدوء، لحقت الطفلة بأبيها لكنها أثارت في عبورها جرس إنذار نظام الحماية.

- افرغي جيوبك وانتزعي خفيك!

ستجرين على نفسك المتاعب أن تكوني مهذبة؟! فكر مارك في ما يصوب نحو الحارس نظرته.

لابد من القول إن ابتهاجاً إلكترونياً كان يهيمن داخل المطار ذلك الصباح. توتر مدعم بالحضور المكثف للعسكر المدعوين للمشاركة في التفتيش والرقابة الأمنية.

قرفص الطبيب أمام ابنته لمساعدتها في خلع حذائها. فتش جيوبها لكنها كانت خاوية.

- ستسير الأمور كما يجب، حبيبتي.

بجوربين، لمرة ثانية، عبرت ليلى البوابة الأمنية مثيرة جرس الإنذار مجدداً. غريب: لم تكن ترتدي سوى بنطال جينز وتي-شيرت وسترة.

غضن مارك حاجبيه.

- إن جهازكم تالف!

من دون أن يكلف نفسه عناء الإجابة، اقترب الموظف الأمني من الطفلة الصغيرة.

- استديري يا آنسة وارفعي ذراعيك.

نفذت ليلى ما طلب منها فيما راح الآخر يمرر جهاز الكشف على امتداد جسدها.

وبينما يقترب من مؤخر عنق الطفلة، اضطرب الجهاز بغتة.

- ماذا يعني هذا؟ غضب مارك.

بدا الحارس عاجزاً عن الإجابة. اكتفى بإعادة عمله وحصل على النتائج ذاتها قبل أن يستدعي زميله ليقوم بتغيير جهاز المسح. لكن الجهاز الجديد لم يوضح الوضع: أثارت كل النتائج شكوكاً حول وجود كيان معدني مزروع تحت بشرة ليلى!

وقد تملكته الدهشة، غطى الحارس سماعة أذنه بإصبعه ورفع عينيه نحو كاميرا المراقبة وتوجه نحو مخاطب غير مرئي:

- سيدتي، لدينا مشكلة...

*

كان مارك وابنته يجلسان الآن داخل حجرة مكتب عارية من الأثاث لها مظهر صالة استجواب. وأمامهما، بزي شرطي وبوجه صارم مثل كوندليزا رايس، كانت امرأة لاتينية تتفحص جوازي سفرهما.

- وضح لي أمراً، سيد هاثواي: هل تعرضت ابنتك مؤخراً لتدخل جراحي؟

- أنا... أنا لا أعرف، اعترف مارك.

- هل تم حقنها بشيء في مؤخر العنق: شريحة أو شيء مزروع مهما يكن؟

- لا أعرف.

ألقت المسؤولة الأمنية ناحيته نظرة ازدراء.

- كيف يصح هذا، لا تعرف! إنها ابنتك، نعم أو لا؟

- إنها قصة طويلة، قال بنبرة مرهقة.

حينئذٍ استدارت كوندليزا باتجاه الطفلة.

- عجباً، هل فقدت لسانك؟

متعباً، نهض مارك عن مقعده.

- سنغادر! قرر فيما يمسك ابنته من يدها، لقد تخلفنا عن موعد الطائرة، سنستأجر سيارة.

- لن تبارحا هذا المكان، أكدت المتحدثة فيما تشير إلى الجندي الذي يقوم بالحراسة أمام المكتب.

- سنرى ما ستفعلونه! انفجر مارك. وقبل كل شيء، أعيدوا إلي جواز سفري! لم أقم بشيء أؤنب عليه.

اتخذت المناقشة مساراً شجارياً عندما رن الهاتف.

- نعم؟ قالت كوندليزا فيما تضغط على سماعة الصوت الخارجية.

- مكالمة من مكتب التحريات الفيدرالي، سيدتي، أخبرها سكرتيرها، العميل فرانك مارشال.

- اخبرهم أن يتصلوا بي في ما بعد.

- يقول المتصل إن الأمر ضروري.

- حسناً، حوله لي، قررت فيما توقف مكبر الصوت.

كان مارك قد جلس على كرسيه مندهشاً لهذا التدخل من قبل فرانك ومتسائلاً إلى ما سيفضي هذا التدخل.

كانت محادثة مقتضبة، تخللتها «نعم» لمرتين و«موافقة سيدي» أفلتتا من كوندليزا قبل أن تنهي المكالمة.

بملامح متكدرة، رفعت عينيها باتجاه مارك وأظهرت ما يشي بالندم:

- كل شيء يسير وفق النظام، دكتور هاثواي، قالت فيما تمد له جواز سفره. تكرم بقبول اعتذارنا على الإزعاج. أتمنى لك رحلة سعيدة ولابنتك أيضاً.

*

متكدراً من هذه الرقابة المزدرية، قرر مارك أن من حقهما أن يتناولا وجبة صغيرة شهية. وبينما يقف أمام كونتوار مقهى **بون كافيه**، فرع من مقهى كوفيه شوب الذي أسسه رجل فرنسي، طلب طبقين تفوح منهما نكهة التوابل وعاد للجلوس مع ليلى إلى طاولة صغيرة تنتصب إلى جوار شتلة خضراء. لقد تأكد له بشيء من الغبطة أن ابنته كانت تمتلك شهية مفتوحة وأنها تمضغ بملء أسنانها قطعة الكرواسون الخاص بها «المصنوعة على الطراز الفرنسي» مرتشفة في الوقت ذاته كأساً من عصير البرتقال. من جانبه اكتفى بكوب من القهوة الذي تجرعه فيما يجوب بنظرة شاردة نسخة من صحيفة **يو. إس. إي. توداي** التي تقدم لكل زبائن المقهى.

*

كانت صالة المغادرة تسبح في ضوء أبيض ناعم. وبينما يغادر مارك وليلى مقعديهما مرت خلفهما شابة، ومن دون أن تلفت الأنظار إليها جلست إلى طاولتهما لكي تحصل لنفسها على ما تبقى من عصير البرتقال واليورت الذي لم يتبق منه إلا الشيء القليل.

اغتنمت جلوسها أيضاً لكي تطالع عناوين الصحيفة. مقال مصحوب بصورة كبيرة يحتل نصف الصفحة الأولى.

انتحار الملياردير

ريتشارد هاريسون

توفي أمس في نيويورك مؤسس مجموعة غرين كروس، أحد كبار المسوقين العالميين، وذلك عن عمر يناهز الثانية والسبعين. وقد تم العثور على الملياردير على متن سفينته، سابحاً في بحيرة من الدم بعد أن أطلق على نفسه رصاصة من بندقية صيد في منطقة الجمجمة.

حسب معلوماتنا، فمن المحتمل أن يكون ريتشارد هاريسون قد ترك رسالة لأقاربه يشرح لهم فيها دوافع ما قام به. وترجح التخمينات أن

رجل الأعمال الذي كان قد كشف قبل عامين عن إصابته بمرض الزهايمر لم يعد يتحمل تدهور أحواله بسبب المرض.

وسيجري تشييع جثمانه بعد ظهر غد في مانهاتن.

كان ذلك في العام 1966، في مدينة صغيرة من أعمال نيبراسكا، عندما وضع ريتشارد هاريسون اللبنة الأولى لإمبراطوريته مفتتحاً بقالة صغيرة متخصصة بالبيع بالتخفيض. كان النجاح من نصيبه على الفور، وعلى وجه السرعة، استطاع أن يفتتح نقاطاً أخرى للبيع، أولاً داخل المقاطعة ثم داخل البلد بالكامل.

ومن يومها، لم تكف أعداد غرين كروس عن التكاثر في الولايات المتحدة حتى صار بالإمكان أن نحصي منها اليوم ستمائة سوبر ماركت كبير.

متسماً بالتحفظ وبالاعتدال في نمط حياته، عاش ريتشارد هاريسون في المنزل نفسه منذ ثلاثين عاماً. كما لم يبدُ أن النقود غيرت المجرى اليومي لرئيس الشركة الذي كان يغتبط لتلميع صورته باعتباره «سيد كل الناس» من دون أن يظهر أبداً علامة مميزة على الثراء.

تعقل وتقشف يتعارضان مع ابنته الوحيدة أليسون التي دأبت الصحافة الشعبية على تغطية مغامراتها بانتظام.

توقفت إيفي عن مطالعة الجريدة، وراحت تتلهى بمتابعة الضوضاء الطالعة من مكان قريب من الأبواب الأتوماتيكية.

منبهرة بفلاشات الكاميرات ويتعقبها أسطولاً من المصورين، أتت أليسون هاريسون إلى صالة المغادرة كما يليق بها أن تأتي. بقامة ضامرة مثل غصن وبوجه نصف متخفٍ تحت نظارات تنكرية كبيرة، كانت تجد مشقة في صد الرهط الذي يحيط بها ويحاصرها بالأسئلة.

فلاش-فلاش-فلاش، أليسون! من هنا، أليسون! هل أنت صامدة، أليسون؟ **فلاش** أي علاقات تربطك بأبيك؟ على ما يبدو

أنكما مازلتما متخاصمين. والمخدرات، توقفت عن تعاطيها؟ أليسون! **فلاش فلاش** ماذا يعني أن ترثي مليار دولار؟ أليسون! هل يوجد شخص في حياتك في هذه اللحظة؟ **فلاش - فلاش** هل سترجعين إلى المستشفى؟ والمخدرات، أليسون؟ لم تجيبي، هل حقاً توقفت عن تعاطيها؟ **فلاش**

كانت الأسئلة تنزل عليها مثل سيل من الصفعات. في البدء حين بدأت وسائل الإعلام في الاهتمام بها أحست أليسون بالإطراء. ولفترة من الوقت، اعتقدت أنها لا تزال تملك زمام الأمور وأنها قد استخدمت الصحافة لصالحها. ثم ذاعت سمعتها السيئة وانطبق الفخ. ومنذ ذاك، لم يعد يمر يوم واحد من دون أن يقوم أحد المصورين أو أحد رفاق سلاح التلفون بسرقة قطعة من خصوصيتها.

فلاش-فلاش

رفعت أليسون يداً أمام وجهها كي تحمي نفسها. انبثقت الذكريات من ماضيها بسرعة قرص البوميرنغ.

فلاش...

... باك.

9

أليسون
أول فلاش باك

قبل ثمان سنوات

وارثة إمبراطورية غرين كروس
تثير فضيحة في تايمز سكوير
(وكالة الأنباء-10 تشرين الأول/ أكتوبر 1999)

مساء أمس، بينما كانت خارجة من أحد المطاعم الراقية، حيث احتفلت بعيد ميلادها التاسع عشر، أثارت أليسون هاريسون حفيظة حشد من المارة في تايمز سكوير. إذ ارتجلت الفتاة الشابة، وكانت ثملة على نحو واضح، رقصة تعري صبيانية في وسط الشارع تحت النظرات الهازئة والكلمات القادحة لـ «جمهور» كبير. وكانت ابنة الملياردير قد دأبت، منذ أن أوقفت دروسها كي «تكرس نفسها بالكامل» للأمسيات الصاخبة ولمشاوير التبضع المتكررة، أن تسدد بانتظام دينها للأحداث عن طريق شذوذها وتصرفها الطفولي الفاسد.

*

نزوات أليسون
(وكالة الأنباء الفرنسية-23 كانون الأول/ ديسمبر 1999)

أثناء مرورها في باريس، أصابت المليارديرة موظفي فندق جورج-ف بصدمة.

فبعد أن استنفدت محلات الشانزليزيه، حجزت - إضافة إلى جناحها الفخم- غرفة أخرى لا لشيء إلا لكي تخزن فيها علبها «هنالك ثلاثين علبة أحذية على الأقل، لا مكان بينها إلا لأرقى الماركات» هكذا صرحت إحدى الوصيفات.

*

ستيف وأليسون: بعض الجدية

(على الخط-14 يناير 2000)

كانت قناة E للموسيقى قد أعلنت الخبر الأسبوع الماضي، لكن صار منذ ذاك فصاعداً رسمياً: ضارب الطبل في فرقة الروك 6thGear ووارثة إمبراطورية غرين كروس يعيشان فعلاً قصة غرامية منذ أسبوعين.

عرف ستيف جلين، إحدى وثلاثين عاماً، بتصرفاته الهازلة وميله الصريح إلى تعاطي الكحول. ستيف وأليسون: كوكتيل قابل للانفجار بحيث يوفر بعض العمل للمصورين السريين.

*

فضيحة في كورشوفيل

(وكالة الأنباء الفرنسية- شباط/ فبراير 2000)

لم تظهر وريثة إمبراطورية غرين كروس في محطة ألب، نهاية هذا الأسبوع، حيث كانت قد حجزت مع ذلك مضمارين من أجل استخدامها الخاص. «لم يرها أحد. لابد أنها ذعرت بسبب النشر الإعلامي حول هويتها الاجتماعية. هنا، لا يحب الناس مخالفة القوانين» هكذا صرح مصدر محلي تحت اسم مجهول.

*

المليارديرة المهووسة بالسرقة

(وكالة الأنباء- 3 أيار/ مايو 2000)

بلا تردد، تقترف أليسون هاريسون الخطايا! أوقفت بعد ظهر أمس

الشقراء الكبريتية لسرقتها ملابس تقدر بملايين الدولارات وذلك من أحد محلات بيفيرلي هيلس الراقية.. وقد أعلن أبوها في حينه أنه سيطلب المساعدة من جيفري ويكسلر، أحد المحامين البارزين كي يقوم بالدفاع عنها.

*

أليسون المسترخية!

(وكالة الأنباء- 8 حزيران/ يونيو 2000)

*

ستيف وأليسون: انتهى

(على الخط -18 كانون الأول/ ديسمبر 2000)

*

اتهام أليسون هاريسون بمخالفة مرورية!

(تلغراف- 3 كانون الثاني/ يناير 2001)

أن تكون ملياردديراً، فذلك لا يعطيك الحق في أن تكون فوق القانون.

حسب موقع الإنترنت QMZ.com، قامت أليسون هاريسون بالفرار بعد حادثة سير لم تخلف لحسن الحظ أي ضحية.

وكان مقدراً لهذه المخالفة أن تبقى غير مترابطة لو لم يقم أحد العابرين بتصوير الحادث على تلفونه النقال. وبعد أن اضطرت للإقرار بأفعالها، اتصلت أليسون بالمحامي جيفري ويكسلر كي يجد حلاً ودياً للمشكلة مع مالك المركبة.

*

أليسون هاريسون لديها عشيق جديد

(على الخط - 12 شباط/ فبراير 2001)

وجدت السيدة التي انفصلت عن عازف الروك ستيف غلين العزاء

بين أحضان أوستين تيلر، بطل المسلسل التلفزيوني باسيفيك باليساد الذي كانت قد قابلته أثناء تصوير أحد الإعلانات.

*

أليسون هاريسون تبدد ثرواتها من أجل روكسي
(وكالة الأنباء- 6 آذار/ مارس 2001)

تكثر الوريثة صرعاتها الخاصة بالملابس من أجل أن تكسو كلبها أيضاً: عقد مرصع بالماس و«طقم ملابس» مصمم عند أشهر الخياطين وجلسات عند معالج نفسي كلبي. ذلك ليس بكثير على روكسي، الكلب الصيني ذو العرف والذي تجرجره معها أينما ذهبت. «على خلاف الرجال، فأنا أعرف أن روكسي لن يهجرني أبداً» أكدت السيدة لكي تبرر نفقاتها.

*

أليسون في فيديو حار على الانترنت!
(على الخط - 20 تموز/ يوليو 2001)

بعد تعرض هاتفها الجوال للسرقة في حانة ليلية من حانات ميامي، تخشى الوريثة استثماراً حاقداً للمعلومات المحفوظة على شريحته. كما تخشى، فضلاً عن ذلك، استثمار دليل عناوين أعضاء جماعة رفاق السفر، الدليل الذي يحتوي أيضاً صوراً عديدة ومقاطع فيديو شخصية. في أحد هذه المقاطع، عبارة عن فيديو كليب قصير من دقيقتين عرض مؤخراً على الإنترنت، تظهر أليسون مع خليلها في معركة حامية بالسيقان المرفوعة في الهواء.

«إنني مصدومة لأن حياتي الخاصة تم عرضها على هذا النحو، صرحت أليسون. أود أن أعتذر لأصدقائي وعائلتي»..

وبعد انقضاء اللحظة الأولى من الارتباك، لم تستغرق السيدة وقتاً طويلاً لتعثر مجدداً على رباطة جأشها: «من الطبيعي أن أمارس الحب، أنا أرفض أن أشعر أني مذنبة لممارسة شيء كهذا» أكدت.

*

أليسون هاريسون تطلق
تشكيلتها الخاصة من الملابس الداخلية النسائية
(وكالة الأنباء- 6 آب/ أغسطس 2001)

إبداعاتها الخاصة ستكون متوفرة حصريا في محلات غرين كروس.

*

هل صارت أليسون هاريسون عازبة من جديد؟
(على الخط - 18 آب/ أغسطس 2001)

*

أليسون هاريسون نصيره للقَبْلانيّة[1]
(رويترز- 9 أيلول/ سبتمبر 2001)

مثل عدد من أشباهها في هوليود، أعلنت الشقراء الغريبة الأطوار نفسها نصيرة للقبلانية (kabbale)، آخر صرعة في عالم الدين لدى المشهورين: «إنني لا أنفصل أبداً عن سواري ذي الخيط الأحمر. إنه يساعدني في إبعاد النحس ويسمح لي البقاء على تواصل مع قواي الروحية».

*

عطر يحمل ماركة أليسون
(وكالة الأنباء- 29 أيلول/ سبتمبر 2001)

جاء دور الوريثة هاريسون كي تخرج عطراً يحمل اسمها. إذ شاركت الشابة في ماركة عطر ساحره (يملكها أبوها!) كي تنشر أريجها

---

(1) تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً حسب التقاليد، كما كان القدامى يفعلون- المنهل..

الذي عليه أن يكون إلزامياً لأعياد الميلاد.

*

أليسون هاريسون: هل استعادت تكيفها الآن؟

(على الخط- 28 تشرين الأول/ أكتوبر 2001)

*

أليسون هاريسون ترغب أن تكون ممثلة

(Imdb.com – 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 2001)

*

من رياضي إلى آخر

(على الخط- 5 كانون الأول/ ديسمبر 2001)

وقعت أليسون هاريسون في غرام الرياضة على نحو حاسم. فبعد لاعب كرة القدم ديف دولالونا، جاء دور البطل الأولمبي في السباحة جون ألدرين في الوقوع في شباك الشقراء الوريثة.

*

عطر أليسون يفجر قنبلة

(وكالة الأنباء- 8 كانون الثاني/ يناير 2002)

*

إيقاف أليسون هاريسون بتهمة القيادة في حالة سكر

(رويترز- 12 كانون الثاني/ يناير 2002)

أوقفت ليلة السبت-الأحد في لوس أنجلوس أليسون هاريسون، الممثلة الناشئة، وعضو جماعة الرحالة الجويين، وذلك لقيادتها السيارة وهي في حالة سكر، هذا ما أخبرنا به مصدر أمني.

وتم إيقافها على الساعة الثانية والربع عندما لاحظ رجال الشرطة سيارة الشابة تتعرج على نحو خطير على الرصيف.

لم يستغرق رجال الشرطة وقتاً طويلاً ليعثروا فوق مقعد السيارة على قنينة التيكيلا التي شربت منها.

وقد أثبت الفحص الكحولي أن الآنسة هاريسون، 22 عاماً، تمثل نسبة عالية تتجاوز الحد المسموح به. وقد أحيل الأمر حالياً إلى مجال النيابة.. عندها يجب عليها أن تستجوب عن المخالفة أمام العدالة.

*

حكم إدانة ضد أليسون!

(رويترز- 24 شباط/ فبراير 2002)

صدر اليوم ضد أليسون هاريسون حكماً بغرامة مالية قدرها ألف دولار وبتعليق رخصة قيادتها لمدة ستة أشهر، وذلك عقب أن ثبت عليها على نحو قاطع قيادتها السيارة وهي في حالة سكر في الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير الماضي.

الوريثة ستجبر أيضاً على حضور برنامج توعوي حول مخاطر الكحول أثناء القيادة.

10

في الطائرة

في مواجهة تجربة ما، ليس أمام الإنسان
سوى ثلاثة خيارات:
1- أن يقاوم
2- أن لا يفعل شيئاً
3- أن يهرب.

هنري لابوريت

اليوم
25 آذار/ مارس 2007- العاشرة صباحاً
مطار لوس أنجلوس لاكس

«السيدات والسادة، يسعد الكابتن مكارثي وطاقمه أن يستقبلوكم على الإيرباص A380 المتجهة إلى لندن عن طريق نيويورك. بانتظار الإقلاع نرجو منكم الجلوس على مقاعدكم. تتمنى لكم الخطوط الجوية السنغافورية طيراناً ممتعاً».

في لحظة الركوب لم يكن أمام مارك سوى أن يشعر بالدهشة لضخامة طائرة الإيرباص التي تمتد بطول طائرتين بالكامل بحيث

يسعها أن تستقبل أكثر من خمسمائة مسافر. ولتفادي الاختناقات، يجري الدخول إلى المقصورات عبر جسرين يقود كل منهما إلى مستوى مختلف. ممسكاً ليلى بين ذراعيه بحرص، لزم مارك عشر دقائق حتى يعثر على مقعديهما نظراً إلى ضخامة حجم الطائرة. وبعد عدة تأخيرات في مواعيد التسليم، كانت الخطوط الجوية السنغافورية هي الأولى في الحصول على الطيارات الأوروبية ذات الكفاءة العالية ولم تدخر الوسائل في تجهيز الطيارة بالأثاث الفاخر. بنوافذها الوسيعة والمسافات بين مقاعدها، بدت حتى الدرجة السياحية مشرقة ومريحة.

كان مارك وابنته يجلسان على مقعدين متجاورين، في مؤخرة مقصورة الدرجة السفلى. عند وصولهما إلى الصف حيث مقعديهما، كانت هنالك فتاة في الخامسة عشرة بشعر متسخ ومنسول، تنام على المقعد المجاور للنافذة بينما تستريح على ركبتيها حقيبة ظهر مرهقة من طول العِشرة:

إيفي هاربر

جلست ليلى على مقعدها بين أبيها وإيفي. وكانت ترتدي الـ تي-شيرت الوردي بألوان آليس في بلاد العجائب الذي اشتراه لها مارك للتو من السوق الحرة. اتبع الأرنب الأبيض... هكذا ينصح الشعار المكتوب تحت صورة الأرنب الهاذي المطوق داخل السترة الطويلة التي تحمل في طرف الذراع جيب ساعة واسع.

- أنت على ما يرام؟ سأل مارك من دون أن ينتظر إجابة حقاً.

بحلقت الطفلة الصغيرة فيه بعذوبة. أحس بقلبه ينسحق، لكنه نجح في السيطرة على انفعاله. نقب داخل كيس يتراءى عليه شعار مكتبة وأخرج منه دفتر رسم وعلبة من أقلام التلوين إضافة إلى كتابين: ألبوم للأطفال، والجزء الأول من هاري بوتر.

- اشتريت كتابين لأنني. . . لا أعرف حتى إن كنت تجيدين القراءة، اعترف مارك وهو يبسط مشترياته على رف المقعد أمامه. قبل خمس سنوات، كنت أنا من يقرأ لك قصصك قبل أن تذهبي إلى النوم، تذكرين؟

شرب جرعة من قنينة المياه المعدنية الموضوعة أمامه واستأنف مونولوغه بلهجة من يبوح بسر.

- تعرفين يا حبيبتي، أنه ليس لدي أدنى فكرة عما حصل لك. إنني أجهل من اهتم بك طوال كل هذا الوقت. أتخيل أنك تعذبت وتعرضت للرعب. رعب فظيع. أعرف أيضاً أنك لابد قد شعرت بنفسك وحيدة، ضائعة وأنك بالتأكيد قد فكرت بأننا قد تركناك لمصيرك، ماما وأنا. لكن ذلك ليس صحيحاً. ولا لثانية واحدة، توقفنا عن التفكير بك ولقد بذلنا كل شيء لكي نعثر عليك مجدداً.

بانتباه وبفم مفتوح نظرت الطفلة الصغيرة إلى أبيها.

- لا أعرف إن كنت تتذكرين مهنتي يا ملاكي. . . عندما كنت تسألينني عما كنت أفعل كنت أجيبك بأنني دكتور، لكن دكتور من نوع خاص بعض الشيء، أي من النوع الذي يعالج جروح الروح. يصعب شرح ذلك: الناس يجيئون لرؤيتي عندما يتعذبون من الداخل. يتعذبون بما أنهم يقاسون تجارب تترك فيهم جروحاً في القلب. إنها آلام يصعب الاعتناء بها. . .

بدا على الدكتور أنه يتنخَّل كلماته قبل أن يتابع:

- غالباً ما يحس هؤلاء الأشخاص بأنفسهم خاطئين بعض الشيء حتى لو لم يكونوا قد اقترفوا ذنباً. مهنتي هي أن أقنعهم أن بوسعهم أن يولدوا مجدداً من ألمهم. ليس ثمة جرح لا يمكن التخلص منه. إنني عميق الاقتناع بذلك: بوسع الناس أن يحولوا ندوبهم إلى قوة.

وليس ذلك بالأمر السحري. يستغرق ذلك بعض الوقت. وغالباً، لا يشفون بالكامل. لا يختفي الألم بالكامل حقاً. إنه يبقى جاثماً في أعماقنا. إلا أنه يجعلنا نعود إلى الحياة ونواصل طريقنا. أعرف أن ذلك ليس يسيراً على الفهم، لكنك فتاة ذكية.

توقف مارك للحظة قبل أن ينتهي:

- إذا كنت أحكي لك ذلك، فلكي أقول بأنني سأقوم بكل شيء من أجل حمايتك ولكي أكون بقربك، لكن عليك أن تدعيني أساعدك يا محبوبتي. عندما تكونين على أهبة الاستعداد سيكون عليك أن تتحدثي إلي وتحكي لي ما عايشته. بوسعي سماع كل ما لديك، كما تعرفين. ليس لأنني طبيب لكن لأنني أبوك. أتفهمين؟

عوضاً عن الإجابة، رسمت ليلى ابتسامة عريضة.

تفحصت الكتابين باهتمام قبل أن تحسم أمرها لمصلحة هاري بوتر. حدق مارك فيها بانتباه لبضعة دقائق: كانت تقرأ حقاً.

هي تعرف كيف تقرأ، فكر. شخص ما علمها القراءة...

لكن من؟

بينما تقلب ليلى على نحو واع صفحات روايتها، بذل مارك كل ما في وسعه لكي يخفي كربه. في رأسه مع ذلك آلاف الأسئلة التي تتصادم من دون إجابة. من اختطف ابنته؟ ولماذا أخلى سبيلها بعد خمس سنوات؟ لماذا هي باقية في الخرس المروع؟ كيف لي أن أفسر حادثة البوابة الأمنية؟ هل وضعوا حقاً كياناً غريباً تحت بشرتها؟ لا شك في ذلك، لكن من أي نوع؟ جهاز مجهري، ربما... لتعيين مكان وجودها؟ لتعقب أثرها؟ ونيكول... لماذا اختفت بدورها كما لو كان لديها سبب ما لتشعر بالعار؟ من دون ذكر لذلك الصحفي الذي علم بظهورها في حين أن مكتب التحريات الفيدرالي لم يجعل

ظهورها علنياً: لماذا حذره: «أنت لا تعرف الحقيقة! لا حول زوجتك ولا حول ابنتك!»

أنت لا تعرف الحقيقة...!

*

في اللحظة ذاتها، في مقدمة مقصورة الدرجة الأولى، استولى هياج مفاجئ على المضيفات والمضيفين، فراحوا جميعاً يصوبون نظراتهم على أليسون هاريسون التي ظهرت في بهو الصفوف الأولى، مكان يضم حوالي الستين من المقاعد الوثيرة التي صممت على أساس إرسال الطلبات إلكترونياً.

قادت مضيفة ممشوقة ولطيفة أليسون إلى مقعدها.

- مرحباً بك على الخطوط الجوية السنغافورية يا آنسة. طاقمنا بالكامل يضع نفسه في خدمتك ويتمنى لك رحلة ممتعة.

بنظارات شمسية مثبتة بلولب على الأنف، تداعت أليسون على مقعدها. من الآن فصاعداً كانت الأمكنة العامة مدعاة لعدم شعورها بالراحة والأمان. فهنالك دائماً عشرات العيون المثبتة عليها ومصور هاوٍ جاهز كي يستل هاتفه المحمول على أمل أن يبيع الصور التي التقطها إلى موقع «نمام»، قد يعمل منها موضوعاً للتسلية.

المشكلة أنها لم تعد تشعر بالأمان في أي مكان. فمنذ بضع سنوات صار وجودها استمرارية لا نهاية لها من الضلالات والتجاوزات التي تهدمها كل يوم أكثر من سابقه، من دون أن يغير المليون دولار الذي ورثته من الأمر شيئاً.

في الحياة، الأشياء التي تمتلك أعلى قيمة هي الأشياء التي لا قيمة لها.

استغرقت أليسون وقتاً طويلاً لتفهم ذلك.

وقت أكثر من اللازم.

*

وصلت طائرة الخطوط الطويلة الضخمة إلى بداية مضمار الإقلاع وسجلت توقفاً قبل أن تشرع في الاندفاع.

- سيتم الإقلاع بعد دقيقة، أعلن الكابتن.

بأطنانها الخمسمائة والستين، ومقصوراتها ذات الطابقين، بدت الطائرة أشبه بناقلة ضخمة قادرة على الطيران منها بطائرة نقل جوي بسيطة.

كيف يتسنى لشيء كهذا أن يرتفع في الأجواء؟ سألت إيفي نفسها وهي تنظر من خلال النافذة. فقد كانت المرة الأولى التي تسافر فيها على متن الطائرة ولقد كرهت ذلك.

*

ضغط الكابتن على دواسة الوقود، فاندفعت الطائرة ذات المحركات الأربعة على طول المضمار.

بدأت إيفي في قضم أظافرها.

حسناً، إذاً، ها أنت تقلعين، خاطبت نفسها باطنياً. ثم حملقت في ما حولها بتوجس. لكن أحداً لم يبدُ عليه التوجس حين أخذت الطائرة بالإقلاع.

سيكون من الحمق فعلاً لو أنها ماتت الآن، بالضبط قبل أن تأخذ بثأرها.

*

كانت الطائرة لا تزال تدور وتدور وتدور...

من الطابق العلوي، كان المشهد أخاذاً. فعلى ارتفاع أكثر من

اثني عشر متراً، كان المسافرون يشرفون على أسطح الأجنحة الفسيحة فيبدون كما لو أنهم يزدرون المضمار.

هنالك مشكلة، أبدت أليسون ملاحظتها، يجب على هذه الآلة العاهرة أن تكون سلفاً في السماء.

مع ذلك ما كان لاحتمال وقوع حادث أن يرعبها. فلربما يكون الموت هو الحل: نهاية المعاناة والشعور بالعار وتبكيت الضمير. النهاية لكل شيء...

في ما مضى، كانت سعت لعدة مرات إلى وضع حد لكل ذلك، لكن كان هنالك على الدوام شيء ما يعارض مشروعها: جرعات غير كافية من العلاج، شرايين قطعت على نحو خاطئ، نداءات استغاثة تبلغ المحيطين بها قبل فوات الأوان...

إلى اليوم، لم تكن قد بلغت أجالها.

إلى اليوم.

*

كان مارك يشعر بالضيق من اهتزاز دواليب الطائرة العشرين على الأرض لحظة الإقلاع، هل كان يتوهم أم أن هذه الطائرة تأخذ وقتاً طويلاً كي تقلع؟

في جيب المقعد أمامه، كان البروشور الخاص بالطائرة يذكر بفخر مع ذلك بقوة الطائرات النفاثة التي تعادل قوة ستة آلاف سيارة. إذا كنت عالية القوة فماذا تنتظرين حتى تقلعي؟ تقاطعت نظرة مارك القلقة مع نظرة الفتاة الجالسة بجوار النافذة. هي الأخرى لم يكن يبدو عليها الاطمئنان. وحدها ليلى، وقد جلست بين الاثنين غارقة في المطالعة، بقيت بمنأى عما يحدق بها.

*

عندما بلغت عملاقة الجو نهاية المضمار، ترددت للحظة قبل أن تقتلع عن الأرض أطنانها الخمسمائة والستين، مثيرة «**أوف!**» [الخاصة بتنفس الصعداء من قبل المسافرين].

*

في صمت ديري، بلغت الطائرة في أقل من عشر دقائق أول ارتفاع لها وقدره خمسة آلاف قدم. مستثاراً ومحموماً أخذ مارك يتلوى على مقعده. كانت يداه ترتعشان، وقطرات من العرق تتلألأ على جبينه منحدرةً على امتداد ظهره. وكان يسد رأسه صداع نصفي رهيب كما لو اعتصر دماغه للتو. كان يعرف سبب هذا التوعك: الفطام الكحولي. فلم يكن قد تناول قطرة كحول منذ ست وثلاثين ساعة، وكان ذلك قد بدأ يشكل عبئاً عليه. مساء أمس ثم في الصباح، تملكته رغبة لا تقاوم في أن يجهز على المشروبات المحفوظة في ثلاجة غرفة الفندق. مترعاً بفرح كونه مع ابنته مجدداً، عرف كيف يسيطر على نفسه. غير أن الشارع كان قد جعل منه مدمن كحول. كان على يقين أن بوسعه أن يخرج من هذا الجحيم بمفرده، وإن استغرق ذلك بعض الوقت. في مساره المهني، كان قد تتبع حالات إدمان كحولية في فترات الفطام. وعليه فقد كان يعرف ما ستؤول إليه حالته إذا لم يتناول بعض الكحول: تشوش، هذيان، أزمة تشنج، وهلوسات بصرية وسمعية.

إلى جواره، رفعت ليلى عينيها عن الكتاب ونظرت إليه بنوع من الاحتراس. لكي يبدو أنه على ما يرام، حاول مارك غمزة من عينيه متبوعةً بابتسامة مطمئنة، لكن شيئاً ما كان يقول له إن ابنته لم تكن غافلة عن حالته الصحية:

- هل أنت بخير، سيدي؟

كانت الشابة الجالسة إلى جوار النافذة هي من طرحت السؤال. رمقها مارك بانتباه: نصف امرأة، نصف طفلة، بشعر متسخ زال لونه وبهيئة قوطية مرغوبة لكن ساخطة ونظرة مرهقة تفصح عن تجربة حياة شاقة على الرغم من عمرها الشاب.

- بخير، قال ليطمئنها. ما اسمك؟

ترددت في الرد. كانت هنالك دائماً هذه الريبة المشدودة إلى الجسد. لكن شيئاً ما في مارك أوحى لها بالثقة. دفء في النظرة ذكرها بالطبيب الذي التقته قبل ثلاثة أشهر، في عشية أعياد الميلاد، والذي لم تكن قد نسيته. لقد حاولت ألا تظهر ثقتها خلال القليل من الوقت الذي أمضياه معاً، لكنها أحست على نحو غريب أنها قريبة منه. غالباً، في أوقات الشك والوحدة تتفاجأ بنفسها تفكر فيه. حينئذٍ يصير الخوف أقل وحشيةً ويجتاز روحها الأمل الغامض بحياة أكثر عذوبة.

- اسمي إيفي، أجابت.

- أنا مارك هاثواي وهذه ليلى ابنتي.

- مرحباً ليلى، قالت وهي تنحني ناحية الفتاة الصغيرة.

- هي لا. . . هي لا تتكلم، أوضح الطبيب.

نظرت إيفي إلى يدي مارك.

- هل هي الحاجة إلى الكحول.

- ماذا؟

- أنت تحاول أن تتوقف عن الشراب؟ لذا فأنت ترتعش. . .

- لا! كذب الطبيب. ثم وقد شعر بالخجل: لماذا تقولين ذلك؟

- بسبب أمي: كانت حالتها مثل حالتك.

- اسمعي، الأمر أصعب مما تتصورين، بدأ مارك.

توقف قبل أن يسأل:

- أمك، ما الذي آلت إليه أمورها؟

- ماتت.

- آه... أنا آسف.

انطفأ إشعار **اربطوا أحزمة المقاعد** بحيث صار مسموحاً للركاب النهوض.

اقترحت إيفي:

- إذا أردت أن تذهب لتبلل وجهك، بوسعي الاهتمام بابنتك.

- شكراً، سيزول التعب، أجاب مارك وقد انتابه الارتياب بدوره.

- أتصور أنك إذا لم تتناول شيئاً من الشراب حالاً فإن حالتك ستسوء أكثر.

قيم مارك الأمر على نحو عقلاني. رأى من الصواب أن حالته ستسوء على نحو تدريجي. فخلال بضعة ساعات كان هجر بغتة حياته بوصفه متشرداً، بيد أنه سعى باجتهاد كي يجد نقاط ارتكازه القديمة. وقلل على نحو خاص من مخاطر نتائج توقفه الصارم عن الشراب قبل صعوده إلى هذه الطائرة.

نظر إلى ليلى. هل يمكنه أن يتركها لبضع دقائق وحيدة مع هذه الفتاة التي لم يكن يعرفها؟ من جهة أخرى، إذا ما أراد أن يستعيد طاقته ليكون جديراً بمساعدتها فقد كان بحاجة إلى كأس أو كأسين.

- اسمعي، حبيبتي، بابا سيعود بعد خمس دقائق. إلى ذلك الحين ستنتظرينني هنا بهدوء مع هذه الفتاة، موافقة؟

التفت نحو إيفي.

- يوجد بار في منتصف المقصورة العلوية. إذا وجدت أدنى

مشكلة مع ليلى ستجيئين للبحث عني في الحال، مفهوم؟

هزت إيفي رأسها موافقة.

نهض مارك واتجه إلى الحمامات أولاً. بِحَلق جاف ووجه ملتهب، كان في الآن ذاته جاف ومبلل بالعرق.

دلف إلى الكابينة الصغيرة المصنوعة من كروم وسيراميك ومرآة. حتى داخل هذا المكان الخصوصي، كانت هنالك نافذة تَهِب فسحة على السماء! كانت المراحيض فارهة ولامعة. باستثناء تصوير غرافيكي مفصل: تصوير عن طريق الرش يحتل جزءاً لا بأس به من الجدار، تعرف مارك فيه إلى «قرود الحكمة الثلاثة» الذي امتلك فرصة رؤيتهم داخل المعابد البوذية أثناء وجوده في اليابان للمشاركة في أحد المؤتمرات. وكان ثلاثتهم يتراءون وقد غطى كل منهم بيديه عضواً من أعضاء الحس الثلاثة: الأول، كبيرهم، غطى عينيه والثاني أذنيه والثالث فمه. وثمة عبارة تلخص الصورة: **لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً، لا أقول شيئاً**. وحسب المعتقد، فإن من يتبع هذا التعليم لن يحصل إلا على كل خير.

متأملاً بتوقير هذا المأثور الغريب، انتزع مارك ساعته ورفع يديه مبللاً وجهه بالماء العذب ومحاذراً رؤية نفسه في المرآة أعلى الحوض.

مرر يديه تحت المجفف الأتوماتيكي وغادر حجرة الحمام. وما أن صار في الخارج حتى غير رأيه: نسي ساعته على الرف. فعاد إلى الحمام واستعادها.

كان يتأهب للمغادرة حين توقف فجأة.

غير ممكن...

كانت صورة القرود الثلاثة قد اختفت من على الجدار وحل

محلها نسيج طويل يصور شيئاً يبعث على الذعر والمرض. وكان النسيج يضم عدة رموز سبق له أن التقاها أثناء دراساته لعلم النفس.
أولاً **ساعة رملية ومنجل ومستودع حفظ عظام الموتى**: بتعبير آخر، الزمن الذي يمر والذي نبدده والموت المباغت الذي يتعذر اجتنابه والغبار الذي نؤول إليه. ومن ثم الممر الطويل والمحفوف بالمخاطر: **برزخ الحساب** الذي يرمز إلى صعوبة المرور إلى الماوراء. وفي الأخير السلم، **سلم الخلاص** الذي هو رمز عالمي لصعود الروح إلى حيث ينتظر **الرجل ذو رأس الذئب**: **أنوبيس**، دليل الموتى الذي من المفترض أن يرافق الإنسان بعد موته كي يقوده إلى أنهار الماوراء.

تعلو الرسم عبارة وضعت مثل تميمة:

لا شيء يخيف،

كل شيء يمكن فهمه

بقي مارك مشلولاً. لم يكن يحلم مع ذلك!

تحت تأثير التنويم المغناطيسي الذي مارسه عليه النسيج المزخرف لم يتسن له مغادرة الحمام. فما يراه كان يسبب له ألماً مع أنه لم يتضح له المعنى بالضبط.

لقد وجب عليه أن يقسر نفسه على الخروج، لكن بمجرد أن أغلق الباب لم يستطع أن يعيق نفسه عن فتحه مجدداً ليكتشف أيضاً تصويراً غرافيكياً جديداً عوضاً عن السابق! هذه المرة كان عصفوراً متألقاً ينشر جناحيه الفسيحين على امتداد الجدار: الفينيق. الطائر الأسطوري الذي يولد من رماده مراراً وتكراراً.

يعلو رمز البعث هذا، العبارة:

ممكن أن يتحطم الإنسان

لكن ليس له أن يهزم

هذه المرة، شعر مارك بالقلق فعلاً.

حدث ما كنت أتوقعه، أنني أهذي!

كانت الهلوسات التي هجس أن التوقف عن الكحول يتسبب فيها تتجسد مادياً على نحو يثير الضيق. وكان كل جسده يحرقه. ولم يتسن له الحيلولة دون ارتعاش أصابعه ولا أن يعيق نبض قلبه عن الانفجار.

كان بحاجة لهيدرات ولتناول بعض المهدئات والفيتامينات. لكن لم يكن تحت يديه شيء منها. كل ما تبقى لديه هو إرادته. أغمض عينيه ودفع بآخر قواه في أتون المعركة الداخلية التي من شأنها أن تعيد الطمأنينة إليه.

كل ما تراه زائف. كل شيء يحدث داخل رأسك. لا وجود لأي توقيعات. كل صور الموت والانبعاث هذه هي كربك ومخاوفك: عواقب عامين من الحياة في الشارع. ليس عليك أن تقلق. ليلى بجوارك وعما قريب ستلتقي نيكول. سيتسنى لك أن تعيد بناء عائلتك وكل شيء سيعود إلى سابق عهده.

حين فتح عينيه، كان كل أثر للتصاوير قد اختفى واستعاد الجدار مظهره البراق.

- حسناً إذاً، هل أنجزت مهمتك؟

صرخ رجل كان ينتظر بنفاذ صبر على الجانب الآخر من الباب.

وقد استعاد شيئاً من الحيوية جراء انتصاره الصغير على نفسه، راح مارك يحث نفسه على مغادرة الحمام معاهداً نفسه بأن لا يضع قدميه هنا مرة أخرى على مدار الرحلة.

*

أخذت إيفي دور «الأخت الكبرى» بجدية، وعينُها على ليلى من

دون أن تفارقها أبداً. في خرسها، أمسكت ليلى بالقلم وخربشت على لوح الكتابة أشكالاً مجردةً كما تفعل الصبايا الأكبر سناً. وكانت إيفي تنظر إليها بتعاطف هو مزيج من التأثر والافتتان بخرسها.

حين رفعت ليلى عينيها عن الرسم، كانت قد مضت عشر دقائق على مغادرة مارك.

فتحت فمها، وحينئذٍ حدثت المعجزة:

- أخبريني، كيف ماتت أمك؟ وجهت ليلى سؤالها إلى المراهقة.

11

إيفي
أول فلاش باك

لاس فيغاس، نيفادا
مطلع أمسية من شهر تشرين الأول/ أكتوبر
قبل عامين

في ضاحية من ضواحي لاس فيغاس، بعيداً عن تلألؤات ونيونات ستريب1، ثمة ساحة مثيرة للتوجس تكتسي بالأعشاب الضارة والنفايات. وتقف على الساحة قرابة أربعين شاحنة قديمة الطراز في الغالب، بزجاجات مهشمة وحواجز معوجة وسطوح هابطة. ويؤم الساحة، وكانت محطة أخيرة قبل الشارع، خليط متنافر من الناس: عمال بمداخيل متواضعة، سيئو حظ يلتفون حول لعبة البوكر أو الروليت متصورين أنهم لن يبقوا هنا إلا لبضعة أيام - «ما يكفي من الوقت لكسب بعض المال» - غير أنهم لا يخرجون أبداً من جحيم هذه اللعبة.

في عمق الساحة، ثمة شاحنة لا تزال أحسن حالاً من غيرها،

(1) (الشريان الأكثر حيوية في المدينة، حيث تتركز الفنادق الكبيرة وأماكن اللهو).

تعلوها ظلة من المعدن المتموج ويحيط بها منبت سياج يعطي للروليت المنظر الخادع لمنزل.

تحت الظلة المعدنية، ثمة طاولة من الفورمايكا تقف عليها كومة مهيبة من الكتب، وجهاز راديو قديم موصول بمحطة محلية، وحوض أسماك حيث تدور بلا توقف سمكة سقيمة.

بينما تجلس إلى طاولة، راحت إيفي، وكانت في الثالثة عشرة، تقضم قلمها للحظة قبل أن تكتب دفعة واحدة العبارة الأخيرة من واجب القراءة والذي كان عليها أن تسلمه لأستاذها غداة ذلك اليوم.

فجأة، استدعاها صوت صادر من شاحنة متوسطة الحجم:

- !Date prisa, Evie, vamos a llegar tarde al trabajo[1]

- .Ya voy, Carmina, dame dos minutos[2]

اعتلت المراهقة الشاحنة وعادت وهي تمسك بإحدى يديها فرشاة أسنانها وبالأخرى علبة استعمل بعض من محتواها من قبل، وشرعت في التمضمض بمزيج غير مألوف من الكوكا الخفيفة ومعجون الأسنان الذي تقوم في ما بعد ببصقه داخل حوض الزهور. وبينما تدلك أسنانها راحت تعيد على عجلة من أمرها قراءة ما كتبته مصححة هنا وهناك بعض الأخطاء التي لا مجال للتخلص منها.

هيا، بسرعة!

كانت ترتب الآن أدواتها المدرسية داخل حقيبة الظهر قبل أن ترجع إلى داخل الشاحنة كي تقول وداعاً لأمها.

- حسناً، إنني ذاهبة إلى المدرسة ماما.

---

(1) بسرعة، إيفي، سنتأخر عن العمل.

(2) سآتي، كارمينا، أعطيني دقيقتين.

تيريزاً هابير متمددة في المستوى الأدنى من السرير المتعدد الطبقات.

كانت في الرابعة والثلاثين من العمر، مع ذلك تبدو في سن يزيد عن عمرها بعشرين عاماً وذلك بسبب الالتهاب الكبدي الذي تحمله معها منذ سنوات والذي تطور إلى تليف ثم إلى سرطان.

قبل بضعة أشهر أجريت لها عملية استأصلت خلالها ثلاثة أرباع كبدها -المتورم بفعل المرض الخبيث- ومن حينها وهي تتحمل أقل فأقل التأثيرات الجانبية لعلاجها: وحمى وغثيان وإجهاد مفرط واكتئابات.

أمسكت تيريزا يد ابنتها:

- اعتني بنفسك، حبيبتي.

كان قد انقضى قرابة العام منذ تركت عملها، ومذ ذاك لم تعد تعيش المرأتان إلا من النقود التي تكسبها الفتاة المراهقة ومن المساعدة الاجتماعية البائسة.

- لا تحملي هماً، أجابت إيفي بينما تنهض.

ردت وراءها باب الشاحنة ببطء وتسللت إلى منزل كارمينا، جارتها التي

تعمل معها في فريق النظافة في فندق أواسيس. كان عملاً لا يبعث على البهجة، وعلاوة على ذلك فقد كانت تتقاضى عليه فقط خمسة دولارات للساعة من دون ضرائب. وكان ميغيل، مدير فريق النظافة في فندق أواسيس قد رفض في البدء توظيفها، ولم يعدل عن رأيه ويوافق على استخدامها لبضع ليال في الأسبوع إلا من بعد أن سمعها تتوسل إليه.

*

صعدت إلى سيارة كارمينا، وكانت قديمة، ماركة بونتياك، ذات مقاعد بالية وبعادم يبصق دخاناً أسود. وكانت كارمينا مكسيكية ضخمة وصارمة. لديها ثلاثة أطفال وزوج ليس فيه من صفات الزوج شيء، إذ يمضي القسط الأعظم من وقته في بطالة. ولأنها لا تحب أن تتحدث بلا داع، فهي لا تفتح فمها طول الطريق وهو ما لا يزعج إيفي.

أغلقت الفتاة الشابة عينيها. كانت تشعر بضيق شديد بسبب ما علمته قبل بضعة أيام: قرر مالك الساحة، حيث تقف شاحنتها، أن يبيع ساحته لمتعهد سيقيم فيها بستاناً للتسلية. ولكي لا تتسبب في إقلاق أمها، لم تخبرها بذلك. لكنها كانت تسأل نفسها الآن عما سيؤول إليه أمرهما لو طردتا. وكانت المرأتان، منذ ثلاث سنوات، على الرغم من مرض تيريزا وتقلب أيامهما، قد أدركتا مظهراً من مظاهر الراحة بعد حقبة من البؤس أدمنت خلالها تيريزا على الكحول والمخدرات والدعارة.

كان ذلك خلال سنوات التسعينيات التي اجتازتها تيريزا كما لو تجتاز رواقاً طويلاً ومعتماً، متقاسمة باستمرار عُدة إدمانها - حقن، قطن، أداة للتنشق- مع يائسين آخرين، ملتقطة بذلك الإصابة بالتهاب كبدي قذر.

حينها كانت تيريزا ملاحقة من قبل الخدمات الاجتماعية التي كانت تريد أن تنتزع منها ابنتها لتودعها لدى عائلة مستضيفة. ولكي لا تنفصل عن أمها، طورت إيفي مهارات مدهشة تنم عن الاستقلالية الذاتية والنضج. تتذكر بقدر ما يسعها ذلك، أنها كانت الراشدة الحقيقية في العائلة. فإليها كانت تعهد تيريزا، في لحظات الصفاء، بجزء من أجرتها لكي تتفادى الانفراد بدور البطلة في كل شيء. فكانت تقوم بمشاوير التبضع ودفع الفواتير وحل المشاكل مع

الجيران، كما أنها أخرجت أمها من جحيم المخدرات.

هي التي صارت في نهاية المطاف أُم أمها...

*

- وصلنا، قالت كارمينا فيما تهز إيفي. خذي أغراضك.

فتحت إيفي عينيها وتناولت الحقيبة من المقعد الخلفي.

كانت السيارة تسير على بوليفار لاس فيغاس. في الوقت الحالي كان الظلام قد حل. في وفرة مصابيح النيون، كانت الفنادق ذات الواجهات المضيئة تتنافس في استعراض العضلات. وكان طيف أواسيس العريض يتوهج بألف شعلة ويلتهم سيارة البونتياك القديمة التي ستتوقف في الموقف تحت الأرضي الخاص بالموظفين.

بالثلاثة آلاف حجرة وأحواض السباحة الأربعة وصالة المبيعات، كان الفندق يمتلك فخامة فرعونية. هنا حيث كل شيء ضخم: الحديقة الداخلية، مزروعة بألف نخلة، يجتازها نهر صغير يغطي شاطئه رمل ناعم، حديقة الحيوانات حيث تتمازح الأسود والنمور البيضاء، المساحة الجليدية حيث تعاني طيور بطريق بدينة مع حوض الكائنات المائية بمائه البالغ مائة ألف لتر، بحيث يسعه استقبال دولفينات.

داخل الغرف، رخام الأرض على السقف، ديكور فني مصمم وفقاً لمبادئ فنغ- شوي وشاشات بلازما حتى داخل الحمامات.

لجعل هذه الآلة التي تتطلب آلاف «اللامرئين» تعمل على نحو صحيح، كان هنالك الخادمات وماسحي البلاط وموظفي صيانة من كل نوع...

كانت إيفي تشكل جزء من هؤلاء اللامرئين. ففي كل ليلة، كانت تستقبل تكلفاً مختلفاً. هذا المساء، رافقت كارمينا، المكلفة بنظافة

سلالم الخدمة: عمل مقرف. ثلاثين طابقاً، بظهر محني وممسحة ملتصقة باليد لساعات...

*

الساعة الثانية صباحاً

تأخذ إيفي استراحة لعشر دقائق على سطح الفندق. فمن هنا، على ارتفاع قرابة المائة متر، تشرف على لاس فيغاس ونهرها من الأضواء التي تتدفق على امتداد ستريب.

لقد ولدت في هذه المدينة التي تكرهها بقدر ما تحتقر هذا العالم الضاري من السواح الذين يتوافدون لإحياء عرس أجرب أو لإنفاق دولاراتهم داخل الكازينوهات. لم تفهم قط ما بوسع الناس أن يجدوه في بستان التسلية الضخم هذا، حيث كل شيء ليس سوى دجل وإكسسوارات وادعاءات.

في لاس فيغاس، ليس بإمكانك أن تقوم بثلاث خطوات من دون أن تقع على آلة قمار. إنها تنتشر في كل مكان، في محطات الخدمة، في السوبر ماركات، في المطاعم، في البارات، وفي الغسالات العامة. بيد أنه من الصعب عليك أن تجد مكاناً لشراء الكتب.

مع ذلك، كانت إيفي تحب الكتب أكثر من إي شيء آخر، وبالخصوص الروايات والشعر. وكانت إحدى مدرساتها هي من جعلتها تكتشف الأدب، ومنذ ذلك الوقت صار الأدب حديقتها السرية، جواز سفرها إلى كل مكان، وسيلة غير متوقعة للخروج من الدونية التي ألقت بها الحياة فيها.

في أحد محلات إعارة الكتب التي تتباهى بها المدينة، عثرت على مجموعة من الروايات البالية المعروضة، بغرض التصفية، للبيع

بدولارين: **مائة عام من العزلة، الصخب والعنف، الجريمة والعقاب، فئران وبشر، القلوب الضالة، مرتفعات هيرلفونت، محرقة الزهو.**

غارسيا ماركيز، فوكنر، ديستويفسكي، شتانبيك، سالنجر، برونتي، وولف، كل هؤلاء بسعر علبة شيبس.

*

الرابعة صباحاً

تمسح وتمسح وتمسح...

كانت تحس الآن أن ملابسها تفوح برائحة الماء العفن. وكان ظهرها مكسوراً وتكاد تهوي في النوم. ولكي تواصل الوقوف على قدميها، كان عليها أن تفكر في أمها وفي المستقبل. كان اسم تيريزا مدوناً على لائحة المنتظرين الدور للحصول على كبد جديد. لكن الأعضاء كانت نادرة، وليس لدى إيفي سوى الخوف من أن لا تبقى أمها على قيد الحياة إلى ذلك الوقت.

ينبغي لها أن تقف، شعرت بالضيق، ينبغي لها أن تقف بضعة أشهر كذلك.

لكنها، في الوقت نفسه، شعرت بالذنب لأنها تنتظر بأمل موت مانح العضو.

*

السادسة صباحاً

تستلم إيفي أجرتها نقداً من يد كبير الموظفين وتغادر الفندق. في الأسفل، على البوليفار، يكون الكوفي شوب الصغير قد بدأ في تقديم طلبات أوائل زبائنه الصباحين. تحب إيفي أن تجلس في عمق الصالة، معزولة قليلاً، إلى طاولة تطل على الشارع. وهناك تمكث لساعة قبل

أن تأخذ الأتوبيس الذي يقلها إلى مدرستها. ساعة كاملة لها وحدها، الساعة الوحيدة من النهار التي يتوافر لها بعض الوقت للقيام بما تحب حقاً: أن تقرأ وتكتب.

هذا الصباح طلبت شوكلاتة حارة، وأخرجت من حقيبة ظهرها كتاباً كانت قد عثرت عليه الليلة الفائتة إلى جانب سرير إحدى غرف الفندق. لا شك في أن أحد الزبائن كان قد نسيه. من النظرة الأولى، كان من الواضح أنه لم يكن رواية ولا ديوان شعر، إنما بالأحرى دراسة مكتوبة بقلم عالم نفس عصبي من نيويورك.

شخص يدعى كونور ماك كوي.

وكان عنوان الكتاب **البقاء على قيد الحياة**.

ولقد بدا الكتاب كما لو أنه كُتِب من أجلها.

كان يحدثها بالضبط عما عاشته، عن هذه الحاجة للصلابة لكي يكون المرء شجاعاً في مواجهة ما هو أسوأ، عن هذا الدرع الواقي الذي لا يمكن النيل منه والذي شيدته بصبر على مدار سنوات ويسمح لها بعدم الانهيار. إضافة إلى ذلك، وقعت إيفي عند منعطف أحد الفصول على كشف، شيء ما سبق لها أن حدسته، لكن من دون أن تتمكن من صياغته على نحو واضح: يجب علينا أن لا نبالغ في حماية أنفسنا وإلا فإننا سنفقد الإحساس بكل شيء. وسيتجمد قلبنا، ولن نعدو حينها كوننا أمواتاً على قيد الحياة، وتفقد هذه بالنسبة إلينا مذاقها.

لهذا السبب، حاولت أن تحتفظ بنوع من الفسحة الداخلية؛ كبسولة صغيرة من الأمل والخفة تتركها متوارية ومغروسة في أعماق نفسها، جاهزة لتفقس النهار حيث...

ومستقبلها؟ كانت تحب أحياناً أن تتصور نفسها كاتبة أو طبيبة

نفسانية حتى تساعد بدورها الناس الذين يتألمون. مع ذلك، كانت تدرك جيداً أنها لن تواصل دروسها. إذ ليست الجامعة قائمة من أجل ابنة مدمنة للمخدرات تعيش داخل شاحنة ومجبرة على العمل لكي تكسب بالضبط ما يسد رمقها.

ارتشفت إيفي جرعة من الشوكلاتة الحارة وخربشت بضع كلمات داخل كراسة ذات حلزون.

إذ غالباً ما تحس بنفسها وحيدة.

وحيدة جدا.

حينئذٍ تتشوق إلى تقاسم أفكارها مع شخص يفهمها.

لكن بما أنه ليس ثمة أحد، فهي تودع في مفكرتها شكوكها وخصوصياتها.

في خاتمة المذكرة، دونت قائمة. قائمة مكونة من عشرة أشياء حميمية تحب أن تراها تتحقق في حياتها. إنها تدرك جيداً أن ثمة حظاً ضئيلاً في أن تتحقق أمانيها، لكن يجب عليها أن تواصل أحلامها...

1- أن تتلقى أمي كبداً جديداً وأن تشفى.

2- أن نجد مأوى جديداً غير مرتفع الإيجار.

3- أن لا تعود أمي أبداً إلى تعاطي المخدرات أو الكحول.

4- أن لا أحاول أبداً أن أتعاطى المخدرات أو الكحول.

5- أن نغادر لبضعة أيام في إجازة بعيداً عن لاس فيغاس.

6- أن أذهب لمواصلة دروسي في نيويورك.

7- أن أعرف ذات يوم من هو أبي الحقيقي.

8- أن أكون واعية على الدوام أن هنالك أشياء جميلة في الحياة.

9- أن أقابل ذات يوم شخصاً ما يفهمني.

بالنسبة إلى الأمنية العاشرة، كانت أكثر تعقيداً. إذ كانت خطت شيئاً ما، ثم شعرت بالخجل، فقامت بمحوه:

لكن إذا أعملنا تفكيرنا به، بوسعه أن يكون:

10- أن يغرم بي شخص ما، ذات يوم.

12

مارك و أليسون

يتحدد كل شيء فينا منذ الطفولة.
لسنا نحن من يقول الكلمات.
الكلمات هي التي تقولنا.
ويتولد جومبروفيز

اليوم
في الطائرة
الساعة الحادية عشرة وخمسة وأربعين

كانت الـ A380 مستمرة في طيرانها بسرعة منتظمة، شاقة طريقها وسط السحب المحلقة في سماء روشيز. صعد مارك السلم الضخم الذي يربط الطابقين. وصل إلى وسط المقصورة العلوية حيث تتموضع الفلوريديتا، استراحة البار التي هي مصدر فخر شركة الخطوط الجوية: موسيقى تدعو للاسترخاء، إضاءة راقية، مقاعد خليقة بناد، كنبات بوسائد. كانت الأشياء تتبارى كي تخلق جواً لبادياً ورخيماً. ففي هذا المكان المؤثث على نحو فارِه، كان من السهل على المرء أن ينسى أنه في طائرة.

استقر مارك على أحد المقاعد العالية المصطفة في شكل دائري

حول الكونتوار. وكان يقف خلف الكونتوار رجل أسود بحلاقة شعر أفرو على غرار جاكسون فايف، ما يجعل منه نسخة طبق الأصل تقريباً من إسحاق، النادل، في فيلم **رحلة بحرية للتسلية**.

- كأس ويسكي مزدوج من دون ثلج، طلب الطبيب.

أصبح الآن في حال أفضل.

كانت الرؤية البريئة للشراب كافية لتهدئته تقريباً.

كذلك، عندما وضع إسحاق أمامه الطلب، منح مارك نفسه رفاهية تأخير الرشفة الأولى.

نظر حوله. كان المسافرون يتدفقون تباعاً نحو البار. وكانت شابة غير هيابة تتخذ لنفسها مكاناً إلى جواره. بانتظار أن تطلب مشروبها، موجت أليسون شعرها بإيقاع موسيقي مزيج مما هو إلكتروني ويدوي.

- ماذا أقدم لك يا آنسة؟ سألها النادل.

- كأس من الديكيري، لو سمحت. من دون سكر لكن مع كوب من عصير بامبلموس.

حطت أليسون عينيها على مارك وتقاطعت نظراتهما.

- هذا يسمى **همنغواي الخاص**، حدد الطبيب.

- عفواً.

- الكوكتيل الذي طلبته، الديكيري المر: ابتكره إرنست همنغواي.

وبما أن أليسون بقيت من دون ردة فعل، ظن مارك أنه ملزم بأن يوضح.

- همنغواي، الكاتب.

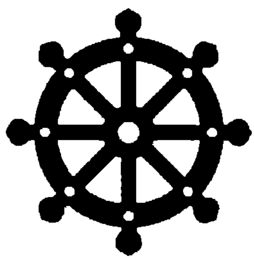
- أعرف من يكون همنغواي، شكراً!

- آسف، لم أشأ أن أسبب لك إزعاجاً.

تحت تأثير موجة انفعال عجزت عن السيطرة عليها، أخفقت أليسون في شروحاتها وأدارت الرأس.

أثارت فضوله، وحدق مارك فيها بتمعن: شعر أشقر ذابل، رشيقة، مظهر بنت لافتة...

عندما انحنت كي تلتقط حقيبتها، لاحظ مطلع وشم في تجاويف خاصرتيها تعرف فيه إلى الرمز البوذي دولاب القوانين:



- هل أنت على ما يرام يا آنسة؟ سألها.

- أنا بخير، فقط إحالتك إلى همنغواي: إنه الكاتب المفضل لدى والدي.

نظر مارك مباشرة في عينيها، وأحس بنفسه على نحو غريب أنه على ما يرام، فلطالما استمد من هذا الرجل جاذبية غريبة، شيء من الدفء والإنسانية يمنحانه الثقة ويدفعانه إلى الاستمرار:

- أبي مات قبل بضعة أيام، تابعت حديثها. لقد انتحر.

- أنا أسف.

- طلقة بندقية صيد، مثل...

- ... مثل همنغواي، أكمل مارك.

صادقت أليسون على كلامه بهزة من رأسها من دون أن تتكلم.

- اسمي مارك هاثواي.

- أليسون هاريسون.

بعد أكثر من دقيقة من التردد، تجرأ مارك على طرح السؤال الذي يعذبه:

- لم نصف الركاب الذين في هذه الطائرة يبحلقون ناحيتك؟

اعترفت الشابة، مرتبكة:

- السنوات الأخيرة، رأوني كثيراً في الصحف. في نهاية المطاف، الصحافة، إنها كلمة كبيرة...

- آه؟

- أراهن أنك وقعت من قبل على واحدة من صوري في الصحافة. ما لم يكن فلعلك الوحيد المعافى.

- لم أفتح صحيفة منذ خمس سنوات، أكد الطبيب.

- حقاً؟

- حقاً.

حملقت أليسون في مارك بفضول.

حملق الدكتور فيها بدوره، أحس أن الشابة بحاجة إلى شخص تبوح له بما يدور في خلدها.

- والآن، أخبريني يا أليسون بما فاتني منذ خمس سنوات.

13

أليسون
ثاني فلاش باك

قبل خمس سنوات

إيقاف أليسون هاريسون
في دبي بتهمة حيازتها مخدرات
(وكالة الأنباء- 11 أيلول/ سبتمبر 2002)

أُوقفت الوريثة الشهيرة في دبي، حيث كانت قد ذهبت في إجازة لبضعة أيام. وقد تقرر الأسبوع القادم موعداً لمحاكمتها بعدما أقرت حيازتها بعض الكوكايين الذي كانت تحمله للاستخدام الشخصي، لكنها أفادت بأنها لم تكن قد استخدمت أي شيء منه على أراضي الإمارات العربية المتحدة. وهذه ليست المرة الأولى التي تصبح فيها الوريثة الكبريتية أحدوثة، وحتى الآن فإن كل انحرافاتها السلوكية قد تم تسويتها عن طريق تدخل أبيها وبغرامة تقدر بآلاف الدولارات. لكن القضية الحالية وقد حدثت خارج الأراضي الأمريكية فمن المحتمل ألا تحظى بالحل نفسه. لنتذكر أن دبي، وهي المركز التجاري الهام والإقليم السياحي المزدهر، تنفرد بامتلاكها تشريعات خاصة بالمخدرات هي الأكثر صرامة في العالم.

*

أليسون هاريسون: ثلاث سنوات سجن
لقاء 2 غرام من الكوكايين!
(وكالة الأنباء- 18 أيلول/ سبتمبر 2002)

حكم هذا الصباح على ابنة رجل المال ريتشارد هاريسون بثلاث سنوات سجناً. وقد أدانتها المحكمة بتهمة إدخال بعض الكوكايين إلى أراضي الإمارات العربية المتحدة وحيازتها عليه.

*

تلفزيون بلومبيرغ

... رجل الأعمال الكبير ريتشارد هاريسون، مؤسس سلسلة سوبر ماركات غرين كروس، أخذ طائرة هذا الصباح إلى دبي، حيث يجب عليه...

*

في الدقيقة الأخيرة: أليسون هاريسون
تنال أخيراً العفو في دبي
(وكالة الأنباء- 19 أيلول/ سبتمبر 2002)

مفاجأة غير متوقعة في قضية هاريسون: بعد بضع ساعات من الحكم عليها بعقوبة سجن قاسية، أصدر حاكم دبي عفواً عن أليسون هاريسون هذا الصباح. بمجرد أن صدر العفو غادرت الوريثة الشقراء الإمارات العربية المتحدة عائدة إلى الولايات المتحدة على متن الطائرة النفاثة التي استأجرها والدها.

*

- أليسون، تسمعينني؟

كان ريتشارد هاريسون يجلس داخل الطائرة النفاثة بمواجهة ابنته. وكان بديناً بدانة متوسطة، ويرتدي نظارة قصر النظر وسترة بياقة دائرية وبنطال مخملي وأحذية ضخمة. منذ زمن طويل وهو متعوّدٌ على

الاختفاء خلف هيئة رجل قروي. أما في الوسط المكون من رجال الأعمال، فهو الرجل الرهيب والمرهوب.

- هل ثمة شيء ليس على ما يرام؟

كانت الفتاة الشابة تنحني فوق مقعدها وتضع ذقنها على فخذيها المثنيين عندما برطمت بهذه الكلمات:

- تتجرأ فتسألني إن كان ثمة شيء على غير ما يرام، بعد الذي عملته؟

- ما قمت به قمت به من أجلك، أجاب أبوها بنبرة مرهقة. صدقيني أنا في غنى عن ذلك.

- يلزمني أن أتدبر أمري بمفردي ربما...

صمت.

- لا يمكننا التقهقر إلى الوراء، واصل ريتشارد، يجب عليك أن تمسكي بزمام أمورك بيدك لأنني لن أكون هنا إلى الأبد لكي أخلصك من عثراتك.

- أمر لا يعنيني. ستكون لدي نقودك.

لم يدع الكلمات الجارحة تصيبه بالاضطراب:

- عليك أن تتوقفي عن تعاطي المخدرات وتستثمري بعض الأموال في شيء ما. ترافع ريتشارد: مشروع يكون له معنى بالنسبة إليك. لعلك تستطيعين أن تديري المنظمة التي أسستها أمك...

- دع ماما حيث هي!

- أنا أسعى فقط لمساعدتك.

- إذاً، دعني بسلام!

تلقى ريتشارد الضربة من دون أن يطرف له جفن.

- هذه العدوانية ضد ذاتك وضد الآخرين، إرادة التجريح هذه،

وأن تكوني بذيئة: أعرف أنك لست كذلك في أعماقك يا أليسون. أعرف أنك ذكية ومرهفة الإحساس. أنت تعيشين فقط فترة صعبة. إذا كنت قد تسببت لك بأي ألم فأطلب الصفح، لكنني أتوسل إليك أن لا تغرقي أكثر لأنه لن يكون بوسعك بعد ذلك الخروج من هذه الحالة أبداً.

لا إجابة.

*

ألمي هو انتقامي ضد نفسي.

ألبرت كوهين

*

أليسون تخضع للعلاج من آثار المخدرات

(على الخط- 4 كانون الثاني/ يناير 2003)

قامت وريثة إمبراطورية غرين كروس اليوم بزيارة طوعية إلى عيادة كوليدج دو ما ليبو كي تخوض معركتها ضد إدمانها للمخدرات والكحول. «قررت الآنسة أليسون أن تتبع أوامر صارمة وذلك من أجل رفاهيتها ورفاهية عائلتها». هكذا صرح جيفري وكسلر، محاميها، في بيان رسمي.

*

أليسون تنتكس!

(على الخط - 14 آب/ أغسطس 2003)

شوهدت أليسون هاريسون وهي تمنع من صعود إحدى طائرات الخطوط الجوية الأمريكية بسبب حالة سكر متقدمة. إذ شربت المرأة الشابة، بينما تنتظر في مطار ميامي رحلتها إلى لوس انجلوس، بضعة كوكتيلات في البار قبل أن تخرج منه وهي تترنح، مما حدا بموظفي شركة الطيران رفض صعودها إلى الطائرة.

«تلفظت الآنسة هاريسون بكلمات بذيئة في حقنا، هكذا حددت موظفة الخطوط الجوية الأمريكية. لقد كانت ثملة تماماً، وهو الأمر الذي أقرته بنفسها».

*

ريتشارد هاريسون يتبرع بثلاثة أرباع ثروته إلى مؤسسات خيرية

(رويترز- 28 تشرين الأول/ أكتوبر 2003)

أعلن الملياردير ريتشارد هاريسون عن نيته التبرع بعشرة مليارات دولار لعدة منظمات خيرية وإنسانية. ويتكيء هذا المبلغ على ما يقارب ثلاثة أرباع ثروته، وسيوزع بين منظمات متنوعة من بينها مؤسسة شانيا التي خلقها هو بنفسه قبل أكثر من عشرين عاماً بالشراكة مع زوجته الأولى (متوفاة في العام 1994) والتي تديرها اليوم زوجته الحالية: ستيفاني هاريسون.

*

شباط/ فبراير 2004

غرفة رقود بألوان البستيل في عيادة جديدة لمعالجة آثار الإدمان. من خلال النافذة نرى جبال مونتانا المكللة بالثلوج. بينما أليسون ترتب حقيبتها يفتح ريتشارد الباب وينظر إليها بحزن.

- تحدثت مع المدير للتو. هو لم يعد يرغب في وجودك هنا. ويزعم أنك تتسببين بالمتاعب للنزلاء الآخرين.

حاول ريتشارد على نحو أخرق أن يساعدها في ثني كنزة، لكن ابنته أبعدت يديه عنها بفظاظة. من دون اضطراب أمسك رجل الأعمال سلته المصنوعة من جلد عتيق كي يخرج منها بروشوراً من مادة البلاستيك الشفاف وتذكرة طيران.

- اسمعي، لقد سمعت عن معهد جديد في سويسرا. ليس عيادة بمعنى الكلمة، بالأحرى مكان حيث يمكنك أن تجدي الراحة...

- لم أعد قادرة على تحمل كل هذه الأماكن بابا.

- لنعد إلى المنزل إذاً.

من دون أن تكلف نفسها عناء الرد، عبرت أليسون إلى صالة الحمام وشغلت مجفف شعرها.

رفع ريتشارد صوته طالباً منها بإلحاح أن تكتم ضجيج مجفف الشعر (séchoir):

- تسمعيني، أليسون...

أغلق مأخذ الماكينة لكي يلفت انتباه ابنته.

- هنالك طبيب جديد لطالما أحببت أن تذهبي لزيارته في نيويورك: الدكتور كونور ماك كوي، شخص متفرد في عالم الطب النفسي. إنه يمارس مناهج مبتكرة في عالم الطب وأعتقد أن بوسعه أن يساعدك.

- أَتعرف، بابا؟ سأعود بمفردي بالتاكسي.

- اقرئي على الأقل كتابه، اقترح ذلك فيما يناولها كتاباً حول علم النفس العصبي.

ولمّا لم يصدر عن أليسون أي رد فعل، وضع الكتاب في حقيبة ابنته: **البقاء على قيد الحياة**، لمؤلفة كونور ماك كوي. ووضع بجوار الكتاب بطاقة مواعيد الزيارة وعناوين الطبيب، ثم التقط سلته وتأهب لمغادرة الحجرة. قبل أن يغادر استدار للمرة الأخيرة ناحية أليسون:

- هنالك أيضاً شيء أود أن أقوله لك. أفضل أن تكوني على علم به قبل أن تقوم الصحف بإعلانه.

وقد انتابها القلق فجأة، خرجت أليسون من الحمام. أحست غريزياً أنه كان بصدد قول أمر مهم.

- ماذا؟

- سأموت عما قريب.

*

ريتشارد هاريسون يعاني
من مرض الزهايمر
(CNN.com - 15 آذار/ مارس 2004)

أصيب رجل الأعمال ريتشارد هاريسون بمرض الزهايمر، أعلن ذلك صباح أمس الناطق باسمه، المحامي جيفري ويكسلر.

«ريتشارد مصاب حقاً بهذا المرض، أكد المعلم ويكسلر. الأعراض الأولى ظهرت قبل عامين، مع ذلك بقي ريتشارد يتمتع بحيوية كبيرة. ورغم عدة إغماءات فقد بقي واعياً دوماً بما يحدث له واستمر في النهوض كل صباح كي يذهب إلى العمل».

لنتذكر أن الأمل في علاج هذا المرض العصبي الهرموني لا يزال بعيداً اليوم. وفي غياب أي تقدم واضح في الأبحاث، فإن 15 مليون أمريكي يمكنهم أن يكونوا مرشحين للإصابة به الآن وفي الأعوام الأربعين القادمة مقابل 4,5 مليون مصاب اليوم.

*

2005

ذات ليلة خريفية في لاس فيغاس.

مغتاظاً، لكن بخطوات مفعمة بالحيوية، يجتاز روسيل مالون، مدير فندق أواسيس، البهو الفسيح من الرخام والزجاج كي يلتحق بمصاعد جماعات الضغط. يلج إلى الكبسولة الشفافة التي ترتفع به نحو الأعالي طائراً رأسياً صوب الردهة المركزية الفسيحة حيث، وسط مزيج من جنون أصحاب الفخامة وجنون مبذري الرفاهية، يعاد تشييد بعض من أشهر النصب التذكارية الرومانية في أحجام واقعية: نافورة تريفي،

قوس تيتوس، وكذلك جانب من مدرج كوليزيه. حمل المصعد روسيل إلى الثلاثين وهو الدور الأخير: الدور الخاص بالأجنحة الأكثر فخامة. يتوقف للحظة أمام الشقة التي استأجرتها أليسون هاريسون. كان عدد من الزبائن قد قدموا بلاغات تشكو من الجلبة التي تحدثها الوريثة الشابة. فقد كان صوت الموسيقى المرتفع إلى أقصى حد يبلغ المسامع حتى داخل البهو. ولقد تعرف روسيل إلى صوت كورت كوبين: **الرجل الذي باع العالم**، اللازمة الموسيقية الخاصة بدايفد بوي تغنى بصوت نيرفانا، وكانت تبثه في تلك اللحظة القناة العالمية للموسيقى. لجزء من الثانية تداعت إلى باله سنوات دراسته الجامعية وجوانا، صديقته القديمة التي كان قد أهداها هذا الألبوم. في ذلك العهد كان سعيداً وكان لا يزال لامبالياً. لكن هذا الرجوع إلى الماضي لم يدم. فقد أعادته وظيفته ومسؤولياته إلى الواقع.

- آنسة هاريسون؟ نادى في ما يقرع الباب. هل أنت على ما يرام؟ منذ لحظات، حاول لمرات أن يتواصل معها بالهاتف، لكنها لم ترفع السماعة. ولما لم يتلق جواباً، قرر أن يستثمر مروره ويدلف إلى داخل الجناح.

- آنسة هاريسون؟

عرج روسيل على كل الحجرات قبل أن يقرر أن يدفع باب صالة الحمام. كانت حجرة الحمام مشبعة بالبخار. بشيء من الخشية، سحب ستارة الدوش، وأفلتت منه لعنة.

داخل حوض الاستحمام، كان جسد أليسون هاريسون يتنافج، وقد حز معصميه وكاحليه عميقاً.

في غرفتها، علي دُرج السرير، كان هنالك كتاب لم تجد الوقت لفتحه: **البقاء على قيد الحياة** لكونور ماك كوي.

*

حزيران/ يونيو 2006

يقع فندق النوتيلوس الفخم في عرض بحر الكاريبي، ويغوص فيه خمسة عشر متراً عمقاً. ويعد واحداً من الأمكنة الجديدة التي تتماشى مع الموضة. ويستقبل الفندق نخبة محدودة: الأغنياء الجدد والأثرياء جداً والنجوم وأشباه النجوم في عالم المشاهير والموضة. ويتميز هذا «الفندق تحت المائي» بصدفته التي تسمح بتبجيل الأعماق المائية بشرط أن لا يكون المرء مصاباً برهاب الأماكن المغلقة.

في الغرفة 33، كان الوقت منتصف الليل. يغادر رجلان ثملان بعض الشيء الغرفة ويتبادلان بضع كلمات حازمة بخصوص الفتاة الشابة النائمة على السرير.

بعد ساعات، تستيقظ أليسون. بخطى متعجلة تهرول نحو المرحاض وهي تشعر بألم في رأسها. وبعد أن تتقيأ تعود بخطى متثاقلة وتهوي على الفراش. على الأرض قنينة فارغة من التيكيلا، اثنين من الأكياس الواقية، وبقايا كوكايين...

أليسون تبكي.

إنها لا تقدر على تذكر ما حدث لها فعلاً.

في لحظات كهذه، غالباً ما تعتقد أنها لمست القاع، وتغدو مقتنعة أنه لم يعد بمقدورها أن تتردى أكثر من ذلك.

لكن في كل مرة يتكشف لها خطأ هذا الاعتقاد.

لأن القاع أكثر عمقاً بكثير مما نتصور.

*

تشرين الثاني/ نوفمبر 2006

جسر على الطريق السريع، في ظلام لوس أنجلوس. جسر مشاة خراساني يشرف على تشابكات الطرق، على بعد بضعة كيلومترات من محول الطريق السريع.

أوقفت أليسون سيارتها ذات الدفع الرباعي على شريط موقف الطوارئ، وتخطت سياج الحماية ونظرت بقنوط إلى طوفان السيارات التي تتدفق على مسافة عشرين متراً نحو الأسفل. كانت يداها مكبلتان برباط بينما يرتعد كعبا قدميها الفارعان على السياج الخرساني الرفيع.

لم تكن في أي يوم مشرفة على الموت كما هي الآن. لقد مضى زمن أكثر من اللازم وهي رهينة حياتها وتصرفاتها وماضيها. زمن طويل جداً وهي تحيا في ضيق جميع لحظاتها وفي النفور من نفسها.

يبدو أن الجحيم يكون حين لا يعود هنالك أي أمل.

إذاً، فقد حلت ساعة النهاية هذا المساء.

اللعبة انتهت. . . (Game over...)

حل الوقت المناسب.

عوت صفارات البوليس في الظلام.

تتوقف سيارة، ثم دراجتان ناريتان على مستوى ارتفاعها. وعلى وجه السرعة، على مسافة خمسة أمتار منها، يشكل أربعة رجال نصف دائرة. كانت كلما اقتربوا منها ترفع صوتها بالصراخ مما يجعلهم يجمدون في أمكنتهم. كانوا هنا لكنهم لا يستطيعون شيئاً. ولو أرادت أن تثب لفعلت. لحظة أخيرة من الحرية قبل الهاوية. وكانت ثملة لأنها تمتلك الخيار.

- يجب عدم فعل ذلك، يا آنسة!

كان الشرطي الأكثر شباباً هو من تحدث. وكان أسود في العشرين من العمر على الأكثر، ذا قوام أهيف على غرار أوتيس ريدنغ، وله حتى صوته المرير نفسه، والشارب نفسه الخليق بمراهق.

- أحياناً يخطر لنا أن هذا هو الحل الوحيد، لكن ذلك غير صحيح. . .

كان صوته ذا نبرات عاطفية وحقيقية. حتى ليتملك المرء الانطباع أنه عاش تجربة مشابهة، هذا الفتى الصغير. يجب القول إنه فقد أخته التوأم قبل خمس سنوات. كانت قد حبست نفسها داخل سيارة العائلة وفي فمها أنبوب مطاطي موصول بخزان الغاز. كان هو من اكتشف جسدها فيما يفتح باب الكاراج. ولم يكن أحد قد رأى شيئاً يحدث.

- ليست هنالك حياة أخرى يا آنسة! أكد فيما يقترب من أليسون. خارج الحياة ما من حياة أخرى...

أمسك بذراع أليسون، فتركت نفسها تقاد.

*

اليوم

في الطائرة

الساعة الواحدة ظهراً

أنهت أليسون قصتها للتو. خفضت عينيها وهي تشعر بالذهول، وفي الوقت ذاته ببعض الضيق لكونها باحت بالكثير عن حياتها لشخص مجهول تماماً. وكان مارك قد أصغى إليها بانتباه نادر. عندما كانت تتحدث إليه، كان يراودها شعور بالحماية كما لو كانت داخل فقاعة. في الواقع لم يلزم مارك سوى بضع دقائق ليستعيد بعض استجاباته كعالم نفس مدوناً ذهنياً بعض الملاحظات ومحاولاً مقاربة تجربة أليسون عن طريق تجارب مرضى آخرين سبق له متابعة حالتهم.

كان هو نفسه قد استعاد شيئاً من هدوئه. فإذ يدخل في تواصل مع الناس، يتسنى له عكس المجرى: ذلك ما أحبه دائماً. إيقاف تدهور مرضاه إلى الجحيم ومساعدتهم على الارتفاع رويداً باتجاه الحياة.

نظر مارك إلى الفتاة بتركيز. في هذه المرحلة، لا يسعه إلا أن يطرح عليها سؤالاً واحداً:

- لأي سبب تسعين إلى معاقبة نفسك؟

أدارت أليسون عينيها وانقبض شيء ما فيها، العرض المرضي الذي وضع مارك إصبعه عليه تماماً. مما لا شك فيه أن دافعها إلى تدمير ذاتها يمد جذوره في مكان ما. فتحت فمها، ولثانية اعتقدت فعلاً أنها على وشك أن تعترف له بسرها وتتخفف من هذا الألم الذي يقرضها منذ سنوات. لكن الكلمات بقيت محتجزة في بلعومها والدموع أطلت من عينيها. كان مارك بصدد إحياء الحوار عندما اهتزت الطائرة، فأسقط إسحاق كأس الكوكتيل الذي كان بصدد تقديمه لأحد الزبائن، وأطلق شخص ما صرخة والأضواء ومضت.

سيداتي، سادتي إننا نجتاز الآن منطقة مطبات هوائية، الرجاء أن تعودوا إلى مقاعدكم وأن تربطوا أحزمتكم.

تعالت بعض الاحتجاجات وسط الزبائن، لكن نفذ كل منهم الأمر.

- ينبغي أن ألتحق بابنتي في المقصورة السفلية، أوضح مارك وهو ينهض من مقعده.

- أفهم، أجابت أليسون.

انفصلا من دون أن يضيفا شيئاً، لكنهما في لحظة افتراقهما، قرأ كل منهما في نظرة الآخر الوعد بأنهما سيلتقيان عما قريب.

14

دولاب الحياة

كان دولاب الحياة يدور بسرعة كبيرة إلى حد أنه لم
يكن بمقدور إنسان أن يبقى واقفاً لوقت طويل.
وفي نهاية المطاف كان الدولاب يعود في كل مرة
إلى نقطة انطلاقه.

ستيفن كينغ

اليوم

في الطائرة

الواحدة وخمسة عشرة دقيقة

كانت الرحلة 614 تتأرجح بعنف فوق بحر من السحب.

قلِقاً، عاد مارك إلى مقعده من دون أن يضيع كثيرَ وقت. كيف له أن يترك ابنته من دون اهتمام خلال ما يربو على النصف ساعة؟ للحظة موجزة، تملكه الفزع. فماذا لو لم يجد سوى مقعد خاو في مكان ليلى؟ راح يشق طريقة وسط الزحام، مطوحاً في طريقه ببضعة أشخاص كي يتسنى له التقدم بسرعة. وماذا لو اختفت ابنته مجدداً بسبب غلطته؟ وإذ يجتاز الممر، أحس بالأرض تميد تحت قدميه. وماذا لو. . .

توقف على مسافة أمتار من مقعده. لم تكن ليلى قد تحركت من مكانها. بقلم في اليد وبوجه مستدير نحو إيفي، كانت، مع شعور بالزهو، تري رسوماتها للمراهقة.

- هل مضى كل شيء على ما يرام؟ سأل مارك فيما يجلس.

- طبعاً، أجابت إيفي مردفة كلماتها بإيماءة من رأسها.

انحنى الطبيب كي ينظر إلى الرسومات التي أنجزتها ابنته في غيابه.

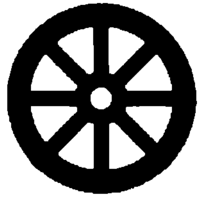
- هل يمكنني أن أنظر؟ سأل مارك فيما يداعب شعر ابنته.

وكانت لا تزال صامتة، سحبت ليلى ذراعها من على الرف كي تسمح لأبيها أن يأخذ الأوراق بيده. كانت الطفلة الصغيرة قد لونت بضع صفحات من دفتر الرسم.

أثناء ممارسته الطب النفسي، كان مارك كثيراً ما يستخدم الرسوم في مساعدة شابات مريضات على إيصال أفكارهن على نحو أفضل. في ما مضى، كانت لديه حتى موهبة حقيقية في فك الرموز وتحليلها. متمعناً في رسوم ابنته، أحس بارتياح حقيقي: كانت رسوم بألوان حيوية، ممتلئة بالفراشات والنجوم والأزهار. ومع أنه لم يعد يمارس موهبته منذ وقت طويل، فقد كان مقتنعاً أن تلوينات ليلى لم تكن من عمل طفل عانى صدمة عنيفة.

- إنها رسوم جميلة، حبيبتي، قال يطري عليها.

أوشك أن يضع الأوراق على الرف عندما جذب انتباهه شيء ما: شكل هندسي يتكرر على كل الأوراق، كان قد خيل إليه فيما ينظر للوهلة الأولى أنه زهرة أو نجم.



ويمثل هذا الرمز **دولاب القانون**. قانون المصير البشري الذي ما من قوة يمكنها أن تغير اتجاهه، قانون العود الأبدي للأشياء: الولادة والموت ثم الولادة من جديد...

هذا الرمز، كان قد رآه قبل لحظة موشوماً في تجاويف خاصرتي أليسون! إنه يمثل الدائرة نفسها التي لطالما فتنت كونور بأشعتها الثمانية التي من المفترض أن تدل الإنسان على طريق خلاصه من الألم.

- لماذا رسمت هذا، حبيبتي؟ وشعر بالاضطراب وهو ينظر في عيني ليلى.

- لا أعرف، أجابت الطفلة بهدوء.

أصاب الذهول مارك. فقد أجابته ليلى للتو! لقد تحدثت! هل سمعها حقاً أم إن ذهنه كان لا يزال يتلاعب به؟

- أنت على ما يرام، حبيبتي؟ سأل، وقد خالجه الارتياب بأنه لن يحوز إجابة.

- أشعر بالنعاس، ومع ذلك فأنا على ما يرام.

أحس مارك بالتحرر من عبء ثقيل، مع ذلك تردد في تبني هذا الشعور. ففي تلهفه على طرح ألف سؤال على ابنته، كان عليه أن يكون حذراً حتى لا يباغتها.

- كبيرة هذه الطائرة، أليس كذلك؟ طرحت ليلى ملاحظتها وهي تبتسم.

- طبعاً، صادق مارك على كلامها راداً على ابتسامتها بثانية. وهي الأكبر في العالم.

- هل تسير بسرعة؟

- بسرعة عالية جداً.

- مع ذلك، كما لو أننا! طرحت ملاحظتها فيما تنحني باتجاه إيفي لتقيم السرعة من خلال النافذة.

- معك حق، وافق مارك. تعطي الانطباع بأنها ساكنة فوق السحب، ومع ذلك فهي تمضي بسرعة عالية، قرابة ألف كيلو متر في الساعة. إنه وهم بصري.

- وهم بصري؟

- يعني ذلك أننا ننخدع أحياناً بالمظاهر، شرح لها.

- آه حقاً؟

وبدت للحظة كأنها تتأمل هذا التوكيد قبل أن تغير الموضوع.

- هل أستطيع أن أحصل على بوظة؟

- طبعاً. المضيفات سيوزعن منها بكل تأكيد حين نتجاوز هذه المطبات الهوائية.

- سأتناول واحداً مع اللوز، صرحت الطفلة الأكثر جدية في العالم.

- خيار موفق.

- هؤلاء هاغن داز، أوضحت.

- تعتقدين ذلك؟

- أقسم لك: لقد رأيتهم خلف الواجهة الزجاجية حين وصولنا. وصدقني بأنه لم يكن وهماً بصرياً.

رسمت ليلى ابتسامة مزهوة بإجابتها. أحس مارك بأنه يعود إلى الحياة. لقد عثر على ابنته كما عرفها: متألقة، ومفعمة بالحياة

وبالحس السليم. من جديد استحوذ عليه الأمل المجنون بأن الحياة ستعود لسابق عهدها. لكن قبل ذلك، كان يجب عليه أن يفهم مبررات هروب نيكول، وبالأخص أن يستوضح ملابسات احتجاز ليلى. كانت ابنته قد صارت ثرثارة فجأة. كان عليه أن يستفيد من ذلك لكي يستجوبها لكن من دون أن يعكر مزاجها.

- تودين أن تحكي لي ما الذي حدث لك، حبيبتي؟ سألها بصوت مطَمئن فيما ينحني عليها.

- ما حدث لي عندما كنت صغيرة؟

وافق بهزة من رأسه.

- حالياً لم يعد هنالك شيء يخيفك. ستستعيدين ماما، المنزل، غرفة نومك، والمدرسة. كل شيء سيستعيد مكانه السابق لكن قبل ذلك عليك أن تقولي لي أين كنت خلال كل هذه السنوات وبشكل خاص... مع... من.

فتحت ليلى فمها كما لو لتجيب بالمثل، ثم غيرت رأيها وأخذت وقتاً للتأمل.

حين اتخذت الصغيرة قرارها أخيراً، فذلك لتقترح:

- ليس أمامك إلا أن توجه سؤالك لماما...

أحس مارك بدمه يجمد.

- ماما تعرف ما حصل؟

رسمت ليلى إيماءة مصادقة.

- لا، قال مارك، أنت تكذبين عليّ.

- إنها الحقيقة، أكدت ليلى وقد انتابها الغضب لأن كلامها وضع موضع شك.

- أنت متأكدة؟

- بكل تأكيد، جزمت من دون تردد.

صعق مارك، وسأل:

- رأيت ماما مجدداً منذ خمس سنوات؟

- بالتأكيد، كنت أراها غالباً.

- هكذا هو الأمر، رأيتها غالباً؟

حدقت في وجه أبيها بعذوبة. كانت عيناها متألقتين. بكلمة واحدة وضعت حداً للمناقشة.

- الآن، أريد أن أنام بابا.

وكان لا يزال تحت تأثير الصدمة، استغرق مارك عدة ثوانٍ قبل أن يستسلم:

- طيب، حبيبتي، ارتاحي.

ضغط مارك على الزر كي يميل الكرسي إلى الخلف. استلقت ليلى وأغمضت عينيها كي تترك نفسها تهدهد على خرخرة الموتورات.

تردى مارك في هاوية الحيرة. أي قدر من المصداقية تعزى لكلماتها؟ رغم مظهرها الوادع، فقد مثل اختطافها صدمة قوية لها. ربما احتوت كلماتها قدراً من الحقيقة، لكن مارك ظل يرفض تصديق أن نيكول استطاعت، من قريب أو من بعيد، أن تتورط في اختطاف ابنتها.

كانت ليلى تنام بقبضات يد مغلقة. تأملها مارك بحنان إلى أن انتهى به الأمر إلى أن يضبط إيقاع تنفسه على تنفسها. بلطف مسد شعرها نافضاً شائبة خلف أذنها. ورثت ليلى ملامح نيكول ونظرة مارك. على الأقل هذا ما كانت الناس تزعم: «لها ابتسامة أمها ونظرة أبيها»..

ومع ذلك. . .

مع ذلك، كان مارك يدرك أن الأمر غير صحيح، لمبرر وجيه وبسيط وهو أن ليلى لم تكن ابنته البيولوجية.

*

عندما تعرف إلى نيكول، قبل عشر سنوات، كانت هذه الأخيرة في بداية الحمل. كانت خارجة من علاقة مع رئيس الأوركسترا الفرنسي دانيال غريفين. الستيني اللامع والمثقف والمشهور، والذي يكتسب مزيداً من الشهرة في العالم أجمع. وكان غريفين يسلسل زيجات مخالفة للمألوف مع الموسيقيات اللواتي يعزفن تحت إمرته. مغامرته مع نيكول لم تدم سوى بضعة أسابيع، وكانت عازفة الكمان هي من بادرت إلى قطعها. وحين علمت بحملها قررت نيكول، خلافاً لكل توقع، أن تحتفظ بالوليد من دون أن تخبر حتى غريفين. وكانت مقابلتها لمارك قد كنست كل شيء في طريقها. كان مارك قد أحب ليلى واعتنى بها كما لو كانت ابنته الخاصة. كان هو من وضع يده على بطن نيكول ليحس الحركات الأولى، هو من أمسك يد امرأته أثناء الوضع. كان هنا عند النفس الأول، الخطوات الأولى، الكلمات الأولى. وكانت سعادته لكونه أباً قد أنسته بسرعة أب ليلى الحقيقي. وكان هذا الأمر هو من قبيل الشيء الذي اختارا، هو ونيكول، أن يحتفظا به لنفسيهما.

كان سرهما، حبهما، طفلهما. ولم يتحدثا عن ذلك إلى أحد. لا إلى كونور ولا إلى المحققين الذين نبشوا حياتهما عند لحظة اختطاف ليلى. كان غريفين قد مات بأزمة قلبية عند نهاية سنوات التسعينيات، ومع الوقت انتهى السر بأن تحلل إلى أن تلاشى بالكامل.

وذلك لأن الحب هو ما ينسج العلاقات العائلية وليس الدم.

*

بينما تجلس إلى جوار النافذة، لم يفت إيفي نتفة من المحادثة بين مارك وابنته. رغماً عنها، لم تستطع المراهقة أن تمنع نفسها من النظر مراراً إلى الطبيب. من دون أن تعرف الشيء الكثير عن قصته، أدركت التشوش الذي يقاسيه هذا الرجل والرابطة القوية التي توحده بابنته. أحسته مضللاً، محطماً بتجربة ما، وتكهنت أنه كان يفترض به أن يكون رجلاً مختلفاً، منذ سنوات مضت.

- شكراً لعنايتك بها، قال مارك مشيراً إلى ليلى.

- لا شيء يستحق الشكر.

- أتصور أنك تستحقين بعض الإيضاحات.

مدفوعة بالفضول، استدارت إيفي نحو مارك. ببضع كلمات حكى لها الأخير الخطوط العريضة لقصته منذ اختطاف ليلى وحتى لغز ظهورها، بعد خمس سنوات.

- أود أن أعرف: هل حكت لك ابنتي شيئاً أثناء غيابي؟ هل تحدثت إليك؟

- قليلاً...

- هذا يعني؟

- في الواقع، لم تطرح علي سوى سؤال واحد.

- هو؟

- أرادت أن تعرف ما حدث لأمي.

متحيراً، ورطها مارك بالمتابعة:

- وبماذا أجبتها؟

15

إيفي
ثاني فلاش باك

لاس فيغاس

نيفادا

بعد أشهر

الوقت يقارب منتصف الليل.

تحولت ساحة التخييم القديمة إلى ساحة غارقة كلياً في الظلام. هناك حوالي عشر عربات تحتل المكان بطريقة عشوائية.

كان روليت «عائلة» هاربر مضاء بشمعة. ولم تكن إيفي تعمل هذا المساء. بينما كانت تتمدد على الكنبة، راحت تتصفح مجلة قديمة مستمعة في الوقت نفسه إلى الراديو مستخدمة في ذلك خافض صوت. إلى جوارها تنام أمها وبالقرب منها درج من خشب رقيق مغمورة حافته بالأدوية. كبحت إيفي تثاؤباً وراحت تتهيأ للنوم عندما رنَّ جرس داخل الحجرة، إنه جرس هاتفها المحمول الذي يعمل ببطاقة الدفع المسبق، والذي لا يستخدم إلا بتقتير.

- ألو؟

كانت مكالمة من المستشفى. ولقد أعلن لها الدكتور كرايج

دافيس، منسق عمليات زرع الكبد، خبراً طيباً: من المحتمل توفر عضو من أجل أمها! يجب المجيء في الحال!

بقفزة واحدة، كانت إيفي تقف عند مرقد تيريزا.

- ماما، استيقظي، ماما!

وقفت تيريزا بمشقة. بعدة كلمات، شرحت لها إيفي الوضع وساعدتها في تجهيز نفسها. بعد أقل من خمس دقائق، كانت المرأتان أمام مقطورة جارتهما الأكثر قرباً.

- هؤلاء نحن يا كارمينا، إننا بحاجة إلى سيارتك، لأمر ضروري!

بعد انتظار لا ينتهي، انفتح الباب أخيراً. لكن عوضاً عن صديقتهما خرج زوجها، رودريغو الذي استقبلهما بوابل من الإهانات.

- Pero qué coño pasa? Esta gente siempre jodiéndome[1]...

لم تدع إيفي نفسها تشعر بالذعر، بل ردت عليه برباطة جأش: شتائم بالإسبانية كانت تعرفها أكثر منه. وبعد تبادل للظرافات، قَبِل رودريغو -الذي كان يسعى إلى الخروج من الورطة بتولي المهمة السهلة- أن يصاحبهن إلى المستشفى. إذاً فقد غادر الأربعة على متن البونتياك فيربيرد القديمة، جيل 1969، بمقاعدها المثقوبة وبخزان وقودها الذي يعود إلى ما قبل قوانين محاربة التلوث. راحت السيارة تتعرج. لعشر مرات تجنبت الاصطدام برصيف أو بسياج. الرقم عشرة هو أيضاً عدد علب الكورونا التي تناولها رودريغو قبل أن يشرع بالطيران...

(1) ماذا لديكم أيضاً؟ ألن تفرغوا من مضايقتنا؟

لحسن الحظ، فقد وصل الجميع بسلام إلى موقف المستشفى. وذلك أن ثمة مساءات كهذا يكون فيها الحظ إلى جانبنا.

شريطة أن يستمر الحال كذلك.

*

عندما ولجت إيفي وتيريزا إلى البهو، كان الدكتور كرايج دافيس ينتظرهما شخصياً في غرفة الاستقبال.

1- ينبغي إجراء العملية على وجه السرعة، أعلن لهما وهو يرافقهما داخل المصعد.

لم تكن وكالة الطب الحيوي التي تشرف على توزيع الأعضاء قد تواصلت مع المستشفى إلا في وقت متأخر من المساء. في الواقع، بدأ كل شيء، في منتصف ما بعد الظهر عندما عمل زوجان حادثاً بالدراجة النارية على طريق أبل فالاي. وكان كل منهما يرتدي خوذة ولم يكونا يقودان بسرعة. وبينما لم يصب الرجل بأي خدش تقريباً، لم تقم المرأة من موضعها. أصيبت برضة في الجمجمة. وقد أحالتها النجدة إلى غرفة الإنعاش في مستشفى سان برد برناردينو، حيث تم القيام بكل ما يلزم لإنقاذ حياتها. لكن الوقت كان قد فات. ومع أن أعراض الموت الدماغي حلت سريعاً، فقد لزم بعض الوقت لإقناع عائلتها بالتبرع بالعضو. كانوا لا يزالون يمنون النفس بحدوث معجزة. وقد تبرع طبيب متدرب كي يشرح للزوج أنه في حالة الموت السريري فإن كل وظائف الأعصاب تنهار. وفيما الآخر يستمع لخطبته، لم يكن يصغي إليه. كان يحتوي يد زوجته في يده. كانت لا تزال تتنفس، حتى لو كان ذلك بأسلوب اصطناعي. كانت بشرتها لا تزال دافئة ولا يزال بالإمكان سماع نبض قلبها. مع ذلك لم يعد يشكل ذلك حياة، بل وهم حياة.

كان الزوج قد انتهى قبل العاشرة إلى التخلي عن موقفه حين فهم أن الطريقة الوحيدة لإدامة حياة زوجته تكمن ربما في قبول ما من شأنه جعل زوجته تحيا من خلال الآخرين. وفي الحال قام الفريق الطبي بأخذ عينة من القلب والرئتين والبنكرياس والأمعاء، بهدف إحالتها نحو جهات مختلفة: لوس أنجلوس، سان دياغو، سانتا باربارا...

بالنسبة إلى الكبد، فقد قاموا بحفظه في علبة فولاذية تغوص في خزان تبريد، حيث من شأن الكتل الجليدية المكومة أن تحافظ عليه في طقس ملائم. وتم نقل العلبة المجمدة على متن طائرة هيليكوبتر إلى لوس أنجلوس. وكانت تيريزا هي الأولى على قائمة الانتظار. كانت تنتظر عملية الزرع هاته منذ ما يربو على أربعة وعشرين شهراً. عدم كفاية الأعضاء، لكن أيضاً ندرة فئة دمها الخاصة، كانا قد أطالا مدة الانتظار. إلى ذلك، بمرور شهر أو شهرين كان المرض قد أحكم سيطرته عليها.

- فرغت غرفة عمليات للتو، أوضح الدكتور كرايج دافيس. سيكون بوسعنا أن نجري لك عملية خلال ساعة من الآن. بالضبط بمجرد ما ننتهي من الفحص البيولوجي.

- أود أن تكون ابنتي بجانبي، طلبت تيريزا.

- بوسعها البقاء بجوارك إلى أن ننزلك إلى غرفة العمليات، أبدى الطبيب موافقته وهو يقود مريضته إلى غرفة فردية.

ثم تتابعت الترتيبات: أخذ عينة الدم من قبل ممرضة، التفاهم مع طبيب التخدير الذي أكد لها: «ستحسين بنفسك كما لو ولدت من جديد» التعقيم ما قبل العملية الجراحية بالبيتادين، ثم الانتظار.

خلال بضعة دقائق كانت إيفي فوق السحب. شعورها بالضيق لفقدان أمها والذي يقلص بطنها منذ سنوات كان يتبدد شيئاً فشيئاً.

وكانت تحس على نحو فيزيقي بشيء ما يسترخي فيها. كانت تريد أن تصدق، هذا المساء، أن كل شيء سيمضى كما تشاء له أن يمضي. لقد عولت دائماً على عملية الزرع هذه. منذ أشهر وهي ترتاد باهتمام الجلسات ومواقع الويب في سبيل أن تفهم جيداً طبيعة مرض أمها. كانت تعرف أن هذه العملية هي بمثابة تدارك الحظ الأخير. بالطبع، لن تؤدي عملية الزرع إلى «القضاء» على التهاب الكبد بشكل أعجوبي، كما أن خطر أن يلوث الفيروس العضو المزروع أمر وارد، لكن نسب النجاح مرتفعة منذ زمن طويل.

في الأسابيع الأخيرة، ذهبت عدة مرات إلى كنيسة ريفيرسايد الصغيرة.

في السر.

صلت للمرة الأولى منذ زمن طويل.

ما العمل عندما لم يعد ثمة من مخرج؟

عندما كانت صغيرة، كانت تجد بعض الراحة في إقناع نفسها أن الملاك الحارس يسهر عليها. ثم مع ولوجها إلى المراهقة لم تعد تؤمن بشيء. لا بالملائكة، ولا بالله، ولا بالكرما.

منذ بعض الوقت وهي تعيد طرح بعض الأسئلة على نفسها.

غالباً ما يكون لديها الانطباع بأن شؤماً غريباً يلتصق بجلدها، كما لو أن ماضيها ومستقبلها قد تم تدوينهما في مكان ما، في كتاب المصير الكبير...

*

حتى الآن، مرت ساعة منذ زيارة طبيب التخدير.

ثم ساعة وربع.

لماذا زاد الوقت إلى هذا الحد؟

مجدداً، تحس إيفي بأن بطنها تتقلص. لم يكن يفترض بهما أن ينتظرا سوى مدة قصيرة قبل بدء العملية. عندما، عاد أخيراً الدكتور دافيس إلى الغرفة وبرفقته الممرضة، حدست الفتاة الشابة غريزياً أن الأخبار غير مطمئنة.

- لدينا نتائج تحليلاتك يا تيريزا، قال ذلك بملامح منزعجة.

نظرت إيفي بفزع إلى الطبيب الذي يلوح بورقة أمام عيني أمها.

- لقد شربت بعض الكحول مؤخراً! تشنج دافيس. أنت تعرفين أن ذلك يبطل الاتفاق! لثوان، بدت الجملة تتأرجح في الجو. أمر غير واقعي.

منكوبة، استدارت إيفي نحو أمها.

- لم أشرب شيئاً يا دكتور! أقسمت أمها مشدوهة...

- لقد أجرينا الفحوصات على عينتين مختلفتين. وفي كل مرة كانت النتيجة قاطعة. لم تحترمي العقد يا تيريزا. على الأقل ستة أشهر من التوقف الصارم عن تعاطي الكحول قبل عملية الزرع. لقد قطعت عهداً.

- لم أشرب شيئاً، دافعت تيريزا عن نفسها مجدداً.

لكن الطبيب لم يعد يصغي لها.

- نادى الشخص التالي على القائمة، أصدر توجيهاته للممرضة. لا ينبغي أن نخسر العضو!

- أنا لا أكذب! أكدت تيريزا.

لم تعد تنظر إلى كرايج دافيس هذه المرة، بل إلى إيفي. فقد كانت ابنتها هي الشخص الذي ترمي إلى إقناعه. كانت تعرف أن المعركة مع الطبيب خسرت سلفاً. علاوة على ذلك، لم تكن اقتنعت قط بقصة الزرع. كانت تحس بأنها ستموت عما قريب وعليه فقد أرادت أن تحافظ على ثقة إيفي.

- أقسم لك أنني لم أنكث العهد، حبيبتي، قالت ذلك فيما تنهض عن سريرها.

مغتاضة، تراجعت إيفي خطوتين إلى الخلف.

- هذه الجملة، وَجب عليك أن ترددينها على مسامعي مئات المرات منذ أن كنت في الثالثة، ماما...

- معك حق، لكن هذه المرة...

- لم أعد أصدقك.

- هذه المرة أقول الحق.

- لماذا أفسدت كل شيء ماما؟ سألت والدموع تسيل من عينيها.

- حبيبتي... شرعت تيريزا وهي تمد يدها.

لكن إيفي دفعتها بفظاظة.

- **إنني أكرهك!** زعقت الفتاة الشابة وهي تولي هاربة.

*

اليوم

في الطائرة

الساعة الواحدة وخمسة وأربعين دقيقة

- **إنني أكرهك!** أتمت إيفي كلامها. كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي وجهتها لأمي.

- لم تريها بعد ذلك؟ سأل مارك.

- لا. أبداً.

وقد أثرت فيه قصة الفتاة الشابة بعمق، بقي الطبيب صامتاً لبضعة ثوان. فبعد هدوء قصير، كانت عملاقة الجو تصطدم الآن بموجة

جديدة من المطبات الهوائية فتعطي الانطباع بأنها تعرضت للبرد وأن أسنانها تصطك.

- وبعد ذلك؟ استأنف مارك بعد لحظة.

- بعد ذلك ماتت.

16

إيفي
ثالث فلاش باك

لاس فيغاس

نيفادا

مقبرة مونتين فيو تتعرض للرياح والمطر.

منذ قليل، أُنزل تابوت تيريزا هاربر إلى القبر.

كان القسيس قد غادر منذ وقت طويل وهاهو المكان مقفر تقريباً. وحدهما إيفي وكارمينا حول الحفرة، وكانتا غارقتين في أفكارهما.

ضوء برق وخط السماء، وعلى الفور تبعه قصف رعد.

- سأنتظرك في السيارة، اقترحت كارمينا بينما تغادر المقبرة.

كان المطر يزداد غزارة.

باقية بمفردها، جثمت إيفي أمام القبر وراحت تذرف دموع الغضب على خديها النحيلين. لم تكن البنت الشابة قد رأت أمها ثانية منذ مهاترتهما في المستشفى قبل شهرين. بدون عملية الزرع، لم تبقَ تيريزا على قيد الحياة سوى بضعة أسابيع. بالطبع، كان السرطان والكحول والمخدرات هم قاتلوها، لكن بالقدر نفسه أيضاً، أسلوبها

في تحبيذ حرق حياتها على أن تعيشها. مع ذلك، في هذه اللحظة بالذات، لا تستطيع إيفي أن تمنع نفسها من الشعور بالإثم الذي يستولى عليها. عندما قررت أخيراً أن تعود إلى موقف السيارات، كانت ملابسها قد تبللت وكانت ترتعش وترتجف من الرأس إلى القدمين.

في الأثناء، من مكانها تحت مظلة، كانت امرأة تراقب إيفي وهي تقترب. لقد تابعت من بعيد مراسم الجنازة من دون أن تتجرأ وتشارك فيها. كان واقيها المطري الرمادي وبزتها وقصة شعرها الحديثة يعطونها هيئة واثقة، حتى إذا كانت ملامح المرض بادية على سحنتها. عندما وصلت إيفي على مقربة منها، فتحت المرأة خزانة السيارة الرمادية وأخرجت منها منشفة أسفنجية وناولتها.

- جففي نفسك وإلا ستموتين، نصحتها بصوت تتخلله لكنة إيطالية خفيفة.

مندهشة، قبلت إيفي الممسحة النظيفة والحماية المقدمة من الحواف العريضة للمظلة. وفيما تجفف وجهها، راحت تدقق في هيئة محدثتها بالتفصيل، وخلصت إلى أنها كانت أكثر أناقة من أن تكون صديقة لأمها.

- اسمي ميرديث دوليون... أوضحت المرأة أمامها.

كانت قد ترددت لبضع ثوان قبل أن تكمل جملتها:

- ... كان أنا من قتل أمك.

*

- قبل عام أظهرت الفحوصات إصابتي بالسرطان في الكبد، بدأت مريديث.

كانت المرأتان تجلسان إحداهما في مواجهة الأخرى في مقهى

هيفن المحاذي للطريق المؤدي إلى المقبرة. وكان إبريقا الشاي الساخنان يُصعدان دخاناً أمامهما.

- كان المرض قد بلغ حينها مرحلة متقدمة وعلى وجه السرعة، بدا أن عملية الزرع وحدها ستنقذني منه. لسوء حظي كنت أشكل جزء من فصيلة الدم O التي على من يحملها أن ينتظر طويلاً.

- إنها فصيلة الدم نفسها لدى أمي، أقرت إيفي.

صادقت مريديث بهزة من رأسها قبل أن تتابع:

- قبل شهرين، في مطلع المساء، اتصل بنا الدكتور دافيس الذي كنا في ما مضى، زوجي وأنا، التقينا به مراراً أثناء زيارتنا للمستشفى. لقد شرح لنا أن العضو الملائم متوافر ربما، لكن كانت هنالك مشكلة.

- مشكلة؟

- المشكلة كانت أمك، كانت تسبقني على قائمة المنتظرين...

فجأة سرت في بدن إيفي قشعريرة باردة حتى لو بقي شيء ما في أعماقها يشكل سداً يعيقها عن أن ترى في مواجهتها فظاعة الموقف.

- لقد أفهمنا الدكتور كرايج دافيس بصراحة بأننا إذا كنا على استعداد للقيام بـ «مسعى مالي» فسيتدبر هو الأمر لزحلقة أمك من برنامج المستقبلين.

متجمدة من المفاجأة، فهمت إيفي أخيراً: لقد تلاعبوا بتحليلات الدم الخاص بتيريزا لكي يدخلوا في روعها أنها كانت لا تزال تتعاطى الشراب.

يخيل إليها أنها لا تزال تسمع بوضوح توسلات أمها وهي تدافع عن نفسها:

لست كاذبة!

أقسم لك أنني لم أخلف الوعد، حبيبتي.

كلا، أمها لم تكذب، ومع ذلك ولا للحظة صادقت إيفي على كلامها.

بدوره، تغضن وجه مريديث لكنها قررت أن تذهب إلى أقصى مرحلة الصلب:

- في البداية رفضتُ: وجدت أن الموافقة على تنفيذ هذه العملية أمر مشين. لكنني كنت قد انتظرت وقتاً طويلاً، وكانت الأعضاء البشرية نادرة جداً... والحال كذلك انتهت بالقبول. في تلك المرحلة من المرض، كنت باستمرار طريحة الفراش ومقعدة من الألم، كنت ميتة أكثر مما أنا حية تقريباً. كان بول يكسب جيداً. وبعد أخذ ورد اتفق هو ودافيس على مبلغ مائتي ألف دولار، لكن بول تركني إلى آخر لحظة حرة في اتخاذ القرار، وهكذا كان الخيار الذي لا أتمناه لأحد.

للحظة تلاشت مريديث في أفكارها، كما لو كانت تعيش مجدداً بدورها تلك اللحظات القاسية.

- لعلني أردت أن أقول لك إنني فعلت ذلك من أجل أطفالي، باحت أخيراً. مع ذلك لعل تلك ليست هي الحقيقة. لقد فعلت ذلك لأنني كنت خائفة من الموت، وذلك كل شيء.

وإذ تقول مريديث ذلك فقد عبرت عن نفسها بصدق. فقد كان هذا الاعتراف على لسانها منذ العملية.

- تضعنا الحياة أحياناً في أوضاع صعبة لا نستطيع أن نتخلص منها إلا بالتخلي عن القيم التي ندافع عنها، أقرت كما لو لنفسها.

أغمضت إيفي عينيها. فسالت دمعة على امتداد خدها، لكنها لم تحاول أن تمسحها.

استأنفت مريديث حديثها لمرة أخيرة قبل أن تصل إلى مبتغاها:

- إذا كنت تريدين أن تذهبي لرؤية البوليس فسأعيد على مسامعهم ما قلته لك بالضبط وسأتحمل مسؤولياتي. الخيار يعود إليك الآن.

نهضت وغادرت الطاولة.

- اعملي ما يبدو لك أنه الصواب، نصحت قبل أن تخرج من المقهى.

*

توقفت سيارة البونتياك القديمة الخاصة بكارمينا أمام محطة الأتوبيسات. صفقت إيفي الباب وتناولت من الخزانة حقيبتها الصغيرة وحقيبة الظهر. لم يكن قد تبقى أمام الغريهوند الذاهب إلى نيويورك وقتاً طويلاً حتى يغادر. وكانت إيفي قد باعت الأغراض المهلهلة التي تنتمي إلى أمها والتي لم تكسب منها أكثر من مائتي دولار ستنفقها على ذهابها الزهيد إلى مانهاتن. فهناك يعمل من الآن فصاعداً كرايج دافيس. ولقد فتشت عنه أول الأمر في لاس فيغاس، لكن الطبيب المشبوه غادر في ما يبدو كاليفورنيا متوجهاً إلى الساحل الشرقي، وذلك بعد وفاة أمها بالضبط.

- أنت متأكدة أنك تريدين أن تغادري، سألت كارمينا فيما ترافقها إلى موقف الأوتوبيس.

- بالتأكيد.

على مدار حياتها ارتابت المكسيكية البدينة بالعواطف. وقد دأبت على أن تربي أطفالها على الشدة، وشيدت بجلد قوقعة حولها تجعلها تبدو هادئة في كل الظروف.

- انتبهي لنفسك، قالت فيما تسدد صفعة خفيفة لوجنة الفتاة الشابة، الحركة التي تشكل بالنسبة لها علامة لا تقبل الجدل على العاطفة.

- **موافقة**، أجابت إيفي وهي تصعد داخل الأوتوبيس.

لا شك في أن المرأتين كانتا تعرفان أنهما لن تريا بعضهما أبداً. ولقد ناولتها كارمينا أمتعتها. وبعثت لها إشارة أخيرة باليد. ولن تكتشف إيفي إلا متأخراً جداً الثلاثمائة دولار التي دستها المكسيكية في حقيبة ظهرها.

*

أخيراً، انطلقت الحافلة.

فيما تجلس إلى مقعدها، أسندت إيفي رأسها إلى النافذة.

كانت المرة الأولى التي تغادر فيغاس.

بعد بضعة ساعات ستكون في نيويورك.

حينئذٍ ستقوم بما تراه مناسباً.

ستقتل كرايج دافيس.

17

خسارة إيماني

أحياناً يقيم المستقبل فينا من دون أن نعلم ذلك،
وكلماتُنا التي تبدو كاذبة ترسمُ واقعاً قادماً.

مارسيل بروست

اليوم

في الطائرة

الساعة الثانية

- وماذا حدث بعد ذلك؟

رن جرس الإنذار معلناً نهاية منطقة المطبات الهوائية ومخلصاً إيفي بالرنة ذاتها من الدوار الذي غرقت فيه قصتها.

- ما الذي حدث في نيويورك؟ ألحَّ مارك. عثرت على قاتل أمك؟

- أنا...

توقفت المراهقة عن الكلام. مندهشة لكونها تركت نفسها تذهب إلى هذا الحد من الاعتراف، أخذت تقاوم الآن ميلها لإبداء مزيد من

الاستسلام. فهي لا تعرف هذا الرجل إلا منذ بضعة ساعات. فكيف أمكنها أن تحكي له خصوصيتها الأكثر حميمية، هي التي لا تمنح في العادة ثقتها لأحد؟ من خلال نظرته، حضوره، إصغائه، بدا لها أنه يقاسي تقمصاً وجدانياً مقلقاً أثار تشوشها. وقد شعرت فجأة أنها في خطر، ووجدت وسيلة لإبطال سيطرته.

- يجب علي أن أذهب إلى الحمام، تحججت.

حينئذٍ فهم مارك أنه «فقد التواصل» مع إيفي. نهض من مقعده كي يسمح للشابة أن تغادر مقعدها، وبشعور الأسف راح يراقبها وهي تبتعد.

لقد هزته قصتها وكدرته وأحالته بغتة إلى طفولته وطفولة كونور.

رمى نظرة جديدة باتجاه ابنته. وقد هدهدتها خرخرة الموتورات الأربعة، كانت تنام بقبضات مضمومة ورأس محني نحو ضوء النافذة.

استعادت الطائرة سكونها. وتوهج مصباح أخضر لافتاً انتباه المسافرين إلى أن بوسعهم من الآن فصاعداً استخدام هاتفهم المحمول. وكان هنالك جهاز إرسال جي. إس. إم. في كابينة القيادة يسمح في الواقع باستقبال مكالمات وأرسالها. اندهش مارك إذ يرى نصف الركاب وهم يرتمون على هواتفهم كي يركبوا رقم الشخص الذي سيتلقى مكالمتهم. أطلق زفرة طويلة. فخلال ثلاث سنوات اجتاز مجتمع الاتصالات ظاهرياً مستوى جديداً. وعما قريب سيزرع الناس في أبدانهم مجسة أذن ثابتة ليستمروا في التواصل في نومهم وفي حلمهم وفي الأوقات الحميمية. فهم لم يتحدثوا قط بهذه الكثافة، ولم يصغوا لبعضهم قط بهذه الندرة. مزبداً ومرغياً ضد عصره، تبين لمارك أنه يحمل معه هاتف نيكول. كان قد عثر عليه داخل معطفه و- الكائن الإنساني ليس استثناء في فعل ما يقربه بالضبط من الآخرين- وهو ما فعله بدقة قبل بضع ثوان. لم تكن لديه أي

رسائل. فقط بضع «مكالمات فائتة» آتية من الرقم المجهول نفسه. منذ مغادرته، حاول مراراً أن يتصل بامرأته في نيويورك، لكنه لم يفلح. على ما يبدو، فإن نيكول لم ترجع إلى شقتهما ولم يكن لديه أي فكرة عن المكان حيث توجد.

لقد حاول مع ذلك أن يتصل بالرقم الظاهر على الشاشة.

رنة، رنتان، ثم اشتغل المجيب الآلي:

مرحباً بكم في...

انقطعت الرسالة الصوتية من دون أن تترك لمارك الوقت للتعرف إلى هوية صاحبها.

- مارك؟

تعرف فوراً إلى صوت زوجته.

- نيكول؟ أنا معك.

- هل أنت بخير؟

- لكن أين أنت؟ أنا مجنون من القلق.

- أنا... لن أستطيع أن أتحدث معك طويلاً، حبيبي. لمس مارك توتراً شديداً وضيقاً عميقاً في صوت زوجته. وعلى الرغم من حنقه الخاص، فإن أول شيء فكر فيه أن يطمئنها على صحة ابنتها.

- أنا بجوار ليلى، هي بخير! لقد تحدثت إليَّ!

عند ذكر اسمها فتحت الطفلة عينيها وراحت تفركهما وهي تتثاءب.

- تريدين أن تحي ماما؟ اقترح مارك وهو يناولها الهاتف.

- لا، أجابته ليلى.

مندهشاً ألح مارك.

- حبيبتي، قولي بضع كلمات لأمك، هذا سيسرها. . .

- لا! كررت بلهجة قاطعة وأزاحت السماعة.

مبهوراً بقي مارك لعدة ثوان يبحلق في ابنته إلى أن سمع نيكول تخبره:

- اسمعني مارك، يجب علي أن أنهي الاتصال.

لكن الطبيب لم يكن يسمعها على هذا النحو.

- انتظري، لماذا هي لا تريد أن تتحدث معك؟

- أعرف ما حدث لليلى، اعترفت نيكول.

دوى الاعتراف مثل انفجار.

- ماذا تقولين؟ اختنق مارك.

جعله مزيج من الغضب والقنوط يشد قبضته فجأة.

- هل كنت تعرفين أنها كانت على قيد الحياة؟

- أنا آسفة، اعتذرت.

- لكن ما الذي حدث. . هي فوضى؟ هل ستقولين لي في نهاية المطاف ما الذي حدث؟

- ليس عليك أن تشعرني بالذنب.

- أوشك أن أطفح من الغم! أنفجر. خلال كل هذه السنوات رأيتني أنحدر! لقد رأيتني أنجرف وأنت تعرفين أنها حية؟

- ليس الأمر كما تظن، مارك. أنا. . .

«هذا يكفي الآن».

صوت رجل برز من الخلفية وقاطع امرأته.

- من هذا الرجل؟ سأل الطبيب.

- الأمر معقد. أنا. . .

«أغلقي السماعة يا نيكول!» أمر الصوت.

- من بجوارك؟ صرخ مارك.

- ليس الأمر كما تظن، رددت.

«أغلقي السماعة، أو ستفسدين كل شيء!»

- أحبك، أضافت ببساطة.

وذلك كان كل شيء.

*

جامداً وبنظرة ضائعة في الخواء، وجد مارك صعوبة في أن يحرك قدميه. مضت عشر دقائق منذ مكالمته مع نيكول. كان قد أعاد تكوين رقم الهاتف، لكن هذه المرة لم يثر اتصاله المجيب الآلي. كانت زوجته قد كذبت عليه بخصوص ابنتهما: كذبة بشعة، أسوأ من خيانة، أسوأ من كل شيء. للوهلة الأولى، شك مميت اقتحم روحه. هل كان يعرف حقاً المرأة التي تزوجها؟ منذ البارحة وهو يراكم الأسئلة من دون أن يحصل على إجابة.

عاد إلى باله الصحفي الذي صرفه بازدراء في المطار ومن ثم ابنته، وبديا له أنهما كانا يحذرانه بالتناوب من نيكول، لكنه لم يأخذ كلماتهما بالحسبان.

لم يعد يعرف من الآن فصاعداً ما العمل. كان يقاسي ذهنياً وفي قلبه وجسده زعزعة بالمعنيين الوجداني والفيزيقي معاً. قبل ثمانية وأربعين ساعة، كان لا يزال في الشارع، يتسكع منهكاً داخل أنفاق المدينة ولم يكن تبقى له من الحياة سوى الإفراط في الكحول. وبفرحة عثوره على ليلى، كانت لديه ذريعة للخروج من وضعه معتمداً على ذاته. كان قد أفلح للحظة في التفوق واحتواء نتائج الهذيان الكحولي لكن عالمه لمرة أخرى أيضاً انهار، وانتصاره الهش لم يقاوم ضربة القدر الجديدة.

مضطرباً حملق في يديه اللتين عادتا للارتعاش. كان مبتلاً بالعرق، يختنق، ويجب عليه أن يتحرك.

وإذ ينهض فجأة، وقعت نظرته على ابنته التي كانت نائمة. كان تنفسها بطيئاً وهادئاً، بينما يسبح وجهها في أضواء الشمس البيضاء. كان ذلك كافياً لتهدئته، ولقد فهم حينئذٍ أنها قادرة وحدها على إنقاذه. كان بحاجة إليها كما كانت هي بحاجة إليه. وبقدر ما هو باقٍ معها، فقد كان يحميها، وعلى النحو نفسه كانت تقدم له الكثير.

*

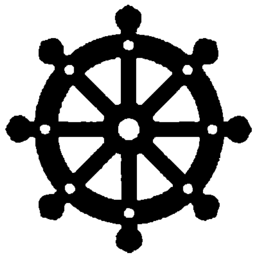
انحنت إيفي على مرحاض الحمام كي تتقيأ وجبة الإفطار الضئيلة التي التهمتها قبل ساعات. منذ الصباح، كانت تعاني من غثيان كريه لم يفتأ أن ازداد شدة خلال الرحلة. مؤخراً، وبالإضافة إلى ذلك، كانت وعكاتها الصحية تتكاثر: دوار، آلام في الرأس، طنين في الآذان... من دون الحديث عن هذه الحساسية التي ما فتئت تتفاقم شيئاً فشيئاً مفضيةً إلى إصابتها بالإنهاك.

نهضت ومسحت فمها، ثم مررت بعض الماء على وجهها. في المرآة، وجدت سحنتها بشعة. ألم هائل يضرب جبينها وتحس بنبضات دمها تضرب صدغيها. وكان جو الغرفة الصغيرة المحصور والخانق يصيبها برهاب الأمكنة الضيقة. كان عليها أن تخرج بسرعة أو يغمى عليها. في كل كسرة من الثانية، كانت عشرات الصور تتصادم داخل رأسها. ذكريات مخاوف، لحظات فرح... وأغمي عليها. بدا لها حتى أنها تسمع على مقربة منها شيئاً أشبه بالدمدمات.

كانت على وشك أن تغادر هذا المكان حين أحست في كتفها بحكة أجبرتها على أن تخمش نفسها من خلال كنزتها. بعيدة عن أن تكون قد تخلصت من الرغبة في الحك، ضاعفت حركتها الوخز الذي

سريعاً ما تحول إلى ألم. رغماً عنها تقريباً، هرشت نفسها إلى حد انفجار الدم، وفجأة أثارت جنونها هذه الحساسية المجهولة. وعندما طوت كمها، تراءت لها علامة بنفسجية خلف كتفها الأيسر.

حينئذٍ، استدارت لترى في المرآة الشكل الغريب الموشوم على بشرتها:



18

البقاء على قيد الحياة

هنالك ذكريات بالطبع، لكن أحداً ما كهربها فينا،
ووصلها برموشنا، وبمجرد أن نفكر
بها تأخذ عيوننا بالتوهج.

ماتياس مالزيو

اليوم
في الطائرة
الساعة الثانية وخمسة عشرة دقيقة

على ارتفاع أكثر من اثني عشر ألف متر، كانت الرحلة 714 تتابع طريقها نحو نيويورك، محلقة مثل طائر عملاق فوق السهوب الفسيحة.

أغلقت إيفي باب الحمام وقد أفزعها ما عاشته للتو. وكانت قطرات من العرق تتلألأ على جبينها وكان صدرها يلهث وجسدها تسري فيه الرعشات. من وشم كتفها على غفلة منها بهذه العلامة اللعينة التي تشبه على نحو غريب الرسومات التي صنعتها هذه الطفلة الصغيرة الجالسة إلى جوارها؟

اجتازت العتبة مترنحة، وشقت طريقها بصعوبة بين المضيفات اللواتي يوزعن أطباق الوجبات والمسافرين الذين يتحركون كي يخففون الضغط عن سيقانهم متفادين بذلك التهاب الشرايين أو الإصابة بانسداد الشرايين الرئوية، «الأعراض الجديدة للتميز الاقتصادي» التي كانت وسائل الإعلام تصم به الآذان على امتداد الربورتاجات.

عندما وصلت إلى صف الكراسي حيث تجلس، تسللت إلى مقعدها محاذرة أن توقظ ليلى. شكرت مارك لتصرفه اللطيف عندما احتفظ لها بطبق وجبتها.

- هل ثمة شيء لا يسير على ما يرام؟ سألها فيما ينظر إلى وجهها المرهق.

- لا، إرهاق فقط، أقرت وهي تعرف جيداً أنها لا تكذب.

- عساني أستطيع القيام بشيء ما...

- تستطيع أن تناولني حقيبة ظهري.

تناول مارك الحقيبة التي كانت قد انزلقت تحت مقعدها. لم يكن زمامها مغلقاً بإحكام وإذ يرفعها انزلق كتاب من داخلها ووقع على الأرض.

انحنى مارك لالتقاطه. كان كتاباً غير مجلد، بغلاف بالٍ وبصفحات تصلبت لكثر ما قرأت وأعيد قراءتها. مدفوعاً بالفضول لم يستطع أن يعيق نفسه من إلقاء نظرة على العنوان:

البقاء على قيد الحياة

كونور ماك كوي

رسم علامة اندهاش. فمنذ بضع سنوات كتب كونور هذا الكتاب كي يطرد أشباح ماضيه. لقد كان عملاً انتقائياً يجمع بالقدر نفسه بين

الدراسة البسيكولوجية وتدوين ذكريات طفولته. فانطلاقاً من تجربته الخاصة، وكذلك الجلسات العلاجية الأكثر درامية التي أشرف عليها، أعطى كونور لقرائه مسارات تشفيهم من مخاوفهم وتجعلهم يفهمونها ويقاومون الألم. ولما كان الكتاب صدر عن دار نشر صغيرة، وكانت طريقة تناوله للموضوع خارجة عن النماذج المتعارف عليها، فإنه لم يلق احتفاء مهماً ولا حظي بمقالات في الصحف. بفضل ما يُتداول عنه شفهياً خلص الكتاب مع ذلك إلى الالتقاء بجمهوره وحصد كثيراً من المؤيدين والمتحمسين.

أدار مارك الكتاب. في صورة الغلاف الأخير، تراءى له كونور بابتسامته الغريبة الكئيبة التي يعرفها جيداً. هذه المواجهة المرتجلة مع صورة صديقه ولدت لديه عاطفة حقيقية. لقد كان الاثنان قريبين من بعضهما. فقبل انحداره إلى جهنم، كانا يتقاسمان كل شيء. لماذا لم يتصل به لينقل إليه الخبر الخاص بليلى؟ كيف له أن لا يخطر بباله؟

- إنه كتابي المفضل؟ هل سبق لك أن قرأته؟

- لقد كتبه صديقي المفضل، اعترف الطبيب وهو يعيد إليها العمل.

- صديقك المفضل؟ هل أنت مارك الذي غالباً ما تحدث عنه؟

- نعم، لقد ترعرعنا معاً في الحي نفسه في شيكاغو.

- أعرف.

- لماذا تقولين إنه كتابك المفضل؟ أراد أن يعرف..

- لأنه ساعدني. من الحمق قول ذلك، لكن أحياناً يكون لدي الانطباع بأنه كتب لأجلي.

- إنه الإطراء الأكثر روعة بالتأكيد، حكم مارك.

- لكن لطالما سألت نفسي... بدأت إيفي.

- ماذا؟

- ما يرويه في كتابه، هل هو الحقيقة؟

- كل شيء فيه حقيقي.. أكد.

بعد صمت، استدرك:

- لكن ليس كل الحقيقة.

غضنت إيفي حاجبيها.

- ذلك يعني؟

- هنالك أشياء هامة لم يستطع كونور حكايتها.

- لماذا؟

أغرق مارك نظراته في نظرات إيفي. أحياناً يحس أنه قادر على أن يحكم على الشخص في أقل من الثانية. كان قادراً على معرفة أن بوسعه أن يثق بها.

إنها منا، أكد له صوته الداخلي.

- لماذا لم يحك كل شيء؟ ألحت إيفي.

- لأنه لم يذهب إلى السجن، أجاب مارك.

19

مارك و كونور
أول فلاش باك

تشرين الثاني/ نوفمبر 1982
ضاحية شيكاغو
مارك وكونور في العاشرة من العمر

يعد حي غرينوود، في الطرف الجنوبي من شيكاغو، مركزاً للفاقة والعنف. إذ يمتد على مدى كيلو مترات مشهد الخراب: أرصفة متهالكة، مبان مهملة، هياكل سيارات محروقة، ساحات مريبة مكسوة بالقاذورات. المحال التجارية نادرة: عدا بضعة بقالات تتخندق خلف سواتر حديدية، كان هنالك سوبرماركت واحد. بنك وحيد، لكن ما من مستشفى. حانات الشراب وحدها المزدهرة.

إنها بغداد تحت القذائف في قلب أمريكا. كل الناس في غرينوود هم تقريباً من السود. وجميعهم فقراء تقريباً. منذ وقت طويل وحتى الآن، كان كل من يتسنى له الفرار، يهرب من هذا المكان المجرد من الأمل والذي يبدو أنه يتعفن في الحال.

كان الصغير مارك هاثواي يعيش مع أبيه الذي يعمل حارساً لمدرسة عامة تابعة لحي السود. وكانت أمه قد هجرتهما عندما كان

في الثالثة. وحينما يسأل: «لماذا تركتنا ماما؟» يجيبه أبوه دونما تأخير: «لأنها لم تكن سعيدة».

كلا، فهي إن لم تكن سعيدة فلأنها كانت تعيش داخل هذه المدرسة المجهزة مثل حصن. فمن الصواب أن المكان كان يشبه منطقة عسكرية: نوافذ مسدودة، أبواب مدرعة، بوابات تفتيش معدنية ترن كل صباح على البندقيات وأصابع الأمان. فقد كان عنف العصابات ينتشر في كل مكان. وكانت ميليشيات من الآباء ورجال البوليس المتقاعدين قد شكلت لتدعيم النظام، لكن من دون جدوى. وكان كثير من الأطفال يأتون إلى المدرسة والخوف يؤرقهم. بل سبق لغالبيتهم أن شهدوا إطلاقات نار وعمليات قتل وعانوا من اضطرابات عصبية جراء الصدمات.

*

ذات شتاء، في السابعة مساء، وبينما المدرسة مقفرة، أنيرت الأضواء في أحد فصول الدور العلوي.

اتجه مارك، وكان حينها في العاشرة من عمره، نحو المكتبة الصغيرة التي تنهض بمحاذاة جدار الفصل الأخير. في الواقع، تعد «مكتبة» كلمة كبيرة لوصف الرف الخشبي الرقيق الذي تستريح عليه بضع روايات رخيصة الثمن. ككل مساء، بينما يبدأ أبوه في إفراغ بضع علب من البيرة في جوفه، يأتي هو لينهي واجباته في هذا المكان، حيث ينعم بالهدوء. ومع أن أباه كان مدمناً على الكحول إلا أنه لم يكن عدوانياً. كان من عادته فحسب، ومعه الحق في ذلك، بعد ثلاث أو أربع علب بودوايزر أن يشتم ريغن، الكونغرس، المجلس البلدي، السود، الآسيويين، اللاتينيين، امرأته السابقة، وأخيراً المجتمع بكامله، المسؤول عن البؤس والشؤم.

مرر مارك إصبعه على الروايات المصطفة على الرف إلى أن وقع على موضوع بحثه: **لقتل الطائر المحاكي**.

كان قد قرأ من قبل مائتي صفحة. ولما أثار الكتاب إعجابه، ألزم نفسه ألا يقرأ منه سوى فصل واحد كل مساء، وذلك لكي يطيل متعته. وكان الكتاب يسرد القصة الرائعة لمحام يربي بمفرده طفليه في مدينة صغيرة من مدن ولاية ألباما، في حقبةِ الكساد العظيم لأعوام 1930. حتى ذلك الحين، عاش الرجل حياة وادعة إلى أن جاء اليوم، حيث سيفوض نفسه للترافع عن رجل أسود اتُّهم ظلماً باغتصاب امرأة بيضاء. ورغم الأحكام المسبقة لمواطنيه وتعصبهم، سيحاول المحامي أن يفجر الحقيقة.

جلس مارك إلى منضدة القراءة، وأخرج سندويتشاً بمربى الفول السوداني من كيس ورقي، وانهمك في قراءة الكتاب الذي يمنحه بعض العزاء والأمل بأن الذكاء والنزاهة بوسعهما أحياناً أن ينتصرا على القسوة والحماقة. **الذكاء**... منذ وقت، فهم أن الذكاء لا ينقصه حتى لو كانت علاماته المدرسية تبلغ المتوسط بالكاد. ينبغي القول إن زملاءه في الفصل، لا يحبون أكثر من اللازم الطلاب المتفوقين إلى حد يقومون معه بصورة منتظمة بكسر أشداقهم من باب التسرية عن النفس. والحال كذلك، فقد كان عليه أن يقوم بمواراة قدراته وبالتظاهر بالانقياد للقطيع وبتثقيف نفسه بنفسه.

فجأة، وفي صمت قاعة الدرس، سمع ضوضاء صماء تنبعث من مكان ما. رفع رأسه قلقاً. قنوات التصريف؟ فأر؟ تبين له أن الضوضاء كانت تصدر من المخزن، حيث اعتاد المعلم أن يرص أدوات التلوين والرسم. موزعاً بين الخوف والفضول، تردد مارك لبضع لحظات قبل أن يقرر أن يسحب مزلاج الباب، فوقع نظره على صبي في عمره، وكان يتمدد في عمق الخزانة. والريبة بادية على وجهه، خرج الأخير

من ثقبه وهرول صوب المخرج. وذلك أن الخوف في هذه المدينة كان منتشراً في كل مكان، وكان اللكم يسبق الكلام. مع ذلك حين وصل إلى قرب الباب، استدار وللحظة تبادل الطفلان نظرات الدهشة.

- ماذا تفعل هنا؟ سأل مارك.

حتى إن لم يكن قد تحدث إليه، فقد كان يعرف من النظر الصبي الآخر: تلميذ غريب ومتوحد وبملامح فوق أرضية. ويعتقد حتى أنه يعرف أن اسمه كونور.

- كنت نائماً، أجاب الأخير.

بدا بمظهره الناحل وشعره المشتعل، وملابسه الأصغر من مقاسه بكثير...

وبينما يتأهب لمغادرة الحجرة، سأله مارك:

- هل أنت جائع؟

على الدوام، كان هذا النوع من المبادرات يجعل مارك يستشعر غريزياً الاهتمام بالآخر.

- بعض الشيء، أقر كونور ثم صمت.

في الواقع، لم يكن قد ابتلع شيئاً منذ الصباح. وكانت آخر عائلة مستضيفة تخضعه لحياة قاسية، حيث الاحتقارات والحرمانات هي القاعدة المزعومة لـ «تعليمه الحياة». لكن، ما عدا الحياة، كان يعرفه الآن. إذ كان قد أهمل من قبل أبويه منذ ولادته، وتنقل من عائلة إلى أخرى. وفي الأثناء، عرف كل شيء وقاسى من كل شيء. لكن الإهانات كانت تنزلق عليه من دون أن تصيبه. وكان قد اعتاد، لحماية نفسه، أن يلجأ إلى عالمه الداخلي الذي يمتلك وحده مفتاحه.

- أمسك، اقترح مارك وهو يناوله نصف سندويتشه.

مشوشاً، تردد كونور للحظة. لم يستطع قط أن يعتمد إلا على نفسه. من فرط حرمانه من الحب والعطف، تعلم الارتياب من كل شيء.

والحال كذلك، فقد أغرق نظرته في مارك وحينئذٍ حدث شيء ما: تعارف أخرس، وعد بمحبة. استحوذ كونور على نصف السندويتش وجلس إلى جوار مارك بمحاذاة الجدار.

على مدى لحظة، صارا طفلين مثل الآخرين.

*

1982، 1983، 1984

في الحياة، وفي الموت...

من الآن فصاعداً، كان مارك وكونور يلتقيان في الفصل نفسه. وبينما كانت الفوضى والمخدرات والسيارات المحترقة والعصابات التي تقتل بعضها والمسدسات التي تنتقل من يد إلى يد هي الظواهر السائدة في الخارج، كانا قد خلقا ملاذاً آمناً صغيراً، حيث لم يعد الخوف يقيم في المعدة. وعلى مدار أسابيع، أشهر، تعلما أن يتعرفا إلى بعضهما وأن يمنحا بعضهما الثقة.

وبينما اتسم مارك بروح المبادرة والمثابرة والتعاطف، فقد كان الأكثر هشاشة وتأثراً.

بالمقابل، كان كونور هادئاً، متأملاً، لكن أيضاً شديد التكتم ومعذباً الآن بالبحث عن المطلق.

ولقد قررا، كلاهما، أن يتوحدا بسوء الطالع.

كانا معاً ينجزان واجباتهما ويقرآن كتباً ويستمعان للموسيقى، وغالباً ما يفاجئهما الضحك معاً.

للمرة الأولى في حياتهما، يكتشفان أن الحياة ليست سوى ألم أو وحشة.

للمرة الأولى في وجودهما، يتبين أن العلاقات الإنسانية لا تتشكل من دون قوة.

وسيجد كل منهما في الآخر الأمن العاطفي، الثقة والقوة.

الثقة بمقدرتنا المستمرة على الاعتماد على شخص ما، مهما حدث.

القوة في أن لا ندع أنفسنا ندمر أبداً.

*

شباط/ فبراير 1984

العاشرة صباحاً في شيكاغو. في مثل هذا الوقت، تبدأ السماء في التحول إلى الزرقة. وكما يحدث غالباً، كان البرد هو ما يوقظ كونور. وكان ينام في صالة الطعام، على مرتبة موضوعة على مستوى الأرض، من دون أغطية. ينهض ويذهب إلى المطبخ. يغسل وجهه في الحوض ويغادر الشقة قبل أن يستيقظ الآخرون. المدينة باردة كالكريستال. للذهاب إلى المدرسة، يوجب المنطق أن نأخذ المترو الهوائي الذي يمر أسفل البيت. لكن المحطة أغلقت على أمل الحد من الجرائم. وتلك واحدة من خصوصيات غرينوود، حيث الأوتوبيسات لم تعد تسير من دون مرافقة من رجال الشرطة. والحال كذلك، كان كونور يجوب الشوارع على الأقدام، ملتقطاً في طريقه علب الألمنيوم الخاوية التي يعيد بيعها فيما بعد مقابل عشرة سنتات. في المساء، برفقة صبيان آخرين، يحدث له أحياناً أن يذهب كي يتسكع حول محطات الخدمة في الجانب الجنوبي مقترحاً على الزبائن

أن يقوم بصب البنزين وتلميع سياراتهم وأن يمسح زجاجاتها الأمامية مقابل بعض الدولارات.

بمرور الوقت تعلم أن يتعرف إلى شؤون تسيير الحي وعلى عنفه وجوره وقواعده السرية. لكن بوسع المرء أن يتعرف إلى شيء من دون أن يعتاد عليه أبداً.

حين يصل إلى الشارع 61، تكون الشمس قد بزغت وراحت تصب أشعتها على هايدي بارك. يا له من مكان غريب. فبينما نحن في الغيتو، تكون جامعة شيكاغو المهابة هنا، على مقربة منا، بسنواتها الدراسية التي تكلف ثلاثين ألف دولاراً، وتلاميذها المنحدرين من بين العائلات الأكثر ثراء. الغيتو والجامعة. العالم الثالث و«المحفل العلمي». تفصلهما فقط حزمة من الأسلاك...

في كل مرة يجتاز فيها كونور هذا الشارع، يحدق باتجاه الغرب، باتجاه الحرم الجامعي. لماذا الحياة في هذا الجانب مختلفة جداً عنها في الآخر؟ طافية جداً بالنسبة إلى بعضهم، صعبة جدا بالنسبة إلى الآخر؟ هل ثمة معنى لكل ذلك؟ هل ثمة منطق مهما كان نوعه، أم أن هنالك إلاهاً يسعى لاختبارنا؟

لم يعرف كونور الشيء الكثير عن ذلك. ويقينه الوحيد هو أن لديه الإرادة للانتقال من «الجانب الآخر». ذات يوم، سيغادر بصحبة مارك ذلك الحي.

من أجل الذهاب أين؟

ومن أجل عمل ماذا؟

كانت الإجابة لا تزال غامضة، لكن تبرز الآن بداية إجابة: من أجل مساعدة الناس أمثاله.

*

آب/ أغسطس 1986
مارك وكونور في الرابعة عشرة من العمر

- عشرين نقطة لكل طرف.

على ساحة كرة سلة تصليها الحرارة، كان مارك وكونور، بجذوع عارية وتتلألأ بالعرق، يخوضان مباراة ضارية. وعلى الأرض، تنتصب مكبرات صوت تبث **الحياة في أمريكا**، عمل جيمس براون الأخير. كانت الكرة في يد كونور الآن. حاول رمية كرة صعبة. تصطدم هذه بالحلقة الدائرية وتلبث قليلاً، لكنها لا تعود إليه. يستولى مارك عليها وبرمية أكروباتيكية يحقق النصر قبل أن يشرع في رقصة سيو . . . لكي يغيض رفيقه.

- تركتك تربح! يزعم كونور.

- هذا هو الأمر! هل رأيت الضربة الساحقة، على غرار ضربات جونسون الأعجوبي؟

منهكا القوى، جلس الصبيان جنباً إلى جنب وظهراهما إلى السياج. بينما راحت قنينة كوكا كولا فاترة بسبب الشمس تنتقل من يد إلى يد.

بقيا صامتين للحظة، ثم انخرطا في النقاش حول موضوعهما الأثير: كيف لهما أن ينجحا في مغادرة الغيتو؟

منذ بعض الوقت، صار هذا الأمر هوس بالنسبة إليهما. في الجانب الجنوبي، ما من مستقبل، وما من أفق. الطموح الوحيد الصادق هو أن تبقى على قيد الحياة أو أن تغادر.

كان مارك وكونور يحلمان بالحصول على منحة للالتحاق بإحدى كليات داون تاون. وكانت علاماتهما عالية، لكن ليس بالقدر الكافي لغض الطرف عن السمعة البائسة لمدرستهما.

سريعاً ما فهما أن الحل لا يمكنه أن يأتي إلا منهما بالذات وأنه يجب عدم انتظار شيء من المؤسسات. لكن لكي يتمكنا من المغادرة، يلزمهما بعض النقود. . الكثير من النقود. . والنشاط الوحيد الذي يسمح بالحصول على بعض منها هو الاتجار بالمخدرات.

كانت تجارة المخدرات تنتشر في كل مكان في الحي. وكان كل شيء يعتمد عليها: السلطة، والمال والأعمال، والعلاقات الاجتماعية. لم تكن تستثني أحداً. فكل شخص كان لديه على الأقل أب، صديق، زوجة أو زوج، مستهلك أو بائع. وكانت المخدرات تجلب معها فرسان سفر الرؤيا الأربعة: العنف، والخوف، والمرض، والموت. وكان بعض رجال الشرطة يشاركون بشكل نشط في الاتجار بها محتفظين بجزء من الجرعات التي تمت مصادرتها من أجل استهلاكهم الشخصي، أو من أجل إعادة بيعها.

ولقد كان مارك وكونور يعرفان أن البائع الماهر بوسعه أن يجني بضعة آلاف من الدولارات أسبوعياً. عدد من الزملاء المحيطين بهما تخلوا عن المجيء إلى المدرسة مفضلين الالتحاق بإحدى العصابات والمشاركة في تجارة مربحة. والحال كذلك، كان من المحتم أن تتبرعم الفكرة في روحهما:

- لماذا لا نعمل بالمثل؟ اقترح مارك.

- بالمثل من ماذا؟ سأل كونور مغضناً حواجبه.

- أنت تعرف جيداً ما أود أن أقوله لك. إننا ذكيان وحاذقان وبوسعنا أن نستفيد من النظام. فقد اقترح علينا جارغو في ما مضى أن نعمل معه. هل تعرف كم يربح في الأسبوع؟

غضب كونور:

- لست أرغب في أن أحشر أنفي في تجارة المخدرات.

- أحدثك عن البيع لا عن الاستهلاك. إذا تدبرنا أمرنا جيداً سيكون بوسعنا، لعامين، أن نضع جانباً هَم كيف سنمول دروسنا. ويعد ذلك مبرراً وجيهاً.

- لا أظنها فكرة حسنة.

- لن نكون أول من يقوم بذلك! هل تعرف ما الذي كان يفعله الأب كيندي خلال حقبة حظر المخدرات؟ يقوم باستيراد الكحول بطرق غير شرعية. بهذه الطريقة كون ثروته. بفضل ذلك صار ابنه رئيساً وبفضل ذلك صارت لدينا حقوق مدنية!

- أنت تخلط كل شيء!

جاء دور مارك ليحتد:

- جد لنا وسيلة أخرى للخروج مما نحن فيه، إذاً! هل من خيار آخر يمكننا من مواصلة دروسنا؟ إن لم نغادر من هنا فسنكون خلال عشر سنوات في المقبرة أو في السجن!

- لا يوجد لدي أي حل سحري، اعترف كونور، لكن إذا تخلينا عن...

فجأة تردد صوته وقد سيطر عليه الحذر. ابتلع ريقه وأكمل عبارته وهو ينظر في عيني صديقه.

- ... إذا تخلينا عن قيمنا، نكون قد تخلينا عن كل شيء.

أراد مارك أن يجيب بشيء ما، لكن عوضاً عن ذلك شد قبضاته واستدار نحو السياج وسدد له بكل قواه لكمة.

مفعماً بالسعار والعار، راح يؤنب نفسه لأنه سمح لهذه الفكرة أن تخطر بباله.

كابحاً ضيقه، وضع كونور يده على كتفه.

- خلاص، طمأنه بكل ما لديه من ثقة، سترى أننا ذات يوم

سنكون محظوظين. لا أعرف كيف، لكنني أقسم لك إننا سنخلص أنفسنا من هذا الوضع.

*

13 تشرين الأول/ أكتوبر 1987

السابعة وستة وثلاثين دقيقة مساء

بينما يجلس القرفصاء وكتاب على ركبتيه، راح كونور يغطي أذنيه بكفيه محاولاً منع الضوضاء التي تحيط به من إزعاجه. لكن لا شيء يمكن عمله إزاء هذه الضوضاء التي تجعل التركيز مستحيلاً! كانت هنالك ضوضاء عارمة: تلفزيون في عمق صالون، حيث لا وجود لأحد ليس ليستمع فحسب، ولكن لا وجود لأحد بالمطلق. موسيقى في الغرف، صرخات أطفال يتعاركون ويتبادلون الشتائم. ما من غرفة خاصة لعمل الواجبات. ما من ركن هادئ. الفصل الدراسي الذي كان يستخدمه مع مارك بعد انتهاء الدوام المدرسي صار من الآن فصاعداً متعذراً عليهما، منذ أن وضع حارس ليل متعصب في رأسه أن يطردهما منه.

مغتاظاً، غادر كونور الشقة صافقاً الباب وراءه. وصل إلى السلم، غير أنه لم يلبث فيه. إنه يعرف أن المكان منطقة يرتادها بائعو المخدرات. أخيراً، وجد نفسه في المكان المخصص لصناديق القمامة، حيث تصطف عدة حاويات معدنية. المكان معتم وبارد. راح يتفحص كل حاوية على حدة، منتهياً، بعد أن أعيته الحيلة إلى العثور على ملجأ بمحاذاة إحداها، وكانت خاوية ولا تفوح منها الرائحة الكريهة بكثافة. كاتماً أنفاسه، فتح كتابه وأخرج أقلامه من جيبه. ثمة شيء يبعث على اليأس في أن تضطر إلى عمل الواجب في وسط صناديق القمامة، بيد أنه كان قد أقسم بأن يكافح من دون هوادة

لكي يتمكن من مواصلة دروسه. من يدري، فربما انتهى الحظ، ذات يوم، بأن يلتفت. . .

سريعاً ما ترك نفسه ينهمك في الكتاب الذي نصحه به أحد أساتذته: القصة الشعبية للولايات المتحدة لمؤلفه هاوارد زين. عبارة عن بانوراما مشوقة لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية انطلاقاً من شهادات سكان تعرضوا للاضطهاد: هنود حمر، عبيد، هاربون من حرب الانفصال، عمال نسيج.

أسلوب لإظهار أن التاريخ كما تم عيشه من قبل الشعب يختلف غالباً عن النسخة الرسمية التي تقدمها المناهج المدرسية.

مستغرقاً في المطالعة، لم يسمع كونور الخطوات التي تقترب. عندما رفع رأسه، وجد نفسه محاطاً برجلين لا يعرفهما حق المعرفة: رئيسان صغيران لعصابة مخدرات في الحي يحدقان به متهكمين:

- **هذا أنت، أيها الماصة، هل لنا أن نتقلب معاً في صناديق القمامة؟**

نهض كونور بوثبة واحدة محاولاً الهرب، لكن الوقت كان قد تأخر جداً. كان الهمجيان قد رفعاه وألقيا به داخل الحاوية.

- **هل تعرف ما نفعل نحن بالقمامة؟**

سأل صوت من مكان أعلى منه.

حاول الصبي أن يقف على قدميه ويرفع يده إلى أنفه. كان الدم يغطي ملابسه.

- **إننا نضرم النار فيها،** صرخ بائع المخدرات.

رفع كونور رأسه نحو المعتدين ليتسنى له التأكد أن أحدهما يمسك بيده صفيحة بنزين. لم يسعفه الوقت حتى ليصرخ، لأنه كان قد تلقى سلفاً رشة من البترول على الجذع والساقين.

- **هل تريد أعواد ثقاب؟** اقترح أحد الرجلين مشعلاً عود ثقاب.

مرتعباً أراد كونور أن يصدق أنهما لا يسعيان إلا لإخافته، مع علمه أنه، بالنسبة إلى هذا النوع من السفاحين، فإن الحياة الإنسانية ليس لها أي قيمة.

وبالفعل، بلغه عود الثقاب من الأعلى مباشرة فاشتعل البنزين في الحال. رأى كونور جسده يشتعل مثل فتيل فيما يرتد غطاء الصندوق عليه ببطء.

أحس بالاختناق، فراح يتخبط محاولاً تخليص نفسه من هذا القفص المعدني.

أخيراً، انقلبت الحاوية من تلقاء ذاتها وقذفت به خارجها. لكن ألسنة اللهب ظلت تلتهم جسده.

مغموراً بالألم، راح يركض في كل الاتجاهات، وصل إلى داخل فناء عمارة وراح يتدحرج كي يضع نهاية لهذا الحريق.

شيئاً فشيئاً غام بصره.

التفت إليه الحظ، لكن ليس في الاتجاه الذي كان يرجوه.

في أقل من ثانية، فهم أن حياته انقلبت رأساً على عقب وأن لا شيء سيكون على سابق عهده أبداً.

ثم انزلق في غيبوبة.

كان في الخامسة عشرة. يريد فقط أن ينجز واجبات..

20

مارك و كونور
ثاني فلاش باك

13 تشرين الأول/ أكتوبر 1987
التاسعة وثمانية عشرة دقيقة

بكل النيران الصادحة، حطت عربة الإسعاف في موقف الطوارئ التابع لمستشفى بريسبيتيريان شيكاغو. هامداً ومضطجعاً على نقالة، غسل كونور للتو بالمياه الفاترة لتهدئة حروقه. كانت حواشي ملابسه تلتصق ببشرته وتستلزم مخدراً موضعياً لكي يتسنى انتزاعها. بعد أن تم تزويده بأنابيب التنفس الصناعي، حقنه المسعفون بأنبوبة مغذية واتجهوا به إلى جناح الحروق الخطيرة، حيث سيوضع تحت عناية الدكتورة لورينا ماك كورميك.

كانت هي من قام بالتشخيص الأولي: خمسون بالمائة من جسده تعرض للإصابة: الذراعان، الساقان، السطح الأمامي للقفص الصدري، كل هذه الأعضاء لم تعد سوى تقرحات لا تطاق. أسفل العنق واليد اليمنى أصيبا أيضاً. وكانت بعض هذه الحروق عميقة وتستدعي تشخيصاً عاجلاً. لكن وجهه نجا بأعجوبة.

ولقد وضعت لورينا وفريقها الطبي كونور تحت العناية التنفسية

وفي غيبوبة مصطنعة قبل البدء في العلاجات الموضعية على أساس الحمامات المعقمة والمرهم المضاد للبكتيريا. ثم غطيت الحروق بكمادات معقمة سيتم باستمرار استبدالها على مدار الليل من أجل المحافظة على درجة قصوى من الرطوبة والتطهير.

*

وقد تحول إلى مومياء مزخرفة بالحقن والشرائح الخشبية، أراح كونور عينيه على سبات المستشفى. من جانب السرير، نظرت لورينا ماك كورميك إليه بصمت. هذا الصبي في سن يمكِنه أن يكون ابنها.

مع أن نوبتها كانت قد انتهت منذ وقت طويل، إلا أنها لم تستطع أن تحزم أمرها وتغادر الغرفة. لأن العالم سيبدو لها حينئذٍ عدوانياً أكثر فأكثر، ومجرداً من الإنسانية وبربرياً. هي الآن في الرابعة والأربعين وتعرف أنها لن تصبح أماً بالتأكيد. يكمن الخطأ في مسارها المهني وفي اللقاءات الغرامية التي لم تقم بها، لكن أيضاً في هذا الخوف الذي لم يتسن لها التغلب عليه قط: الخوف من أن لا تكون جديرة بحماية طفل في عالم صار مجنوناً.

كانت ضائعة في أفكارها، عندما انفتح مصراعا الباب وأسفرا عن مراهق يتبعه موظف أمن.

- دعيني أراه، إنه صديقي! صرخ مارك بينما كان حارس الليل، وهو عملاق أسود ضخم يزن ثلاث أضعاف مارك، يمسك به من رقبته.

تدخلت لورينا وأقنعت الحارس بأن يفلت الصبي.

- إنه صديقي! كرر مارك بينما يتقدم باتجاه سرير كونور.

- أين هما أبواه؟ سألت لورينا. هل تعرفهما؟

- ليس لديه آباء.

اقتربت لورينا من مارك وأوضحت:

- أنا الدكتورة ماك كورميك. أنا من اعتنى برفيقك.

- هل سيموت؟ سأل مارك والدموع في عينيه.

اقتربت لورينا أكثر ورأت صلاة في نظرة المراهق.

- هل سيموت؟ كرر مارك. أخبريني الحقيقة إذا سمحت.

- حالته حرجة... اعترفت لورينا.

تركت بضعة ثوان تمر ثم استدركت:

- ... لكن ربما يكون محظوظاً.

بحركة من يدها دعت مارك إلى الجلوس على كرسي.

- تريد الحقيقة؟ ها هي إذاً: صديقك احترق أكثر من نصف جسده. لمدة يومين سنبقيه داخل غيبوبة اصطناعية. ذلك يعني أنه سيظل نائماً ولن يشعر بالألم. إنه شاب وفي صحة جيدة كما أنه لم يصب بحروق تنفسية ولم يستنشق غازات سامة. هذه هي الأخبار السعيدة.

- والسيئة؟

- المشكلة أن جروحه تنذر بالتلوث. فعندما تصاب البشرة بحروق، تتوقف عن حمايتنا من البكتيريا وحينئذٍ لا يعود بدننا يملك الوسائل للدفاع عن نفسه ضد الهجمات الكثيفة للميكروبات. هذه المخاطر المترتبة على ما حصل لصديقك: إما تفاقم جروحه، أو تصيبه بتلوث في الدم. إنه...

- ... تلوث في الدم، أعرف، أكمل مارك.

- إذاً، يجب عليه أن يتذرع بالصبر.. وأن تدعو الله كي يمر كل شيء بسلام.

- لا أعتقد بالله، صرح مارك. هل تؤمنين به، أنت؟

نظرت إليه لورينا وقد أصابها الإحباط.

- أنا... لم أعد أعرف.
- بك أنت أريد أن أعتقد، قرر مارك. أنقذيه، أرجوك.

*

في رأس كونور
بين الحياة...

... والموت

أنا أطير.
لا، أنا أسقط.
سقوط حر باتجاه السماء التي تمتد إلى ما لا نهاية.
خفيف أنا. أحلق. أنزلق على بساط مبطن بالقطن. أنا أسبح
في حمام من الضوء.
أنا بخير.
أرى كل شيء. أفهم كل شيء.
كل شيء كتب سلفاً.
كل شيء له معنى: الخير، الشر، الألم...
أنا بخير.
لكنني أعرف أن ذلك لن يستمر.
وأعرف أنني سأنسى كل شيء.

*

15 تشرين الأول/ أكتوبر 1987

كانت المرحلة الحرجة للساعات الأولى قد انقضت الآن. وكانت لورينا تقوم بنفسها على وجه السرعة بانتزاع الأنسجة المتآكلة بحيث بدت بشرة كونور كما لو أزيلت. وعَوَض نسيج محبب وكرتوني

المناطق الدامية. وكان لا يزال من الصعب تقويم عمق الجروح على نحو موثوق. بالنسبة إلى اللحظة الراهنة، فقد كانت حالته السريرية مستقرة. لكن الأخطار التلوثية والتنفسية لا تزال مهمة.

بمبضعها، حرصت لورينا من ثم على عمل شقوق تصريف على سطح القفص الصدري والعنق، من أجل إزالة الضغط عن الدورة الدموية الموضعية وتفادي تعميق الحروق. ثم قطعت ما يساوي اثنين سنتمتر مربع من بشرة أسفل مؤخرة كونور. وكانت ستقوم بإرسال هذه العينة إلى مختبر بوستون الذي اكتشف منذ عامين منهجاً يسمح بزرع الخلايا انطلاقاً من جزء صغير من البشرة. كانت التقنية لا تزال في بدايتها لكنها كانت عازمة على المخاطرة بكل شيء لكي تنجح. حتى لو كانت تعرف أن المعالجة تتطلب سنوات وأن النتائج تبقى مهمة.

أخيراً، قررت أن تخفض جرعات العَقارات المسكنة لكي يستعيد كونور الوعي تدريجياً.

*

في رأس كونور

بين الموت. . .

. . . والحياة

مازلت أطير، لكن بأقل سرعة، بأقل قوة.

شيئاً فشيئاً يصير جسدي ثقيلاً، كما لو كان من الرصاص.

إنني أغادر الأعالي، كي استعيد إحساساتي الإنسانية.

مجدداً، أشعر بالخوف. من الألم. من الموت.

من حولي، السحب تفقد بياضها كي تتحول إلى بخار أرجواني، حارق وسام.

أشعر بالألم في كل جزء من جسدي. إنني أتلظى.
الآن كل شيء أحمر، كل شيء حمم بركانية، كل شيء منصهر.
كل شيء حزين.
نهاية الرحلة. أفتح عيني و...

*

16 تشرين الأول/ أكتوبر 1987

عندما فتح كونور عينيه وجد نفسه داخل الدفيئة الفسيحة والساطعة لقسم الجروح الخطيرة. كانت ضوضاء صماء ومشوشة تطن في رأسه. حاول في البدء أن يتحرك، لكنه أدرك في الحال أن ذلك غير مسموح. حينئذٍ، أحنى رأسه كي يكتشف جسده المغلف بالضمادات. فجأة، طفت ذكرى المأساة إلى السطح وأغرقته في الفزع.

- مرحباً، صديقي، قال له مارك بانفعال.

- مرحباً كونور، حيته لورينا. كيف تحس؟

حدق فيها الصبي وفتح فمه من دون أن تكون لديه القدرة لأن يجيب.

- لا تقلق، طمأنه مارك، سنثابر على الاعتناء بك.

*

17 تشرين الأول/ أكتوبر 1987

بمساعدة ممرضة، انتزعت لورينا إحدى الضمادات التي تغطي القفص الصدري لمريضها الشاب. كان كونور هو من طلب «أن يرى»، لكن ما يراه الآن جعله يتلوى. وإذا كانت لديه في البداية ميول ليؤدي دور الرجل، فقد تلاشت هذه الميول بمجرد أن حط بنظراته على جروحه. لقد أعطته الانطباع بأنه صار وحشاً. نوع من الرجل

الفيل المتعفن. انتابته الرغبة في أن يبكي. لم يعد يرى أي مخرج. كيف له أن يشفى من هذا؟

- من الطبيعي أن تشعر بالخوف، قالت لورينا وهي تنظر في عينيه.

لا يدري كونور أي فكرة عليه أن يتبنى تجاه هذه الطبيبة الأنثى. فأحياناً ما يكون لديها جانب فظ يجعلها لا تضع أي قفازات لكلماتها. لكن مارك يبدو واثقاً بها. **إنها منا**، هكذا طمأنه صديقه حتى.

- سأوضح لك، بدأت لورينا فيما تجلس إلى جانبه. لقد قمنا بزراعة بشرة من مصدر حيواني على جروحك العميقة.

- بشرة حيوانية؟

- نعم: بشرة خنزير، إنها نوع من العمليات المتعارف عليها. دفاعاتك المناعية سترفضها، لكن خلال بعض الوقت ستفيدك كضمادات بيولوجية لتحاشي التلوث.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سنحاول أن نزرع بشرة إنسانية.

- هذه البشرة من أين ستنتزعونها؟

- من جسدك، وتسمى هذه العملية زراعة ذاتية. بواسطة مشرط سأنتزع عدة سطوح من بشرتك ومن الأماكن التي لم تحترق في جسدك. ثم سأزرعها على جروحك.

- لن تكون كافية! صرخ كونور. إنني محروق بالكامل!

- عليك أن تمنحني ثقتك، طلبت لورينا.

- كيف أمنحك ثقتي إذا لم تقولي لي الحقيقة؟

- معك حق، أقرت الطبيبة. لن تكون كافية. لهذا السبب نحن نبعث عينة من الخلايا إلى مختبر بوستون الذي سيقوم بزراعتها من

أجل الحصول على سطح أوسع من بشرتك الخاصة. هل تفهم؟

- أفهم أنني سأموت.

*

تشرين الثاني/ نوفمبر 1987

الزراعة الأولى.

ألم لا يوصف، يقاوم المسكنات. ذراع كونور الأيمن موضوع بين شرائح خشبية وعنقه رهن جهاز التجبيير.

يجيء مارك يومياً لرؤيته. يقرأ له **الكونت دي مونت كريستو**، رواية ألكساندر دوماس: الثأر الذي لا يعرف الصفح لرجل وقع ضحية اللاعدالة، وسجن خمسة عشرة عاماً.

الثأر الذي لا يعرف الصفح...

*

أعياد ميلاد العام 1987

كان كونور أهزل من أن يخيف.

هل يمكن للمرء أن يفقد خمسة عشرة كيلو غراماً في شهرين؟

شرحت له لورينا بأن الحروق الكبيرة تتعرض، رغم العناية الحرارية المهمة، لتقويض حاد يستهلك المواد العضوية لجسده ويجعلها غير قادرة على مقاومة التلوث.

يده اليمنى تعرضت لإصابة عميقة.

في 25 كانون الأول/ ديسمبر اضطروا أن يبتروا له عقلة إصبع.

يا لها من أعياد ميلاد!

*

كانون الثاني/ يناير 1988

منذ حادث الاعتداء عليه، لم يأت رجال الشرطة لاستجوابه

إلا مرة واحدة. حكى لهم كل شيء. أعطى لهم حتى الأسماء والعناوين. لكن لم يتبع ذلك شيء، بل إن مارك قام بالتحريات: بائعا المخدرات ما زالا يتسكعان داخل الحي جهاراً نهاراً، ومن دون أن يحيطا فعلتهما بالكتمان حتى.

*

في ذهن كونور، بدأت فكرة تتبرعم. فكرة الثأر الذي لا يعرف الصفح.

*

شباط/ فبراير 1988

في بعض المواضع لم تنجح الزراعة.

بقي اللحم عارياً.

يجب أن يبدأ كل شيء من جديد.

*

ذراعه الأيمن غير صالح للاستعمال، وبهذا فقد كان مجبراً أن يستخدم يده اليسرى في الكتابة.

نوعاً من التمرين، راح خلال ساعات يخط على حامل رسومات وبورتريهات.

كان يرسم الوجه نفسه دائماً. وجه يمنح السكينة.

وجه أنثوي، ينبثق من حيث لا نعلم.

امرأة لم يعرفها...

*

ربيع- صيف 1988

عمليات زراعة تتبعها عمليات أخرى، وشيئاً فشيئاً تعيد البشرة

بناء نفسها مسفرة عن شبكة من الندوب التي يجب تقليصها بمساعدة نسيج مطاطي. منذ بعض الوقت وهو يتابع دروسه عن طريق التعليم بالمراسلة المتاح اختيارياً للشباب من نزلاء المستشفيات. لم يتخل عن تثقيف نفسه. وهو الشيء الوحيد الذي يمنحه الراحة علاوة على الحضور الوفي لمارك.

*

خريف 1988

ما انفكت حروق ساقيه تجبره على البقاء مستلقياً.

مضى عام حتى الآن منذ انحداره إلى حالة من السعار المروع.

ما من يوم دون ألم.

ما من ليلة دون كوابيس.

يقين واحد: لا يخرج المرء غير متضرر من رحلة كهذه.

لا يخرج في حال أفضل.

لا يخرج أكثر قوة.

*

كانون الأول/ ديسمبر 1988

صباح عيد الميلاد.

فتحت لورينا ماك كورميك باب حجرة كونور. منذ أربعة عشر شهراً، كان اليوم هو الأول الذي يكون فيه السرير شاغراً. فليلة البارحة أحيل الصبي الشاب على مركز إعادة التأهيل في الطرف الآخر من المدينة، من دون أن تكون هي من أشرفت على خروجه.

بقيت لورينا في مكانها لعدة دقائق، جامدة في الضوء البارد والأزرق الذي يجتاح الغرفة. أحياناً حين يغادر أحد مرضاها القسم، تشعر كما لو حل بدلاً عنه خواء كبير. وتلك هي الحالة اليوم. كان

كونور قد ترك لها مغلفاً على المخدة. على الغلاف، كان قد كتب في البدء «الدكتورة ماك كورميك»، ثم شطب هذه الصيغة الوقورة وكتب ببساطة:

لورينا

وضعت المغلف في جيب بلوزتها بِنية أن تفتحه في ما بعد، حين تعود إلى بيتها.

كان درج الدولاب بجوار السرير يزخر بالأوراق. تفحصتها لورينا: عشرات الرسومات التي تمثل بإلحاح الوجه نفسه، وجه امرأة شابة لا تعرفها.

لوقت طويل، بقيت عيناها مثبتة على الرسومات.

قررت من ثم أن ترتبها داخل الملف الطبي الخاص بكونور.

ذات يوم، ربما، ستعرف عنه أكثر.

*

حزيران/ يونيو 1989

يحوز كونور شهادة تخرجه من الثانوية.

يغادر مركز إعادة التأهيل، وينضم إلى السكن الشبابي.

خلال ستة أشهر، يرتبط بجلسات العلاج الفيزيقي والمساجات كي يسترجع حركة أعضائه. عنقه وقفصه الصدري حمراوان وبنفسجيان. ولقد اضطرته الندوب المنكمشة التي كانت تعيقه عن القيام ببعض الحركات، إلى إعادة تعلم الحركات الأكثر يسراً: المشي، تناول الغذاء، الجلوس، الكتابة...

لكن الندوب الأخرى، وإن كانت غير مرئية، فظلت تجرحه مسببة له ألماً من نوع آخر.

*

منذ عام ونصف، للمرة الأولى يخرج إلى الشارع فينتابه الخوف من كل شيء: من السيارات والناس والحياة...

وكانت أدنى ضوضاء تصيبه بالقشعريرة. كل الأشياء تتابع بسرعة. كل الأشياء لا تمثل إلا نوعاً من العدوانية.

لخنق الألم، أقنع نفسه بأن ليس هنالك سوى وسيلة وحيدة: الثأر الذي لا يعرف الصفح.

*

تشرين الأول/ أكتوبر 1989

لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى عثر عليهما: كانا قد اتخذا من عمارة غير مخصصة، خلف طريق سكة الحديد، مقراً لهما. لأيام متواصلة، ظل كونور يلاحقهما مدوناً عاداتهما وجامعاً المعلومات عنهما. كانا خلال عامين قد ربحا الكثير. فلم يعودا بائعي مخدرات في منطقة ثانوية، لكن زعيمي عصابة حقيقيين يراقبان جزءاً عظيماً من تجارة الهيروين في الحي الجنوبي. وبما أنه كان من النادر أن يتنقلا بمفردهما، فقد انتظر كونور اللحظة المناسبة لبدء التصرف.

كانت اللحظة المناسبة هي المساء.

شاهد الرجلين يخرجان من البار. وتبين له حالة الثمالة التي هما عليها. في موقف السيارات، انحشرا داخل ميستونغ (Mustang) قديمة ذات لون صديء. تركهما كونور يسبقانه، مفضلاً قطع الطريق على الأقدام كي يختبر جروحه.

عندما وصل أخيراً إلى أمام العمارة الخربة، كان الوقت الثانية صباحاً. دخل إلى الصالة المعتمة، حيث كانت جميع صناديق البريد منتزعة من أماكنها. صعد السلالم المظلمة. لم يعد خائفاً. وصل إلى أمام الباب الذي بدا أنه يهتز بمقدار قوة الموسيقى المنبعثة من الجانب

الآخر. بركلة واحدة، حطم الباب - الحركة التي كررها مئات المرات أثناء برنامجه لإعادة التأهيل.

من مكان جلوسهما على كنبة مهترئة، نظر الرجلان إليه بذهول. كانا ثملين ومخدرين بالهيروين حتى النخاع. تقدم كونور داخل الحجرة. كانت شقة متهالكة تسبح في ضوء مصفر وأخضر شاحب. على صندوق توزيع البضائع التي تستخدم مائدة، كانت ترقد بضع حقن، أكياس بودرة، مسدس بمقبض فضي موضوع على محفظة مفتوحة وممتلئ بالدولارات. مد أحد رئيسي العصابة يده كي يمسك بالسلاح، لكن الوقت كان قد فات. كان كونور قد قام بشقلبة الصندوق واستولى على المسدس.

صوب المسدس نحو الرجلين متأهباً لإطلاق النار، في الوقت الذي أخذ هذان ينظران إليه هازين رأسيهما.

- حقير، لكن من تكون، أنت؟ سأل أحدهما.

- من أكون؟...

تجمد كونور في مكانه. كان قد لعب هذا المشهد مئات المرات في رأسه، لكن لم يتصور قط أن لا يعاود المعتدين حتى التعرف إليه. حشر إحدى يديه في جيب سترته وأخرج منه زوجاً من القيود اشتراهما بخمسين دولار من شرطي مرتش.

- قيدا أنفسكما إلى أنابيب التدفئة! أمرهما.

- انتظر، سنَتَنَاقَ...

سحق الدوي جملة بائع المخدرات. رفع يده إلى فخذه وتبين له أنها تنزف.

- وثقا أنفسكما، كرر كونور.

نفذ الوغدان ما طلب منهما وقيدا أنفسهما إلى أنبوب من الحديد المنصهر الذي لم يعد ينتج حرارة منذ وقت طويل.

من أنا؟

رفع سترته وفك أزرار قميصه. كان جذعه عارياً أمام من اعتديا عليه، وراح يعرض عليهما حروقه كما يحدث في طقس بدائي.

من أنا؟

في عيون الرجلين ما من أثر للفهم.

نظراتهما تلتمع بالخوف والذهول.

خرج كونور إلى الممر، وأمسك علبة البنزين التي جلبها معه وعاد إلى الحجرة.

- **من أنا؟**

كانت الأدوار الآن مقلوبة. الضحية صار جلاداً والجلاد صار ضحية. الخيّر صار الشرير، والشرير صار خيّراً.

من أنا؟ سأل نفسه فيما يرش البنزين على المعتدين السابقين.

صرخا. لكنه لم يسمع صراخهما. كانت أصوات أخرى هي التي تدوي في رأسه مثل رجع صدى.

هذا أنت أيها المصاص، هل تتدحرج داخل صناديق القمامة؟ هل تعرف ما نعمل بها، نحن؟

من أنا؟ سأل نفسه وهو يفرقع عود ثقاب. وفي اللحظة التي بدأت فيها النار بالسريان، كان يعيد التفكير بما قاله في ما مضى لمارك: إذا تخلينا عن قيمنا، تخلينا عن كل شيء.

*

الليلة نفسها

الخامسة صباحاً

توقفت سيارة ميستونغ ذات لون صدئ بجانب الرصيف، بالقرب من مدرسة عامة.

نزل كونور من السيارة والتقط حفنة حصى ورماها باتجاه نوافذ شقة الحارس.

لم تمر سوى بضعة ثوان حتى ظهر رأس مارك.

- ما الذي تعمله، يا كونور؟ هل نظرت إلى الساعة؟

- ارتدي ملابسك، يا مارك. خذ محفظتك ونقودك وأوراقك.

- لعمل ماذا؟

- لا تجادل.

بعد خمس دقائق، التحق مارك بصديقه.

- ماذا حدث؟ سأل. رأسك متسخ.

- اصعد، أمر كونور فيما يشير إلى الميستونج.

- لكن إلى من يعود هذا الصندوق؟

- بسرعة، سأشرح لك في الطريق.

استوى كونور أمام عجلة القيادة، وانطلق نحو لووب. بعد خمسة دقائق استدار نحو مارك كي يسأله:

- هل تتذكر ما كنت أقوله لك: من أنك ستمتلك ذات يوم حظاً في التحرر من هذا المكان كي تواصل دروسك؟

- بالطبع أتذكر.

- حسناً، حظك يتحقق هذا المساء، أكد فيما يناوله الحقيبة المعدنية التي استولى عليها في مسكن بائعي المخدرات. فتح مارك الحقيبة وأصدر صفيراً.

- ما هي كل هذه النقود؟!

- بها ستدفع تكاليف دروسك.

- لكن...

- اصغِ إلي، ليس لدينا الوقت الكافي، فلا تعقد الأمور.

فتش كونور جيبه، وناوله تذكرة قطار.

- سأوصلك إلى غراند سنترال. ثمة قطار يغادر إلى نيويورك في العاشرة والربع. ستحمل النقود معك ولن تضع قدميك ثانية هنا أبداً. مفهوم؟

- وأنت، متى ستلحقني؟

- إلى الأبد، أجاب كونور وهو يدلف إلى الموقف تحت الأرضي للمحطة.

*

السادسة صباحاً

جلس الصبيان جنباً إلى جنب في مقدمة السيارة الراسية في موقف مدفوع الثمن. كان كونور أنهى قصته للتو بينما كان مارك تحت الصدمة.

- عليك أن تغادر إلى نيويورك، قال كونور وهو يشاهد ساعته. القطار سيغادر.

- لكن أنت، ما الذي ستفعله؟ سأل مارك وقد جن جنونه.

- سأسلم نفسي إلى مفوضية الشرطة، قال ذلك وهو يخرج من مقصورة الميستونج.

نزل مارك بدوره واعترض طريق صديقه.

- لن أغادر بدونك!

- أوقف نواحك! اشتط كونور. أنا لن أخرج منها أبداً، لقد انتهى الأمر! تركتِ آثاراً في كل مكان. لن يستغرق رجال الشرطة ساعتين قبل أن يصلوا إلي.

- ليس أكيداً، النار تتلف كل شيء. ومن ثم، هذان الرجلان من

يأسف لهما؟ لا أحد! سيعتقد البوليس أن الحادث كان ناتج تسوية حساب بين العصابات وذلك كل شيء.

وصل الصبيان إلى رصيف المحطة. رغم أن الوقت كان لا يزال مبكراً، كان عدد كبير من المسافرين قد وصلوا سلفاً وراحوا يتزاحمون على امتداد طرقات المحطة.

- غادر، قال كونور، حظ طيب يا صديقي.

- تعال معي، صرخ مارك وهو يصعد إلى داخل القطار. كنا نقول دائماً بأننا سنغادر معاً.

أراد أن يضيف شيئاً ما، لكن طغى على صوته صفير حاد معلناً المغادرة الوشيكة للقطار.

ماكثاً على الرصيف، لم يتح كونور لصديقه أن يتابع حديثه.

- أصغِ إلي، يا مارك، عليك أن تكون قوياً. تستطيع أن تبدأ حياة جديدة، لكن بالنسبة إلي الوقت قد فات: لم أعد أملك القوة لعمل شيء، لم أعد شيئاً.

- ستتجاوز ما أنت فيه، سأساعدك! لطالما واجهنا الصعوبات معاً. بهذه الطريقة سنخرج منها!

كان مدير المحطة قد بدأ في التأكد من أن الأبواب مغلقة.

سار كونور عدة خطوات على رصيف المحطة. وفجأة، طفا إلى السطح كل الخوف المتراكم. أحس بنفسه محموماً يرتعد. في داخله، كان كل شيء مشوشاً. وكانت الأصوات تتشوه قبل أن تسمع. وعلى نحو مفاجيء، ران صمت مطبق. ترنح ثم انهار. قبل ذلك كان مارك قد وثب على الرصيف. انحنى على صديقه وحمله تحت ذراعيه، وبكل قواه سحبه إلى داخل القاطرة. بعد الصفارة الأخيرة، انطلق القطار وهو يلهث ويهتز.

*

حين غادرت القاطرة المحطة اخترقتها أشعة الصباح الأولى. نظر مارك من خلال الزجاج. كان ضوء أرجواني وبرتقالي يتسلل خلال السحاب.

لعله سيتذكر طوال حياته لون السماء، ذلك الصباح.

الصباح حيث غادرا معاً.

21

فوق السحب

إننا مثل حبات الجوز،
ينبغي لنا أن نهشَّم كي نظهر.
جبران خليل جبران

اليوم
في الطائرة
الثالثة عصراً

بعيداً.

بعيداً جداً، إلى الأسفل من الجهاز الطائر، ثمة طبقة كثيفة من السحب تحجب كامل المشهد مضاعفة على هذا النحو عزلة المركبة الضخمة والعالية عن أرض البشر.

لم يصدق مارك بأنه باح بهذا القدر من أسراره. لكن هذه الرحلة إلى طفولته كانت قد سمحت له بنسيان خيانة نيكول مؤقتاً وجعلته يشعر بالتحسن. في مكان ما، كان يشعر بأنه وهو يترك نفسه على سجيتها قد تحرر.

بعودته إلى الوراء، كان يقيس على نحو أفضل الطريق التي اجتازها. فعلى مدى خمسة عشر عاماً، انفجرت قنبلتان، الأولى في حياة صديقه، والثانية في حياته. أحداهما فشلت في تدمير كونور إلى الأبد وإن كانت حولته إلى مجرم. والأخرى -اختطاف ليلى- أغرقت مارك في عملية من التدمير الذاتي قادته إلى أبواب الموت. وفي كلتا الحالتين، لم يكن بقاؤهما على قيد الحياة قد نتج عن شيء كبير عدا الصراع وشيء من الحظ.

كانت إيفي قد أصغت لقصة مارك بشيء من الافتتان. وجدت في قصة كونور صدى لقصتها الخاصة. فعندما كان شاباً، وجب على كونور أن يواجه الأسئلة نفسها التي تطرحها على نفسها اليوم: كيف نخلص من الألم؟ هل يمثل الثأر أفضل رد على الفظاعة؟

انحنت باتجاه النافذة واختبرت عاطفة اللانهائي فيما تشاهد هذا المحيط من السحب.

حينئذٍ، أغلقت عينيها وغرقت بدورها في ذكرياتها. . .

22

إيفي
رابع فلاش باك

نيويورك
ليلة عيد الميلاد
الثانية والنصف صباحاً

كان الجو متجمداً وقارصاً. بجسد يخدره البرد، أخذت إيفي تتسكع في وسط غرينويش فيلاج. ولما لم تكن قد أكلت شيئاً منذ الصباح، فقد كانت بطنها تقرقر. وكانت عضلاتها ومفاصلها تتوجع، وتتحول كل زفرة من زفراتها إلى بخار. لقد مضى عليها ثلاثة أسابيع في نيويورك، وكانت كل مدخراتها الضئيلة قد ذابت مثل ثلج في الشمس ولم تعد تملك في الوقت الحالي دولاراً واحداً في جيبها. عند قدومها إلى هذه المدينة، وجدت لها ملجأً في فندق هارلم البائس ثم في مأوى جادة أمستردام، لكنها، هذا المساء، لم تكن تعرف أين تنام. مع ذلك، كان عليها أن تبقى عشرة أيام: الوقت اللازم لقتل كرايج دافيس. كانت قد ذهبت إلى المستشفى حيث كان يعمل قاتل أمها، لكنهم أخبروها بأن الطبيب يمضي أعياد نهاية العام لدى عائلته في أوروبا، وأن رجوعه ليس متوقعاً إلا في الأسبوع الأول من كانون

الثاني/ يناير. ليس للأمر أهمية، فإيفي ستنتظر حتى ذلك الوقت؛ Revenge is a dish best savored cold . . .

في العمارات البرجوازية التي تحيط بها، كانت احتفالات ليلة عيد الميلاد تصل نهايتها. وكانت النوافذ تمدها بنتف من حماس احتفالي: موسيقى، انفجارات ضحك. في الجادة السادسة، وقعت على ملصق إعلاني مضيء يطالب: دعوا روح نويل يفوح! ثم في مكان أبعد: هذا المساء، كل شيء ممكن! رفعت عينيها نحو السماء: العائلة، التقاليد، الحلم، كل هذه الأشياء ليس لها وجود في حياتها. بالنسبة إلى «روح نويل» المزعومة، فليست سوى مجرد حماقة تشاهد في الأفلام القديمة إلا أنها لم توجد قط. أو إنه، في هكذا حال، قد مات منذ زمن طويل مفسحاً المجال لسعار شره للاستهلاك.

مرقت أمامها بسرعة كبيرة أستون مارتين فضية وجديدة بالكامل، وتوقفت عند الإشارة الحمراء، على مبعدة عدة مترات. عندما وصلت إيفي إلى محاذاتها، رأت الحقيبة الجلدية الملقاة بلا مبالاة على مقعد الراكب، كما لاحظت غياب الإشارة الضوئية التي تدل على تفعيل نظام الإغلاق. توقفت الفتاة الشابة، ثم تراجعت بضع خطوات كي لا تلفت الانتباه لها. بينما ينحني على المقود، كان رجل في حالة يرثى لها يفرك جفونه. ترددت إيفي. لم يسبق لها أن سرقت قط، لكن الأمر يبدو لها سهلاً جداً: ليس عليها إلا أن تفتح الباب وتستولي على الحقيبة وتستدير راكضة. في سيارة تساوي ثروة كهذه، فإن الحقيبة الجلدية المكسوة بالنسيج الشهير من ماركة مونوغرام والتي تحمل الحرفين الأولين إل.إف لن تكون بضاعة مقلدة قطعاً. كانت مستعدة أن تعرض يدها للقطع على أن تعثر في داخلها على بضع مئات من الدولارات السائلة. وذلك من دون حساب رزمة النقود التي ستجنيها ثمناً للحقيبة إن هي أحسنت التصرف. ما سيسمح لها بالبقاء على قيد

الحياة لمدة أسبوعين ومن ثم إتمام انتقامها.

تناول الرجل الجالس في السيارة هاتفه النقال كي يجيب عن مكالمة. في أقل من ثانية، فتحت إيفي الباب واستولت على غنيمتها قبل أن تغادر راكضة. بعد خمسين متراً، استدارت مكشرة: اعتقدت أن مطاردها سيتخلى بسرعة. من سوء حظها أنه كان لا يزال شاباً ويركض سريعاً.

يا لك من أحمق!

كان الثلج لا يزال يتساقط ندفاً كبيرة، وكانت الأرض لزجة. عندما أدركت إيفي أنه سيتم الإمساك بها، حاولت كل شيء من أجل كل شيء مجتازة بفظاظة الشارع وسط السيارات موشكة على السقوط. لكن لا شيء حدث. عمل الرجل مثلها، وبعد ثوان ارتمى عليها وأطبقها بقوة على الأرض المكسوة بالجليد. ارتطم رأسها بالرصيف لكن الثلج امتص قوة الصدمة.

- أعيدِي هذا إلي! أمر الرجل وهو يلوي ذراعها وراء ظهرها.

*

2:37 صباحاً

- اتركني! صرخت إيفي فيما تقاوم.

استعاد الرجل حقيبته، مع ذلك ما انفك يشد ذراعها بقوة. جرها إلى تحت ضوء المصباح العمومي، ما سمح لإيفي أن تدقق فيه. كان رجلاً طويلاً أسمر، أنيق الملبس، بقوام نحيل ووجه مرهق. وكانت نظرته المعتمة وجفونه التي ترمش - تفضح انشغاله الذهني- حتى لا يسع المرء أن يصدق أنه كان هارباً من كتالوغ هيغو بوس.

قابلت هذا الرجل في مكان ما من قبل، لكن أين؟

- ما اسمك؟ سألها.

- تباً لك! شتمته.

*

2 : 40

- اصغي إلي، أنا طبيب وأستطيع أن أجد لك مأوى تمضين به ليلتك.

- تريد أن تنقذني، هذا هو الأمر؟

- أريد مساعدتك.

- أنا في غنى عن مساعدتك!

*

2 : 42

- هل أبتاع لك وجبة دافئة؟ اقترح عليها.

*

2 : 43

- أنا ذاهبة، أنا في غنى عن وجبتك.

*

3 : 01

بينما تجلس على مقعد منجد بجلد الفرو، أنهت إيفي هامبرغرها، محدقة في الوقت نفسه، من خلال الواجهة الزجاجية في الرجل الذي يدخن سيجارة. لقد زعم أنه طبيب، لكن هل ما يقوله هو الحقيقة؟ قال إنه يريد مساعدتها، لكن هل كان صادقاً؟ كانت قد تعلمت بإسراف أن ترتاب بالناس الذين كان كل شيء في تصرفهم يصيبها بالإحباط. لطالما أحبت أن تمنح تصرفهم ثقتها، بيد أنها كانت تخشى أن تصاب بخيبة أمل.

- إذاً، هذا الهامبرغر؟ سألها وقد عاد للانضمام إليها.

*

3:14

- انتظري! صرخ كي يؤخرها. لا يمكنك المغادرة هكذا. الجو بارد، وهذا سيضر بك. سأجد لك مأوى تمضين فيه ليلتك.

حدقت فيه بينما كان يقترب منها، غير أنها عادت وأشاحت برأسها من دون أن تكلف نفسها عناء الرد عليه.

- خذي على الأقل هذا، أوصاها في حين أخذ يفتش في جيبه عن بطاقة الزيارة. إذا غيرت رأيك في يوم ما...

لكن إيفي كانت تعرف أن الأمر لن يكون على هذا النحو.

*

3:45

مضت نصف ساعة منذ غادرته وهاهي تتحسر على ذلك. كانت تشعر بالبرد إلى حد أن عظامها كانت تصطك داخل جسدها الضعيف. الشقيقة -خصمها الذي لا يعرف الصفح منذ أن كانت صغيرة- انبعثت مثل ذكرى قاسية متسببة لها بالغثيان وأجبرتها على التوقف في منتصف الرصيف أكثر ضعفاً من أن تستمر في التقدم.

تفحصت العمارات المحيطة بها. كان عدد منها بحارس ليلي يراقب مدخلها. لكن أخرى - كمثل هذه التي تقف أمامها - ليس لها حارس، مع ذلك فقد كانت محمية بشفرة المدخل. في عدد كبير من الشقق، رضي المدعوون الأخيرون بالمغادرة. في كل حال، هذا ما حدث في الـ 73، شارع فينويت، حيث كان ثلاثة أزواج من العائلات يغادرون معاً البارادیزیو بلدنغ.

أمسكت لهم إيفي درفة الباب. وفي خضم الارتباك، نجحت في

جعلهم يصدقون أنها تعيش هنا. تظاهرت بانتظار المصعد، وعندما ابتعدوا بما فيه الكفاية شرعت في البحث عن زاوية تنام فيها بضع ساعات. وجدت مكاناً غائراً بعض الشيء، بالقرب من باب الأقبية. لم يكن الجو دافئاً بالقدر الكافي، لكن ذلك أحسن من لا شيء. جلست بمحاذاة الجدار وانكمشت داخل معطفها وأغلقت عينيها تاركة أفكارها تقودها إلى الرجل الذي تقاطعت طريقه مع طريقها. والذي بمجرد ما تحدثت إليه اختبرت تجاهه حميمية غريبة، كما لو كانت تعرفه من عهد بعيد. فبينما كان يتحدث، لم يذكر اسمه قط، لكن إيفي تتذكر الآن أنه ترك لها كرت الزيارة. راحت حينئذٍ تنقب داخل جيبها وسحبت منه الكرت الصغير الذي رفعته إلى أعلى عينيها. رغم الضوء الشاحب، تسنى لها أن تفك حروف اسم الطبيب فأصيبت فجأة بصدمة.

هذا الرجل هو كونور ماك كوي!

نهضت في الحال. أشعلت إنارة ساعة التوقيف وأخرجت من حقيبتها الكتاب الذي عثرت عليه ذات ليلة في إحدى غرف فندق أواسيس في لاس فيغاس. ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف عن حمله معها مثل تعويذة من شأنها أن تقيها الأقدار الغاشمة.

البقاء على قيد الحياة

كونور ماك كوي

نظرت إلى صورته على ظهر الغلاف فتأكدت لها هوية محدثها السري. فهمت الآن لماذا بدا لها وجهه مألوفاً. يا لها من مغفلة! كانت قد تركته يفلت، الشخص الوحيد على هذه الأرض الذي لطالما حلمت بمقابلته. بسرعة! قررت أن تؤجل شؤونها، حاسمة أمرها على الذهاب لرؤيته مجدداً.

بينما تتأهب للخروج من العمارة، لمحت سيارة بوليس بضوئها الدوار وبوقها الصادح تتوقف أمام المدخل. حينئذٍ أدركت إيفي أن رجال الشرطة جاءوا كي يتعقبونها بعدما تحتم على ساكني العمارة أن سمعوا الضوضاء الصادرة عنها وبلغوا المخفر. إذ إن بوليس نيويورك لا يقلع من قبيل أن يبعث بدورية لتقصي الحقائق، وذلك امتياز الأحياء الغنية.

في الواقع، خرج من السيارة رجلا شرطة رتبهما رفيعة ومدججان بالسلاح، كأنهما كانا بصدد القبض على بن لادن.

- إنها هنا! صرخ أحدهما مصوباً ضوء مصباحه اليدوي باتجاه المدخل.

كتبا شفرة المدخل واجتازا، ومسدساتهما في يديهما.

- هيا، يا آنسة، اتبعينا من دون إثارة إي إزعاج.

23

كلمة المرور

إن معرفة أسرار الآخر هي سلطة
باعثة على النشوة.

ميخائيل كونلي

اليوم

في الطائرة

الساعة الرابعة

بينما كان عدد كبير من ركاب الرحلة 714 يغفون على أقل من مهلهم هاضمين الرزية بالغوشنة وفطيرة التفاح المخلل المكونتين لطبق وجبتهم، كان الآخرون، بالسماعات على رؤوسهم، منهمكون في فيلم أو في البرامج الموسيقية المقترحة من قبل الشركة.

بعينيين مغلقتين وأنفاس منتظمة، لحقت إيفي بليلى إلى بلاد الأحلام. أما مارك، وقد انتابته رغبة الوصول، راح يتلوى في مقعده رامياً نظرات قلقة على ساعته. كانت غريزة الاستعجال قد استولت عليه. لم يكن يقوى على انتظار أن يكون في نيويورك وذلك كي يسبر لغز تصرف نيكول المذهل.

كان عليه أن يكتشف شيئاً ما.

الآن.

انحنى محدقاً باتجاه صف المقاعد المركزي. على مسافة صفين أمامه، بشعر مضفور وكرافتة، كان موظف مؤسسة مالية يتصفح على نحو محموم أسعار البورصة على الإنترنت. مستثاراً بإلهام مفاجئ، غادر مارك مقعده وسار عبر الممر ممسكاً بيده اليسرى كأس عصير البرتقال التي لم تكن إيفي قد شربت منها سوى جرعات قليلة. حينما وصل أمام ضحيته، تظاهر الطبيب بالترنح وأسقط على نحو واعٍ عصير الفواكه على قميص وبنطال رجل الأعمال.

- لا ترى أمامك! صرخ الرجل وهو يظهر المناطق المتضررة.

- أنا حقاً متأسف، اعتذر مارك ببرودة.

كان قد سحب من جيبه منديلاً وعوضاً عن مسح السائل، سارع إلى توسيع اللطخة أكثر بحيث لم تتأخر عن أن تصير أكثر التصاقاً.

- اصرف نظر! أمرت ضحيته متعجلة على التخلص من أخرق كهذا. سأضع قليلاً من الماء.

نهض عن مقعده، ومسح بحرص بضع قطرات سقطت على لوحة مفاتيح الكمبيوتر الخاص به والذي قام بإيداعه في خزينة الأمتعة قبل أن يتجه إلى الحمام مغمغماً:

- ... بدلة من ماركة كانزو بألف دولار... اجتماع مع اليابانيين... إمكانية استمالة شركات مساهمة...

تظاهر مارك بمتابعة طريقه قبل أن يرجع على أعقابه. كان الركاب، كي يقوا أنفسهم أشعة الشمس البرتقالية، قد أسدلوا غالبية الستائر مغرقين الطائرة في عتمة مواتية للقيلولة أو لرؤية مناسبة للفيلم.

فتح الطبيب خزنة الأمتعة بقدر ما يسعه من اعتيادية وتناول الكمبيوتر وحمله معه إلى مقعده. رمى نظرة نحو عمق الطائرة. كان

هنالك طابور أمام الحمامات: بقليل من الحظ، كانت لا تزال أمامه بضع عشرات من الدقائق قبل أن يلاحظ الآخر اختفاء جهازه المحمول. أخرج الكمبيوتر من غلافه وفتحه بحذر. كان قد قرأ في البروشور الذي وزع على المسافرين، أن تقدماً تكنولوجياً جديداً من شأنه أن يسمح من الآن فصاعداً بالولوج إلى الإنترنت السريع عن طريق الاتصال اللاسلكي. والحال كذلك، أشر إلى محرك البحث.

انفتحت صفحة الويب على الغوغل. ضغط على «دليل المشتركين المعاكس» وزار أحد المواقع المقترحة من قبل محرك البحث. داخل القالب، أدخل رقم الهاتف الذي نجح في التواصل من خلاله مع نيكول في وقت مبكر من بعد الظهر. لم يستغرق البحث سوى بضعة ثوان وسلم النتيجة الغريبة:

كونور ماك كوي، طبيب نفساني

مركز تايم ورنر

10، دائرة كولمبوس

نيويورك 100119

كان رقم عيادة كونور الجديدة! وكان الصوت الذي يعطي الأوامر لنيكول كي تغلق السماعة هو صوت أعز أصدقائه. كان واثقاً من ذلك الآن. فلماذا إذاً لم يتعرف إليه في الحال؟ وماذا كانت تعمل امرأته عنده بالضبط؟

مشوشاً، بقي بضعة ثوان لا يعرف كيف يوجه أبحاثه. فبقدر ما تسعفه ذاكرته، كانت نيكول تستعمل في ما مضى حساب هوتميل لقراءة الرسائل التي كان يبعثها لها أثناء رحلاتها الفنية. زار موقع مشغل الهاتف، وضغط على «نيكول. هاثواي» داخل الحيز المخصص للمستخدم.

كانت الدالة تومض الآن، داعية إياه لإدخال كلمة المرور الخاصة بزوجته والتي لم يكن يعرفها.

على مدار السنوات التي عاشها بقربها، لم يكن مارك بأي حال من الأحوال من النوع الفضولي، فقد كانت رابطتهما الزوجية مؤسسة على الثقة. كما لم يكن يجد تسليته قط في تفتيش حقيبتها أو في حل شفرات المواعيد المدونة في مفكرتها.

ربما كان عليه...

لم يكن يعرف الكثير في المعلوماتية. لكن، مما لا شك فيه، كان بمقدور موقع البحث كراكايج (crackage) أن يلج إلى حساب زوجته. لسوء الحظ، لم يكن في متناول يده. لم يكن لديه في خدمته سوى دماغه ومع ذلك لم يكن كافياً. فلعل من غير الممكن للخبير النفساني الأكثر مهارة حتى، أن يخمن كلمة المرور الخاصة بزوجته اعتماداً على تحليل بسيكولوجي بسيط. في كل حال، ليس في خمس دقائق. مع ذلك، كان مارك يرفض لنفسه الانسحاب من اللعب قبل القيام ببضع محاولات.

كيف يختار الناس كلمات مرورهم؟

أجابه الحس السليم عن ذلك: عن طريق لقبهم، اسمهم الأول، اسم الزوج، أسماء أطفالهم، اسم حيوانهم المنزلي...

إذاً فقد حاول تباعاً:

نيكول

هاثواي

ليلى

مارك

بايواكيت (اسم قطهم السيامي)

لكن من دون نجاح.

التفت من ثم إلى الأرقام:

06.06.74 (تاريخ ميلاد نيكول)

19.08.72 (تاريخ ميلاده الخاص)

15.05.96 (تاريخ التقائهما للمرة الأولى)

10.06.96 (تاريخ زواجهما)

11.01.97 (تاريخ ولادة ليلى)

أعاد المحاولة من دون « . » ثم واضعا « / » محل النقط. ومن أجل مزيد من التأكد، حاول حتى الرجوع إلى معطيات من أربعة أعداد بالنسبة إلى السنوات.

من دون نجاح.

ومن ثم؟

كذلك راح يدخل معطيات أخرى مثلما كانت ترد إلى باله: أرقام هواتف، أرقام الصفائح المعدنية، أرقام التأمين الاجتماعي...

حاول أيضاً مع مقاسات زوجته، صدرها، وزنها. وأيضاً:

لونها المفضل؟

vermillon

روايتها المفضلة؟

le-prince-des-marées

le.prince.des.marées

leprincedesmarées

فيلمها المفضل؟

le-tombeau-des-lucioles

le.tombeau.des.lucioles

letombeaudeslucioles

لكن ما كان له أن يحلم.

حينئذٍ أغلق عينيه. تراءى له وجه نيكول مشعاً، على الخشبة، إذ تتلقى التصفيقات عقب الحفل الموسيقي.

كمان

عقب ذلك، أدخل أسماء المؤلفين المفضلين لزوجته، أو أسماء من سجلت لهم أو عزفت أعمالهم في الحفلات:

موزارت

باخ

بيتهوفن

ميندولسون

شوستاكوفيتش

برامز

باربير

سترافينسكي

كلا، كان يسلك الطريق الخاطئ. وجه تفكيرك نحو مسارات أخرى. في الوقت الحالي، كان دماغه يعطيه الانطباع بأنه يسير بسرعة مائة في الساعة. وانطلاقاً من مبدأ أن كلمة السر تنبئ حتمياً عن شخصية صاحبها، فقد تكون نيكول التي يعرفها اختارت صيغة لها قيمة انفعالية: شفرة تعلي من شأن روابطها العائلية أو قصة حبها مع مارك.

لكن نيكول كانت شخصاً حذراً أيضاً. فقبل بضع سنوات كان هنالك من حاول السطو على حسابها البنكي على الإنترنت، ولقد تسبب ذلك بمتاعب لها. مما أوجب عليها، لتطوير المزايا الأمنية لكلمة سرها، أن تراهن على اختيار مزيج من الحروف، من الأرقام ومن الرموز. أي شيء طويل إلى حد كافٍ، كما طلب منها البنك في ذلك الوقت.

في الوقت نفسه، كان عليها أن تطلع على مراسلاتها يومياً، كما أنه لم يكن واجباً على الشفرة أن تكون مجردة أكثر من اللازم.

إذاً هاهو ما يجب البحث عنه: كلمة مرور يصعب اكتشافها على أن تكون سهلة الاسترجاع.

لتأليف شفرة كهذه، فإن الأسلوب الأكثر بساطة يكون بالمرور عبر جملة مفتاحية: مَثَل، كلمات قصيدة أو أغنية...

كلا، كان مارك مستعداً على المراهنة أن زوجته اختارت شيئاً أكثر شخصية. لكن ما هو؟ هل توجد جملة تكثف جوهر حبها؟

فجأة، أحس مارك أنه يضيع خيط استدلاله. وكان ألم فظيع في الجمجمة يجرف صدغيه. وفي رأسه، كان كل شيء يختلط: الأرقام، الحروف، الرموز، الرسائل، الذكريات... أغلق عينيه ليستعيد تركيزه. حينئذٍ، أخذ وجه امرأته يشق طريقه داخل روحه المشوشة.

ثم هاجمته سلسلة من الصور في الوقت نفسه كما لو أن قوة مجهولة اختارت أن ترشق دماغه بمئات الأسهم التي هي خالدة وعابرة في الآن نفسه: أول مقابلة، أول قبلة، أول مرة يمارسان فيها الحب، أول شجار، الرحلات الغرامية الأولى...



باريس، فرنسا.

أمسية صيفية.

ساحة صغيرة في إيل دو لا سيتي.

مطعم على رصيف.

عشاء لعاشقين.

طلب زواج.

في الساحة، أشجار دلب.

على جذع أحداها نقش محفور بمدية. متبوع بتاريخ.

زوجان عاشقان ارتادا هذا المكان قبلهما بسنوات.

مارك ونيكول بقيا صامتين للحظة أمام النقش.
ثم تعاهدا على نقش الجملة في باطن خاتمي زواجهما.

وضع مارك يده اليمنى على سبابة يده اليسرى. كان خاتم زواجه لا يزال في مكانه. قاوم كل شيء. الانفصال، الحياة في الشارع...
انتزعه بصعوبة وقرأ النقش المدون في الداخل:

Là où on s'aime
il ne fait jamais nuit[1]

دمعة سالت على خده وهوت على لوحة المفاتيح. حينئذٍ، أدرك أنه وجدها.

وبما إن الجملة كانت أطول مما يجب، ولم يكن بوسع المساحة المخصصة لكلمة المرور أن تتسع لها، فقد اكتفى بتدوين الحرف الأول من كل كلمة:

loosainfjn

كلمة مرور غير صالحة.

أمر طبيعي: ينبغي أن نضيف تاريخاً. تردد للحظة، ثم قرر أن الأكثر احتمالاً هو تاريخ التقائهما. وبحمية متعاظمة أكثر فأكثر، حاول مجدداً:

loosainfjn150596

ثم ضغط على الزر ENTER.

هذه المرة، قبل الموقع كلمة المرور. صفحة الويب تقوم بالتحميل، تنفتح على علبة الرسائل الخاصة بنيكول هاثواي.

*

(1) هنا حيث نتحابب لا يوجد ليل أبداً..

ثمة عدد كبير من الرسائل. كان أغلبها من سونجا، وكيل نيكول الذي ينظم سفرياتها الفنية ويدير جدول أعمالها. كان ثلثها تقريباً رسائل طفيلية: «فياجرا مجانية» «كبر عضوك التناسلي» «تبرع لضحايا تسونامي» واستثمارات أخرى كاذبة. وثمة رسائل تهاني من معجبين يثنون على الموسيقية بعد استماعهم لعزفها في إحدى الكونسيرات. ورسائل قليلة تتضمن انتقادات: أنت لا تشكلين وزناً أمام آن- سوفي ميتور[1] أو: منتجي الألبومات لم يختارونك من أجل موهبتك لكن من أجل مؤخرتك، أو أيضاً: لو كنت في مكانك، لشعرت بالخجل من كسب بعض النقود من وراء اختفاء ابنتي.

كان كل ذلك ممتعاً، لكن لا جديد تحت الشمس. فقد كانت نيكول تتلقى هذا النوع من الرسائل في ما مضى. فتح مارك رسالة من كونور، لم يجد فيها أي شيء. رسالة لفتت انتباهه مع ذلك، إذ كانت تحتوي على فيديو في ملف ملحق. وقد أرسلت من مصدر مجهول، لم تحتوي الرسالة على أي نص مكتوب. فقط ملف كويك تايم ينفتح أوتوماتيكياً. اقترب مارك من الجهاز. كانت نافذة العرض صغيرة والصورة التي بالأبيض والأسود رديئة الجودة. بسرعة، فهم أن الفيلم مسجل بواسطة كاميرا مراقبة.

عندما ظهر وجه ليلى على الشاشة، تجمد دمه وتوقف العالم عن الحركة حوله.

---

(1) عازفة كمان ألمانية مشهورة بشكل خاص بأداءاتها لموزارت وبيتهوفن.

24
الحياة الكريمة

تمر معظم أوقات الحياة، والناس تقول:
«لم يحن الوقت» ثم «فات الأوان».
غوستاف فلوبير

اليوم
في الطائرة
الرابعة والعشرين دقيقة

بعينين متوقدتين، تابع مارك النظر إلى الشاشة. أمامه، كانت مشاهد الفيلم تتابع كما لو بالبطيء. لم يستغرق الطبيب وقتاً ليفهم أن الفيلم صور في اليوم الذي اختطفت فيه ابنته. فقد تعرف من دون عناء إلى الكنزة الصوفية ذات القلنسوة التي كانت ترتديها ليلى في ذلك اليوم، كما تعرف إلى قطيفتها الصغيرة من ماركة شارك التي اشتراها لها الأسبوع السابق على المأساة.

اندهش مارك، .لأن البوليس ما انفك يؤكد أن لا صورة التقطت لابنته عن طريق كاميرات المراقبة. لكنه يعي الآن أن المناطق المعتمة التي تخص التحريات لابد أنها تخفي شيئاً آخر عدا الاختطاف الوحيد

لطفلة. وهذا الفيديو كان الدليل الذي لا يدحض على أن رجال البوليس، رغم إنكارهم، كانوا يعرفون أشياء لم يقولوها قط.

كان كلما تقدم الفيلم تكبر الحباحب وتصير الصورة مشوشة. لم يكن بمقدور مارك التعرف حتى إلى المكان، حيث توجد ليلى. كانت خارج متجر بكل تأكيد، لأن الجو كان معتماً والهوام تلطخ جزئياً وجه ابنته.

انتزعه الخوف للحظة من الشاشة، فلم يتمكن من منع نفسه من الالتفات إلى ليلى التي كانت لا تزال تغط في نوم عميق على المقعد بجواره. إلى حد أنه انحنى على وجهها كي يتأكد من سماع تنفسها وذلك من شدة خشيته أن يفقدها من جديد.

وقد استعاد طمأنينته، عاد إلى كمبيوتر«ه» كي يتحقق من أن سلسلة لقطات الفيديو - المفترض أن يستمر كل منها دقيقتين وعشر ثوان- توقفت في نهاية الدقيقة الثلاثين. اعتقد في البدء أنه أمام مناورة. ضغط عدة مرات على الزر PLAY بغرض إعادة كامل الفيلم، لكن لاشيء حدث: مجدداً توقفت الصورة قبل أربعين ثانية من النهاية. يتنازعه الغضب والغيظ، نفث نهدة إحباط طويلة.

من يعبث هكذا بأعصابه؟ ماذا حدث خلال الأربعين ثانية؟

- هيه، لا داع للإحراج إنه محمولي!

كالمفزوع من نومه، رفع مارك رأسه. كان السيد عصير البرتقال قد انتزع الكمبيوتر من يده بحركة مباغتة.

- كانت مجرد استعارة، حاول الطبيب تبرير تصرفه.

- استعارة؟ استعارة! هه...

- أردت فقط أن أطمأن من أن كل شيء في الجهاز يشتغل على نحو صحيح، أوضح مارك لاعباً من جديد دور المغفل. كنت أخشى

أن يكون قد تعطل بفعل تصرفي الأخرق وصدقني لو كان الأمر كذلك لـ. . .

لكن رجل الأعمال لم يكن ساذجاً:

- أريد أن أرفع شكوى، صرخ في محاولة منه لإقحام مسافرين آخرين كشهود.

انضمت إليهما الآن إحدى المضيفات كي تهدئ اللعبة. غريزياً، فهم مارك أن من مصلحته تماماً البقاء هادئاً والتصرف برزانة. مستثاراً، ارتبك الآخر في شروحه.

- أريد أن يقيد هذا الحادث لدى الكابتن! وضرب بيده عدة مرات.

- موافقة، سيدي، لن يفوتنا أن نبلغ به، وعدته المضيفة.

وقد توقف الشجار عند هذا الحد، رافقت المضيفة السيد عصير البرتقال إلى مقعده وقدمت له ابتسامة إلزامية تقول على نحو مضمر: اجلس يا بدين وتوقف عن الزعيق، لقد أغلق الحادث.

*

- بابا، أين بوظتي؟

كانت المهاترة الصغيرة قد أيقظت إيفي وليلى من نومهما.

استدار مارك باتجاههما على نحو عفوي تقريباً، كابحاً مشكلاته كي يبدو حسن المظهر.

- حسناً إذاً أيتها الفتيات، صرخ فيما يضرب يديه ببعضهما، هل سنأكل هذه المثلجات؟

- أوه نعم! صرخت ليلى بابتهاج.

أمسك مارك ابنته من اليد ودعا إيفي بإيماءة كي تصحبهما. ارتحل الفريق الصغير المكون على هذا النحو نحو وسط المقصورة

العلوية كي يحاول العثور على طاولة فارغة في الفلوريديتا. كانت استراحة البار التي ارتادها مارك منذ قليل أشبه ما تكون الآن بصالون شاي. ففي مواجهة هذه الوفرة، كان قد انضم إلى إسحاق الساقي، مريدان. كان منظمو الحفلات الثلاثة يعدون بسرعة مدهشة وبمرح طفولي كوكتيلاً وأكواباً مثلجة أشد روعة بعضها من بعضها الأخر.

ما أن فرغت طاولة حتى كانت ليلى هي السباقة للجلوس. أمسكت قائمة الحلويات كما لو كانت قائمة تخص القديس غرال وبحلقت بنهم إلى صور الشوكلاتة بالقهوة وصور أخرى لموزات مقشرات. انضم مارك وإيفي إليها مستمتعان بتصرفها. مسح مارك بنظراته حشد الزبائن مفتشاً عن أليسون هاريسون لكن الوريثة الغنية كانت قد غادرت البار.

طلبوا «شوكولاتة فروزين هوت» التي قام إسحاق شخصياً بإحضارها إليهم مع ثلاثة ملاعق وثلاثة ماصات. وقد وضعت على الطاولة، احتوت السلطانية الزجاجية الضخمة، بمقاس حوض السمك، عشرات الكرات المثلجة - كلها بالشوكولاتة، عدا واحدة من نوع مختلف- تعوم في مرق الكاكاو ويعتليها جبل من الكريم المخفوق.

- كلي على مهلك، نصح مارك ليلى التي ارتمت بشراهة على الكريم المثلج. لا أحد سيسرقه منك!..

بماصة في الفم وبأنف مغروس في الكريمة، تنسمت الطفلة بمتعة واضحة الشوكولاتة المنصهرة. ما دفع إيفي إلى أن تسخر منها بلطف فيما ترافقها في التذوق. وللمرة الأولى، يرى مارك المراهقة مع ابتسامة في الشفتين ولقد أدخل ذلك البهجة إلى نفسه. كانت الحكاية التي عملتها إيفي من حياتها ومن رغبتها في الانتقام قد تركت وسماً عليها. شعر بالحسرة، لأنها لم تروي له نهاية قصتها، لكن شيئاً

ما كان يقول له إنه سيعرف المزيد عنها قبل الهبوط في نيويورك. فمما لا شك فيه أن هذه الرحلة كانت عظيمة وثرية بالحكايات ومفعمة بالدهشات، الرائعة كما السيئة...

*

بينما تتذوق مثلجاتها، راحت إيفي تنظر إلى مارك وابنته بنوع من العذوبة. كان شيء ما في علاقة الطبيب بابنته يؤثر فيها. هي التي لم يكن لها أسرة حقيقية قط، تأثرت لرؤيتها هذا الرجل - الذي تحس أنه صلب وهش معاً- يستعيد التواطؤ الذي يوحده بابنته قبل أن تصيبهما المأساة.

في المشرب، رفع إسحاق للتو صوت الموسيقى. ما أضفى على الجو مسحة رقيقة. تناولت إيفي لمرة أخرى ملعقة من مصهور الشوكولاتة السماوي وأغلقت عينيها لكي تقيّمه أفضل. مغمضة العينين، هزت رأسها على إيقاع سكسوفون جون كلوتران واعية بكونها تعيش لحظة صفاء كما لم تعشها منذ وقت طويل.

مجدداً، تبين لها أن أفكارها عادت باتجاه كونور الذي جعلته قصة مارك أكثر قرباً أيضاً. عندما كان في عمرها، لم تخن كونور شجاعته. كانت لديه الجسارة كي ينتقل إلى الفعل غاسلاً العار، العين بالعين، والسن بالسن، ليجد من ثم القوة ليصير أحد الأطباء الأكثر تجديداً في البلد.

لكن هل سكن الثأر ألمه؟

كان هذا ما طرحته على مارك حين فتحت عينيها.

25

مارك و كونور
ثالث فلاش باك

1995 - 1989 : السنوات الجامعية الأولى

وصل مارك وكونور إلى مانهاتن في ما بعد ظهيرة ممطرة من تشرين الأول/ أكتوبر.

كانا في السادسة عشرة تماماً.

وكانت نيويورك التي غالباً ما حلما بها تردد من قلب مدينتها كلمات سحرية جذلى. جذلى سنترال بارك وواشنطن سكوير ومركز التجارة العالمي وتمثال الحرية.

إذ إن ما يهب نفسه للعين، مختلف عما يمكن للمرء أن يراه في الأفلام.

بمجرد نزولهما من القطار، أصابهما بصدمة لون السماء الرمادي الذي يعطي للمدينة سحنة حزينة وجليدية.

لكن البرد يقيم القلب.

لم يكونا سوى صبيين فارين، يجهلان بالكامل ما سيحدث غداً. فربما عثر رجال الشرطة على آثارهما. وربما بلغ فرارهما نهايته في وقت أبكر من المتوقع وانتهى بهما المطاف في حجرة قذرة من السجن.

لكن، بانتظار ذلك، كان عليهما البقاء على قيد الحياة.

*

كان مارك من يوجه دفة الأمور. لقد حانت اللحظة كي يبرهن، كما كان يزهو بذلك، بأنه ذكي وبارع. ومصمماً على الكفاح في وجه كونور المشوش والمكتئب أكثر فأكثر، بدأ بالعثور على شقة صغيرة ليست بعيدة عن الحرم الجامعي. ثم وضع كل طاقته، كي يأتي على آخر العوائق الإدارية متابعاً كل مراحل طلب تسجيلهما في الكلية. لحسن الحظ، أنهما لم يواجها أي عوائق مادية. فبفضل النقود غير المتوقعة التي حصل عليها كونور لدى بائعي المخدرات -نقود المخدرات- سيكون بوسعهما التكفل بالإيجار ودفع جزء من تكاليف دروسهما. بعد شهر، حازا على الموضوع الذي لطالما رغبا به: بطاقة طالب باسم كل منهما. ثم غرقا في العمل من دون أن يدخرا جهداً.

كانا يدركان بالضبط ما يريدان عمله: الحصول على الدكتوراه لكي يفتتحا ذات يوم عيادتهما الخاصة.

*

الثالثة صباحاً.

دفع كونور باب صالة الحمام وأشعل النور، وحرص على إغلاق الباب خلفه حتى لا يوقظ مارك الذي ينام في الغرفة المحاذية. فتش في درج قطعة الأثاث التي تُستخدم خزانةَ أدوية فوقعت يده على أنبوب أدوية، أخرج منه قرصين تناولهما مع قليل من الماء، وبذلك يكون قد تناول القرصين الخامس والسادس لهذا اليوم. كانت ورقة الإرشادات تطالب بعدم تجاوز الأقراص الأربعة، لكنه كان يعاني من ألم شديد. ولقد بقي عدة لحظات يترنح مشدوهاً أمام صورته في المرآة، كما لو كان بمواجهة غريب. تحت الضوء الشاحب، فك

أزرار معطف البيجامة كي يعري جذعه المغطى بالندوب والذي راح ينظر إليه بمزيج من الافتتان والنفور. فمنذ قليل، تملكه الوعي بأنه سيحافظ طوال حياته على هذا الجسد الجريح. وبينما كان جزء لا بأس به من يديه وقفصه الصدري فاقداً الإحساس، ما انفكت ساقاه تؤلمانه على نحو فظيع وتجعلانه خاضعاً للمسكنات. وإضافة إلى الألم الفيزيقي، لم تكن اضطرابات النوم تفارقه. لقد اعتقد أنه تخلص من بائعي المخدرات، لكن، في كل الليالي تقريباً، كانا يأتيان لملازمته داخل كوابيسه. كان يعتقد أنه وضع حداً للألم، لكنه عوضه بألم أكبر بكثير: ألم العيش في جلد قاتل. وفيما يعود إلى مرقده، تلك الليلة، فهم مع شعور بالفزع أنه سيمضي ما تبقى من حياته حاملاً أوزار الانتقام المؤلمة.

*

ذات مساء كئيب، رأى كونور مارك يصل الغرفة وسماعة الهاتف في يده.

- ألو؟

كان الصوت المُطَمْئِن للدكتورة لورينا ماك كوي في الطرف الآخر من الخط، وكان مارك قد بادر للاتصال بها في شيكاغو. مدفوعة بالتأثر لسماعها صوت كونور، أرشدته إلى أحد زملائها في نيويورك كي يسمح له بمتابعة إعادة تأهيله.

ذلك أن المرء لا يخرج من هذه الحالة بمفرده أبداً...

*

أخذ كونور يسترد عافيته تدريجياً. كان يتحاشى، ما أمكنه ذلك، الأقراص المسكنة للألم ويعوضها بحمامات وبمساجات وبمعالجات حرارية. بفضل مارك ونصائح لورينا، استعاد بعض الثقة، لكنه ظل

حساساً تجاه ردود أفعال الآخرين. كان وجهه قد نجا من الحروق، ما يعد سلاحاً ذا حدين، لأنه كان فتاناً بقدر ما كان جسده مثيراً للاشمئزاز. مع الفتيات، كان هنالك دائماً الخوف نفسه: للوهلة الأولى يفتتن به، لكن كان لديه على الدوام ذلك الانطباع بأنه «يغشهن في السلعة». مقتنعاً بأنهن سوف ينتهين إلى رفضه، لم يكن يذهب غالباً إلى ما هو أبعد من القبل الأولى. والحال كذلك، فإنه يتعجل ليكون «هو الذي يَهجُر» عوضاً عن أن يكون «هو من يُهجَر».

*

كانت السنوات تمضي.

لكن كونور ظل يعاني من الأرق. ومع ذلك سعى إلى أن يجعل من أرقه ورقة رابحة. فلكي يفلت من بائعي المخدرات اللذين ما انفكا يلاحقانه في نومه، كان يمضي لياليه في دراسة كل مناهج علم النفس والتهامها. ولقد أثارت ضراوته في العمل والجانب العصامي فيه إعجاب أساتذته مما حدا بأحدهم -سلطان الطب النفسي- إلى تعيينه مساعداً له متيحاً له بذلك فرصة مرافقته أينما ذهب. وهكذا سيتسنى له، خلال سنوات، أن يجري حلقات دراسية في سجون ومشافي ومدارس خاصة بالمعاقين... كان أينما ذهب لا يشيح بوجهه بلا مبالاة عن شخص ما. وذلك أن الاعتداء الذي تعرض له سيجعله شديد الحساسية تجاه آلام الآخرين، كما لن يتردد هو نفسه عن البقاء داخل حالة قصوى من القابلية الانفعالية على الانكسار. وتلك هي الطريقة التي اكتشفها كي يبقى قريباً من آلام مرضاه، وبالتالي، كي يفهمهم على نحو أفضل بحيث يتمكن من مساعدتهم على نحو أنجع. كان على وعي بمخاطر تصرف كهذا، لكن هذه المخاطر كانت الثمن الذي قبل أن يدفعه. وسريعاً، مع ذلك، ما تأكد له أنه إذا كان لغز الروح الإنسانية يكمن في الدماغ، فيجب عليه أن يكمل تكوينه بدراسة

الجهاز العصبي. وهو ما عمله، مدفوعاً بالطموح نفسه: فهم ما يحدث داخل الدماغ وسبر أغوار التفكير مسافراً إلى قلب الأحلام واللاوعي.

*

1996 - 2001: السنوات الذهبية

امرأة حياتي

15 أيار/ مايو 1996

ذات صباح ربيعي، دخل مارك إلى صيدلية وأطلق صرخة مبهمة «صباح الخير» قبل أن يأخذ مكانه في طابور الزبائن. لقد جاء كي يحصل على أنبوب أسبرين على أمل أن يقهر آثار السكر البغيضة. فليلة البارحة، كسب فريق نيويورك لكرة السلة مباراة في مواجهة بولس دو ميشيل جوردان معلقاً الرهان إلى نهاية الموسم. كان مارك هناك! لقد كلف المقعد ثروة في السوق السوداء! ولكي يحتفي بانتصار فريقه، خرج للاحتفال طوال الليل. كان في الرابعة والعشرين، وكان كل شيء يثير ابتسامته. ولم يكن مر وقت طويل على حصوله على إجازته الجامعية وحصوله من ثم على وظيفة معالج نفسي في مركز إعادة التأهيل. كان يقدس عمله وحياته ومانهاتن. كانت سنوات التعب في شيكاغو قد صارت بعيدة وراءه...

بينما يقف في الطابور، انهمك في تصفح نيويورك تيمز حتى أنه لم ينتبه إلى الفتاة الشابة التي تنتظر أمامه. لكن نيكول، وكانت تمسك غلاف كمانها في يدها، امتصت المشهد الذي يدور أمام عينيها. خلف درج المحاسب، كانت البائعة منهمكة بتجهيز طلب امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها. وكانت الأخيرة قد طلبت علبة من حليب الرضع وصندوق حفاظات الأطفال، ولزمت مكانها. بملامح متعبة، أدلت

من يدها الممدودة ورقة نقدية من فئة العشرة دولارات.

- 14,45 دولار، قالت البائعة.

ترددت المرأة. كان من الواضح أنها لم تتوقع أن تدفع مبلغاً كهذا. بقلق، راحت تفتش محفظتها ينتابها الأمل، من دون أن تكون على ثقة من ذلك، أنها ستعثر على ما يكمل الحساب.

- إذاً، هل عثرت عليها؟ تذمرت البائعة وهي تطلق زفرة.

- نعم، نعم... اعتذرت المرأة وهي تعرض على الكنتوار عملتها الصغيرة.

وكان الموجودون في الطابور قد خمنوا أنها لا تتوافر على ما يتمم المبلغ. فنفد صبر بعضهم، وربما تعاطف آخرون معها لكن بصمت.

حينئذٍ، تقدمت نيكول.

- على ما أظن أن هذا سقط منك، قالت وجثمت على الأرض قبل أن تناولها ورقة من فئة العشرين دولار.

مذهولة، نظرت إليها الأخرى. استغرقت بضع ثوان قبل أن تمسك بالورقة النقدية التي ستسمح لها بحفظ ماء الوجه.

- شكراً، قالت فيما تخفض عينيها.

*

- آنسة!

نادى مارك فيما يركض على الرصيف خلف نيكول كي يلحق بها. فعلى ماذا تعتمد.

الأشياء؟ بالنسبة إليه كان كافياً أن يرفع عينيه عن جريدته وأن تلتقي نظراته بنظرات المجهولة حتى تنقبض معدته ويتسارع نبض قلبه.

في الحال، استولى عليه يقين وحيد: لا ينبغي له أن يترك هذه المرأة تغادر من دون أن يتعرف إلى اسمها.

- آنسة!

- نعم؟ سألت نيكول فيما تستدير.

- صباح الخير، تمتم وهو يلتقط أنفاسه.

لم يعد يحس بساقيه وكانت يداه مخضلتان.

هيا قل شيئاً يا مارك! لا تبقى مزروعاً مثل مغفل!

- أنا. . . أنا مارك هاثواي. كنت أقف خلفك في الصيدلية ولقد رأيت كيف ساعدت تلك المرأة. . .

- من غير المجدي التملق، أجابت فيما ترفع كتفيها.

- أنت من الحي؟

- في ماذا يعنيك هذا؟ سألت وقد انتابها الارتياب.

- في الواقع، كنت أود أن أدعوك إلى فنجان قهوة.

- هذا لن ينجح! قالت فيما تتابع طريقها.

- إذا سمحت! ألح فيما يعترض طريقها.

- أنا لا أعرفك حتى!

- وهذا مبرر إضافي للقبول: سيكون بوسعنا أن نتعارف.

- أنت تضيع وقتك معي.

- فنجان صغير من القهوة، هذا لا يشكل بالنسبة إليك أي إلزام!

- لا، شكراً! ثم إني متشنجة بما فيه الكفاية هكذا من دون حاجة للكافايين.

- إذاً، تناولي شوكولاتة، إنه منعش.

- إنك تتحدث من دون أن تعني ما تقول حقاً. . . زفرت فيما ترفع يدها لمناداة تاكسي.

- كلا، إنها الحقيقة: عند الإزتيك، الملك موكتيزيما يتناول خمسين كوباً من القهوة قبل أن يذهب ليشرف حريم قصره.

- وتظن نفسك ظريفاً؟

توقفت سيارة صفراء بجانب الرصيف، أمامهما.

ولجت نيكول إلى داخلها من دون تأخير.

- أعطني على الأقل رقم هاتفك!

توسل مارك.

- ستجده في دليل الهاتف السنوي، أجابته بمكر.

- لكنني لا أعرف حتى اسمك.

- إنه في الدليل السنوي أيضاً، صرخت وهي تصفق الباب.

انطلق التاكسي. وراح مارك يركض وراءه قبل أن يوقفه نفير العربات التي تسير في الاتجاه المعاكس.

مغتاظاً، تسمر للحظة على الرصيف، قبل أن يترنح مثل ملاكم تعرض لضربة قاضية. كان متيقناً، على نحو مثير للفضول، من أنه ترك امرأة حياته تفلت منه، فراح يلعن نفسه لأنه تصرف كما لو كان لا يزال في الخامسة عشرة.

لست مندهشاً أنها ازدرتني: لم تر فيَّ سوى طائش يستحق الشفقة، مراهق متأخر بمزحاته ذات الفلسين...

هو الذي يؤمن بعلامات القدر، هو الذي يؤمن بنصيبه، ابتلي بعدم كفاية الوقت كي يظهر لها أنه يعني ما يقول. الأسوأ من ذلك: أنه لم يتمكن من معرفة اسمها مضيعاً على هذا النحو كل أمل في أن يجدها ذات يوم.

لم يتجرأ أن يقول لأي شخص قط، حتى لكونور، أنه اعتقد دائماً، منذ أن كان صغيراً جداً، أن نوعاً من ملاك حارس يسهر عليه كي يخبره عندما يوشك حدث مهم أن يحدث. مع ذلك، لا شيء ساعده اليوم على التشبث بحظه.

ملاك حارس خبيث، انتابه السعار الداخلي، لماذا تركتني؟

- هيه، انظر إلى حيث تضع قدميك! صرخ في وجهه رجل على عجلات تزلج ينقض باتجاهه. ابتعد مارك، لكن بعد أن فات الوقت على الارتطام. ارتمى إلى الخلف بما يكفي من العنف لكي يتمدد على الرصيف.

- هل أنت على ما يرام؟ قلقاً، مد الرياضي يده لمساعدته على النهوض.

بينما يقف على قدميه، وقعت نظراته على عمود على حافة الشارع.

على العمود، ملصق.

على الملصق، وجه.

على الوجه، إعلان عن عرض موسيقي قادم.

نيكول كوبلاند

في صالة كارنيغي

عزف منفرد على الكمان - بروكيفيوف - سترافنسكي

فرقة بوستون السيمفونية

الخميس، أيار/ مايو، الساعة الواحدة

شكراً للملاك الحارس...

*

- إذاً، كيف تجدها؟

من أعلى الشرفة الأخيرة لصالة الاستماع، تابع مارك وكونور باهتمام الأوركسترا وعازفتها المنفردة يؤدون كونشيرتو بروكوفيوف. كانت صالة الاحتفال المهيبة تهتز على إيقاع التغييرات في مسارات

لحن هذه القطعة المدخرة حصرياً لأكبر العازفين براعة.

- إذاً، كيف وجدتها؟ ردد مارك.

- صصصصصه!

تصاعدت موجة موبخة باتجاه الصديقين.

- لا شيء ليقال: إنها بارعة في العزف، همس كونور.

- ما الذي تعرفه عن الموسيقى الكلاسيكية، أنت؟

- لا شيء، اعترف كونور. في كل حال، هي جميلة.

- أتظن أن لديها صديق؟

- بنت مثل هذه، بالضرورة...

- أتظن أن لدي حظ؟

- بصدق؟

- نعم.

- سيكون ذلك صعب جداً، يا صديقي! أقر كونور.

*

22:57

نيكول (بفظاظة): من غير المجدي أن أمثل عليك، لم أقبل دعوتك إلا لأنها أعفتني من الذهاب إلى العشاء مع زملائي.

مارك (مستمتعاً): أتفهم ذلك جيداً.

كانا يجلسان وجهاً لوجه إلى طاولة صغيرة تحت القبة المرصعة بالنجوم في بار مانسيفلد هوتيل. وكان المكان المغطى بخشب الأكاجو يتوهج بآلاف الأضواء التي تشبه النجوم والتي تخلق جواً حميمياً ومضيافاً في الوقت نفسه.

لبى النادل ذو المظهر الجليل طلبهما: كوكتيل ذو لون بنفسجي من أجل نيكول وكورنا من أجل مارك.

نيكول (بفظاظة أقل): إذاً هكذا هو الأمر، طبيب نفسي؟

11 : 08

نيكول (بتهكم): كطبيب نفسي، فإنك تتحدث أكثر من اللازم عن الحب . . .

مارك (باقتناع): لأن الحب، هو الشيء الوحيد المهم في الحياة.

نيكول (بارتياب): هذا شديد القابلية للنقاش.

مارك: تخيلي الحياة دونما حب، لابد أنها ستكون مملة إلى حد الموت، على الأقل إن الحب يجعل الوقت يمضي بسرعة . . .

نيكول (مذعنة): والزمن يجعل الحب ينقضي . . .

نظر إليها مارك. كان وجهها ذا ملامح حادة ووجناتها مجوفة قليلاً. ولديها في نظرتها، شيء من الحزن ومما لا يقاوم.

11 : 12

مارك (من دون أن يبدو ما يقوله يؤثر فيه): أم أن شخصاً ما في حياتك؟

نيكول: ليس تماماً.

مارك (بفضول): ليس تماماً؟

نيكول (بابتسامة): لنقل إنني في هذه الفترة أنام مع كماني.

مارك: آمل أن يكون لطيفاً معك.

نيكول (آخذة رشفة من كوكتيلها): إنه جارني الصنع. 1

مارك: إيطالي . . .

نيكول: إنه جلف قليلاً، لكن جذاب. إنني أبثه لواعجي باستمرار، والأمر متبادل.

نظرت إليه وابتسمت، ثم أزاحت خصلة شعر عن وجهها. لم تكن تعرفه، لكنها كانت توشك أن تغرم به.

11:24

مارك (بغواية): هل سنرى بعض في قادم الأيام؟

نيكول (فجأة أصبحت بعيدة جداً): لا أعتقد.

ضيق مارك عينيه ونظر إليها بحدة. اجتاز ظل وجه المرأة الشابة. فمها قال للتو «لا أعتقد» عيناها تقول «أتمنى».

مارك: ثمة شيء يشغل بالك؟

نيكول (متلعثمة): منذ قليل، عندما سألتني إذا ما كان أحد في حياتي... حسناً، كذبت عليك.

مارك: هل يوجد أحد؟

نيكول: نعم.

مارك: امرأة مثلك، أمر محتوم...

نيكول (وهي تضع شيئاً ما في حقيبتها): هو.

في البدء، اعتقد مارك أنها ستظهر له صورة رجل. لكنها أظهرت له، بدلاً من ذلك، نتيجة فحص الحمل وكانت مغلفة بغشاء بلاستيكي. أحس أن من المسموح له مشاهدة النتيجة. كانت بالإيجاب.

مارك (مع ابتسامة عذبة وهادئة): هو أم هي. صمت.

نيكول: والحال كذلك، هل أنت متأكد أنك لا تزال ترغب في الخروج معي؟

- أكثر من قبل.

*

رزقنا بمولود بنت!

ليلى

ولدت في 11 كانون الثاني/ يناير 1997
في الساعة الثالثة عصراً
تزن 2,990 كيلوغرام وبطول 48,5 سم.

إن فرحتنا لا تحد!

مارك ونيكول هاثواي
10 شارع غرين
بروكلين، نيويورك، 11238- 6050

*

الحياة العائلية

10 أيلول/ سبتمبر 2001

يحتفل مارك ونيكول بعيد زواجهما الخامس. بالمناسبة، دعيا عدداً من أصدقائهما إلى مأدبة شواء في الحديقة. كانت أمسية لطيفة من أمسيات الصيف التي امتدت طويلاً في جو من **حياة أمريكية** بصحبة مافين غاي وليونارد كوهين وجوني كاش ذي العمق الرنان.

بينما يقف خلف الموقد وملعقة الصيدلي في يده، راح مارك يشرح لليلى مخاطر حرق الشواء.

- هذا لك! قال لها فيما يضع فخذ دجاجة مطهوة إلى النصف على طبق كارتوني خاص بالطفلة الصغيرة.

- سأضع بعض الكاتشب! أجابت وراحت تركض خلال العشب.

كان الحفل في أوجه، عندما تراءى كونور في وسط الزحام، وكان يبدو تائهاً في أفكاره فيما تتراءى عليه نظرة غامضة. ولما رآه مارك في هذا الحال، أهمل الشواء واقترب من صديقه.

- تذوق معي هذا الشراب الإلهي، قال له فيما يناوله كأساً من النبيذ.

- ما هذا؟

- شاتو شوفال بلو 1995، من كروم سانت إميليو المعتق.

منذ أشهر، أغرم مارك بدراسة صناعات النبيذ وتذوقه:

- انظر إلى الثوب ذي الوميض الياقوتي. وأحماض الطنطاليك، المنخفضة والرائعة. والنكهات، هل تشمها؟ أكاسيا، عرق السوس، العليق، الكرز الغض...

- الكرز الغض، متأكد مما تقول؟ دعني أتذوق! سأل كونور قبل أن يغادر بصحبة مارك مطلقاً ضحكة صاخبة تتهكم من ادعائه محاكاة الذوَّاقة الكبار...

- بصحتك، يا صديقي!

- بصحتك، أجاب مارك صافقاً كأسه بكأس كونور.

منذ أن باشرا عملهما قبل عامين، كانت عيادتهما قد حققت نجاحاً غير عادي. بقدر ما كان كونور طبيباً لا يضارع فقد كان باحثاً مجدداً، يكد في البحث عن طرائق جديدة للعلاج. ولقد أحدث منهجه في إيقاف التدخين عن طريق التنويم المغناطيسي ضجة في مانهاتن ضامناً للعيادة بذلك وضعاً مادياً مريحاً. ومع هذا النجاح القوي، كيَّف كونور ممارسته بحيث تتلاءم مع اضطرابات أخرى: الاعتماد الكحولي، الانهيارات العصبية، الحصر النفسي المزمن، الفوبيا. على عكس ذلك، فقد انشغل مارك أكثر بـ«العلاقات

الاجتماعية». وسرعان ما ذهلت الصحافة بعالم النفس الشاب ذي الجسد الفاتن والكلمات المطمئنة.

- هل تتذكر -عندما كنا صبيان- قناني الكوكا كولا تلك التي كنا نمزجها بالماء كي نستمر في شربها أطول مدة ممكنة؟

- نعم، أجاب مارك، لقد كان شيئاً مثيراً للاشمئزاز.

- ليس أكثر إثارة للاشمئزاز من الشاتو- المجهول- الاسم الخاص بك.

- هل تعرف الطريق الذي قطعناه؟ كلل مسعانا بالنجاح مع ذلك.

- لا أعرف، أجاب كونور متفكراً.

- كيف يكون هذا، لا تعرف؟

- أحياناً ينتابني الانطباع بأننا لم نغادر شيكاغو.

- هل ذلك بسبب كوابيسك؟

- يعود الأمر إلى ما هو أعمق من ذلك، هذا إذا ما كنت تعلم إلى أي درجة أشعر بالأسف لقتلي الرجلين...

- لقد كانا مجرمين، عاهرين من أسوأ الأنواع...

- ربما، بيد أني صرت مثلهما. والأكثر بشاعة أني استفدت من نقودهما. أنا متأكد أنه كان بوسعنا الخروج من ذلك الوضع بطريقة أخرى.

- لا، قاطعه مارك. أنت تعرف جيداً أنه بدون تلك النقود لكنا بلا شك لا نزال هناك. كان لابد من دفع ثمن ذلك. حتى لو كنت أشعر بالأسف لأنك أنت من تحمل العبء. أصغي إلي، كونور، كل ذلك من الماضي. انظر إلى المستقبل...

- بالنسبة إلي، كما لو حدث ذلك بالأمس...

- لقد اجتزنا الأصعب. لن يحدث لنا شيء الآن.

في تلك اللحظة، عادت ليلى من مشوارها، وارتمت في حضن أبيها، قاطعة بذلك حديثهما.

- امسك، بابا، أحضرت لك بعض الغاتو. هل ستشغل لي الطائرة؟

ضم مارك ابنته بين أحضانه، لكن عينيه لم تفارقا عيني كونور.

- لا شيء يمكنه أن يحدث لنا، ردد كما لو ليقنع نفسه بذلك.

- من الممكن أن يحدث لنا كل شيء، صحح كونور.

- كلا، نحن أكثر قوة اليوم، أكثر صلابة.

- على العكس، كل ما لدينا قابل للضياع...

فكر مارك لثانية، ثم:

- عليك أن تعمل مثلي: تتزوج وتنجب أطفالاً...

- لا أعتقد ذلك. حين نحب يصير كل شيء قابلاً للانكسار.

- كلا، أكد كونور، بل يصير أكثر رسوخاً.

لكن كونور لم يقتنع حقاً:

- عندما يكون لديك الخوف من فقدان هؤلاء الذين تحبهم، تصير حينئذٍ قابلاً للانكسار. أنت هش: بوسع المرء أن يجرحك بسهولة، أي شيء عدا أن تكتشف فجأة أنك قد خدعت بأقاربك. إذاً فلا يمكنني أن أسمح لنفسي بأن أصير قابلاً للانكسار.

- لماذا؟

- لأنني إن لم أكن كذلك، سيستولي الماضي علي، قال ذلك فيما ينهي كأسه.

أراد مارك أن يجيب بشيء، لكن ليلى كانت تجذبه الآن نحو ألعابها.

- إذاً، بابا، هل ستشغل لي هذه الطائرة؟

*

أين كنت هذا الصباح؟

اليوم التالي، 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

- ليلى، خذي حقيبتك، ستتأخرين عن مدرستك وأنا عن عملي.

- لكن لا يزال لدي نوم!

- إيه نعم يا برغوثتي، كان علي أن أضعك في الفراش في وقت مبكر من مساء أمس، كما أمر بابا بذلك.

- لكنني أريد أن أشارك في العيد، أنا. . .

- اعرف. هيا، ارتدي سترتك وقولي وداعاً لأمك.

بينما كانت ابنته تصعد إلى الطابق الثاني، أطفأ مارك كمبيوتره المحمول ووضعه في حقيبته الجلدية مرتشفاً دفعة واحدة ما تبقى من عصير البرتقال الخاص به.

- وداعاً، حبيبتي، صرخ باتجاه الغرفة.

- إلى المساء، أجابته نيكول فيما كانت ليلى تنزل السلم بسرعة البرق.

هاهما الاثنان يغادران إذاً، في صباح بروكلين المشمس هذا.

- أين هي، السيارة؟ سألت ليلى بينما تخطو على الرصيف.

- أبعد من هنا يا رضيعتي. هيا تعالي سأحملك.

- لقد صرت ثقيلة الآن! قالت ممازحة.

- سترين إن كنت ثقيلة!

رفع مارك ابنته بإحدى ذراعيه وحمل بالأخرى الحقيبة.

- ألم تكوني تعرفين أنني كنت ميسكلور؟

- من هو، ميسكلور؟

- الرجل الأكثر قوة في العالم.

- وأنت؟

- إيه نعم! كنت أصارع قوى الشر بفضل صيغتي السحرية: «بواسطة قوة جمجمة الأسلاف احتفظت بالقوة المطلقة...»

- صحيح؟ سألت ليلى متشككة.

- تقريباً يا حبيبتي، تقريباً.

بينما، بأذرع مثقلة، يركض على امتداد الرصيف راح مارك يفكر بما قاله كونور ليلة البارحة. إن صديقه ليس على ما يرام هذه الأيام. إذ لم يجلب له النجاح الذي لاقاه، وبخلاف مارك، أي عزاء. كان ماضيه لا يزال يعذبه ومشاعر الذنب ما فتئت تتآكله في حين كان مقتنعاً أن الخطر سيطفو إلى السطح ذات يوم.

- أرى السيارة! صرخت ليلى. هل أستطيع أن أفتحها بواسطة جهاز الإنذار؟

ناظراً إلى ابنته وهي تصدر أوامر الفتح الأوتوماتيكية للأبواب، تساءل مارك من أين بوسع الخطر أن يأتي.

كان الهواء عليلاً، وأبداً لم تكن السماء زرقاء كما هي الآن.

قبل أن يستقر أمام المقود، ألقى نظرة على ساعته: إنها الثامنة و45 دقيقة.

بعد أقل من دقيقة ستصدم الطائرة البرج الشمالي.

بعد أقل من دقيقة، ستفقد نيويورك معالمها الرئيسية وكل يقينياتها.

*

26 آذار/ مارس 2002

فلاش إخباري - سي. إن. إن/ الولايات المتحدة

«بعد ثلاثة أيام من التحري، لا نزال نفتقر لأي معلومات حول الطفلة ليلى هاثواي، خمس سنوات، التي اختفت الأربعاء داخل مركز أورونج كونتري التجاري.

«ليلى هي ابنة عازفة البيانو نيكول كوبلاند وعالم النفس مارك هاثواي الذي، فضلاً عن ذلك، كان قد ألح، مخالفاً بذلك توصيات مكتب التحريات الفيدرالي، على التحدث أمام كاميراتنا متوجهاً إلى مختطفي ابنته المحتملين».

يظهر مارك على الشاشة، شاحباً، وبعيون محاطة بهالات زرقاء، ووجه منهك.

«أود أن أقول لمن اختطفوا ابنتي أنه ليس عليهم أن يصيبوها بأي أذى... اطلبوا مني فدية، سأدفعها... اطلبوا مني شيئاً مهما يكن، سأفعله. لكن لا تؤذوا ابنتي. أتوسل إليكم...».

*

ثمة لحظة محددة للكل، ووقت محدد لكل شيء
تحت السماء
وقت للوضع، ووقت للموت (...)
وقت للقتل، ووقت للشفاء
وقت للهدم، ووقت للبناء
وقت للبكاء، ووقت للضحك (...)
وقت للتمزيق، ووقت للرتق
وقت للصمت، ووقت للكلام

وقت للحب، ووقت للكراهية (. . .)

الإنجيل، الفصل 3

*

10 كانون الثاني/ يناير 2005

- سأذهب، كونور.

كان مارك قد دلف للتو إلى مكتب صديقه، في عيادتهما التي انتقلت منذ بضعة أشهر إلى عمارة تايم وارنر سنتر الجديدة، محل إقامة متوقع منذ وقت طويل، لكن مارك لم يشارك فيه. فمنذ اختفاء ابنته قبل ثلاث سنوات، لم يأت إلى العمل مكرساً كل وقته للبحث عن ابنته.

- تذهب أين؟

- لا أعرف. على كل حال، يمكنك أن تنتزع اسمي من لافتة العيادة. لو أردت بوسعك أن تشتري نصيبي. تشاور مع نيكول، فهي لن تعمل منها قصة.

- تماسك، يا صديقي! أجاب كونور فيما يعانق صديقه. إن ما تقاسيه لهو فظيع، لكنك لست وحدك. لديك امرأة تحبك، وأنا هنا أيضاً. اليوم، أكثر من أي وقت مضى، لدينا حاجة لنكون معاً.

- أعرف، قال مارك وهو يخلص نفسه من صديقه، لكن لم يعد بوسعي أن أتظاهر، إنه أمر يفوق طاقتي.

لم يسلم كونور بالهزيمة مع ذلك.

- لطالما اجتزنا كل شيء، أنت وأنا! هل تتذكر! في الحياة، وفي الموت! دعني أساعدك بدوري، كما ساعدتني في ما مضى.

لكن مارك بقي أخرساً أمام كلمات صديقه. حينئذٍ، استرسل كونور كما لو ليحاول أن يقنع نفسه بذلك:

- ينتهي بنا الأمر بالبقاء على قيد الحياة، لكننا أبداً لا ننسى، يمكث الألم باستمرار في أعماق قلوبنا، لكن الأمر ينتهي بنا إلى البقاء على قيد الحياة. ذلك ما أقوم به خلال كل هذه السنوات وأعلمك أن تعمله.

لكن مارك لم يعد يسمعه. وقد أصابه القنوط، حاول كونور إنذاراً أخيراً:

- لا تقترف الحماقات: إذا توغلت بعيداً جداً فإنك لن تستطيع أن ترجع.

هز مارك كتفيه وتوجه ناحية الباب. كان سلفاً في مكان آخر.

- إذا لم أرجع مع ليلى، فإنني أفضل أن لا أرجع.

26

انتقامنا سيكون صفحاً[1]

عش باستقامة، ذلك أفضل انتقام.

التلمود

اليوم

في الطائرة

الخامسة وعشر دقائق

- لم أعد أريد! زفرت ليلى فيما تضع ملعقتها على الطاولة. كان مارك وإيفي وليلى لا يزالون جالسين في الفلوريديتا. ببطن ممتلئ، نظرت الطفلة بتحسر إلى ما تبقى من كْرِيمتها المثلجة الضخمة التي لم تستطع أن تنهيها. نكش أبوها بحنان شعرها ثم انحنى باتجاه النافذة. في الأسفل، كان بساط السحب يمتد إلى ما لا نهاية. وكانت الأسرار التي باح مارك بها لإيفي للتو قد أغرقته في جذور ماضيه وأيقظت فيه كثيراً من الذكريات المطمورة التي لم يشأ أن يتشبث فيها إلا بشيء وحيد:

- ليس عليك أن تعملي مثل كونور، أكد وهو يستدير نحو

(1) توماس بورغ.

إيفي. ليس عليك أن تفسدي حياتك فيما تسعين للانتقام.

نظرت إليه المراهقة بارتياب.

- على ما أظن، فإنك لا تستطيع أن تفهم...

- لكن، بلى...، قاطعها مارك. أستطيع فهم ألمك، لأنه يشبه ألمي! أنت تتألمين وهو ما لا يمكن تحاشيه. ما تعرضت له أمك لهو عمل إجرامي ومن الطبيعي أن تمتلئي بالغضب...

- ... وبالبغض، أكملت إيفي بعينيين براقتين.

وضع مارك يده على كتفها.

- بمقدور الغضب أن يكون ورقة رابحة، بشرط أن نقوم بتحويله إلى قوة إيجابية.

- ما تقوله لا يعدو كونه حماقات عالم نفس! صرخت المراهقة.

تمعن مارك في الحجة لبضع ثوان قبل أن يعاود مجدداً:

- الانتقام سيطفئ ألمك، صدقيني، ثم إن من يتكلم ليس عالم النفس.

- لو كان كونور هنا...

- لو كان كونور هنا، لعله قال لك إن الشر الواقع علينا لا يمكن إصلاحه بهذه الطريقة أبداً. لقد اختبر ذلك.

- لكن هذا الرجل... غمغمت إيفي بصوت يطبعه الألم، هذا الكرايج دافيس، كنت أرغب أن أرد له عشر مرات،.. مائة مرة، الألم الذي سببه لي.

- لو قتلتيه، فلن يعيد لك ذلك أمك، وقتلك له سيظل يلاحقك طوال حياتك. وبعد ذلك، لن يعود شيء كما كان من قبل...

قدم مارك كأس ماء للفتاة الشابة التي بللت به شفتيها قبل أن تبوح بصوت متأثر:

- منذ أن فتحت عيني على هذه الدنيا، أمي وأنا، لطالما أُذللنا واحتقرنا من قبل رجال أمثاله. . .

- أستطيع أن أتخيل. . قال الطبيب.

- لم أعد أريد أن أترك نفسي تسحق.

- معك حق، صادق مارك، لكن هنالك وسائل أخرى غير الانتقام من أجل بلوغ ذلك.

رفعت إيفي عينيها المرتابتين إليه.

- ماذا علي أن أفعل بحسب رأيك؟

تردد مارك بضع لحظات، واعياً بردة الفعل العدوانية التي كان يوشك أن يثيرها لدى الفتاة.

- الصفح.

- لا! لا أريد أن أصفح! ثارت الفتاة. لا أريد أن أنسى!

- أن تصفحي لا يعني أن تنسي، شرح لها بتروٍّ، ولا أن تغفري ولا أن تبرئ ساحته. بخلاف الانتقام الذي يغذي الكراهية، فإن الصفح يحررنا منها.

بدورها ترددت لحظة قبل أن تسأل بصوت مرتعش:

- لو كانت ابنتك هي من قتلت، هل ستصفح؟

- لا أدري إن كنت قادراً على ذلك، أقر مارك من دون أن يسعى إلى التملص من السؤال، لكنني متأكد أنني كنت أحاول.

نظر إلى ليلى: كانت تتسلى بالمظلات الورقية التي تزخرف كأسها.

- أعتقد أن الصفح هو الشيء الأكثر صعوبة في العالم. . استأنف، وهو ما يتطلب قدراً أكبر من القوة.

واصل مارك بصوت هادئ:

- لكن، أن تصفحي فذلك من أجلك يا إيفي. لكي تتحرري من الماضي، وتمتلكي في نهاية المطاف إمكانية أن تعيشي حياة طبيعية.

هزت إيفي كتفيها.

- بالنسبة إلي، قضي الأمر سلفاً: لا عائلة ولا نقود ولا أفق...

- تباً له! رد مارك، حياتك لا تزال أمامك! لا تبحثي عن أعذار خائبة كي لا تمضي إلى الأمام.

- لكن هذا الرجل قاتل! صرخت إلى حد الاختناق.

حينئذٍ، خلص مارك إلى ما كان يريد أن يقوله للفتاة الشابة منذ البداية:

- تعرفين يا إيفي، إنني أفكر أن خلف هذا الكرايج دافيس، الشخص الحقيقي الذي تسعين إلى معاقبته...

انتظرت المراهقة. واصل مارك:

- ... الشخص الحقيقي الذي تسعين لقتله، هو أنت نفسك.

- لا! احتدت إيفي وكانت الآن على حافة الدموع. من دون أن يترك لها الوقت لتمتص الصدمة عاد إلى الإلحاح:

- بكل تأكيد إن الأمر كما قلت! أنت تلومين نفسك لأنك وضعت كلام أمك موضع شك. بمعنى ما، أنت تحسين أنك مسؤولة عما حدث لها، وهذا ما لا تستطيعين أن تتحمليه.

- هذا ليس صحيحاً! دافعت إيفي عن نفسها، لكن الدموع التي سالت على وجهها كانت تساوي كل الاعترافات.

- لا تعتقدي أن الأشياء كانت لتختلف، جادل مارك، لا شيء مما حدث كان خطأك، يا إيفي، لا شيء.

كانت المراهقة تهتز الآن من النشيج.

- لماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم أصدق كلامها؟

- ستجتازين ذلك، أكد الطبيب فيما يطوقها بذراعيه.

- لطالما كذبت علي، لكن ليس هذه المرة، ليس هذه المرة.

- ستجتازين ذلك.

من دون تأخير، استسلمت إيفي ودفنت رأسها في كتف مارك. من دون أن تكون قد توقعت ذلك، كان قد حرر فيها شيئاً ما مطموراً في الأعماق السحيقة.

خلال دقيقة، أحد لم يتحدث إلى أن سألت ليلى:

- بابا، لماذا تبكي، إيفي؟

- لأنها حزينة.

- بسبب أمها؟

وافق مارك بإيماءة صامتة من رأسه. بدورها ضمت ليلى إيفي بين أحضانها.

- لا تحزني، قالت الصغيرة وهي تربت على شعر أختها البكر.

وقد عاد إليها الهدوء، رفعت إيفي عينيها نحو مارك. ناولها الطبيب منديلاً ورقياً، ولم تمر سوى بضع ثوان حتى فاح أريج التعارف في الجو.

- بابا، أريد أن أتبول. على حين غرة، أعلنت ليلى بصوت رضيع.

- سأرافقك، اقترحت إيفي.

وافق مارك، واتفق معهم أن يلتقي بهما على مقعديهما بأسرع وقت ممكن. وبينما يدفع الحساب، نظر بامتنان إلى إيفي وليلى تبتعدان. كانتا تمسكان بيدي بعضهما مثل أختين تسهر أحدهما على الأخرى.

*

كان مارك يتأهب للمغادرة، بعد أن ترك لإسحاق بقْشِيشاً مناسباً إلى جوار طبق الكريم المثلج.

حينئذٍ رآها.

كانت أليسون هاريسون تجلس وحيدةً في عمق الصالة وقد أنهت كأسها الثانية من دوم بيرينو.

- شامبانيا وردي... صرح مارك فيما يقترب من طاولة الوريثة.

نزعت أليسون نظارتها ورفعت عينيها محدقة به.

- هل ستقول لي مرة أخرى، إنه شراب هيمنغواي المفضل؟ كنت فضلت عليه الويسكي...

- على كل حال، كان شراب كاري غرانت ودو دوبوراه كير المفضل[1].

بإيماءة، دعته إلى الجلوس.

منذ حدة محادثتهما السابقة، كانت تتمنى أن يعود. إذ كان هذا الرجل - الذي لم يكن وجهه غريباً عليها- يمتاز بجاذبية غريبة لا تقارن بالسحر والفتنة.

الجملة الاعتراضية لم تستمر، بيد أنها ما إن باحت له بلواعجها قبل ساعات حتى أحست بنفسها متحررة من عاطفة الكراهية التي تسكنها منذ وقت طويل.

- لماذا لدي الانطباع بأنني أعرفك؟ سألت.

- هل ما زالت مجدية، هذه الحيل، للمغازلة؟

كشفت نبرة صوته عن دهشته.

- كلا، إنني جادة في ما أقول.

---

(1) إحالة إلى مشهد بارز من فيلم **هو وهي** لدو ليو ماك كاري.

لعب مارك على نحو مباشر:

- لنقل إنني عشت ربع ساعة من المجد الإعلامي، قبل سنوات.

- في أي مجال؟

- علم النفس، شاهدني الناس كثيراً حينها على قناتي سي. إن. إن. و إم. إس. إن. بي. سي. كنت الطبيب المختص بالخدمة الاجتماعية، أي من يطمئن المتفرجين بعد كل حدث تراجيدي: قتل كولمبين، هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، غارات الجمرة الخبيثة...

- ألم تعد تقوم بذلك؟

- لا، انتهى ذلك.

- لماذا؟

- حدث تراجيدي، بمعنى الكلمة. سوى أنني هذه المرة كنت المعني الأول بالأمر. في حالات كهذه، يتكون لدى المرء الوعي بأن كل النصائح التي قدمها للآخرين بأسلوب تلقيني لا يمكنها أن تقدم لهم في نهاية المطاف الشيء الكثير في مواجهة ألمهم الخاص.

اجتاز ظل وجه الطبيب. كانت أليسون تتحرق كي تعرف المزيد، لكن صمتاً استقر بينهما وحولها نحو ضيقها الخاص. وكان الكحول الذي تجرعته على مدار الرحلة يسبب لها الآن آلاماً في الرأس. مع ذلك، صبت لنفسها كأساً من الشمبانيا وأكرهت نفسها على تجرعه دفعة واحدة. كانت توشك على تكرار فعلها، عندما وضع مارك يده على يدها كي يثنيها عن ذلك.

- لو اضطروا إلى حملك على النزول من الطائرة، فسيغتنم أصدقاؤك المصورون السريون الفرصة بقلب مبتهج. لا تمنحيهم هذه الهدية.

هزت كتفيها.

- لم أعد أعيش بذلَّة منفردة.

- لماذا تتصارعين هكذا ضد نفسك؟

- لأنها الحرية الوحيدة التي بقيت لي، أجابت وقد التمعت عيناها. لأن حياتي لم تعد تساوي شيئاً.

- أعرف أن الرجال لا يفترض بهم أن يطرحوا هذا السؤال، لكن في أي عمر أنت يا أليسون؟ أربعة وعشرين؟ خمسة وعشرين؟

- ستة وعشرين.

- كيف يتسنى للمرء أن يقول إن حياة ما لم تعد تساوي شيئاً في السادسة والعشرين؟

- هذه مشكلتي.

على نحو متعمد استفزها مارك:

- لا تعتمدي علي في البكاء عليك. لديك كل ما ترغبين به: النقود والشباب والصحة دونما شك... أنت تدعين أن حياتك لا تساوي شيئاً، حسناً غيِّريها. قومي بشيء آخر مع ناس آخرين. بوسعك حتى أن تبدئي من الصفر: تبتاعين لنفسك وجهاً جديداً، اسماً جديداً، حياة جديدة.

- إن المرء لا يعيد صنع حياته، يستأنفها فقط. كل الناس تعرف هذا سيدي الطبيب النفسي.

- طرحت عليك سؤالاً هذا الصباح، لكنك لم تردَّ علي.

- لم أعد أتذكر، ادعت وأبدت انزعاجها.

- أردت أن أعرف، لماذا تسعين لمعاقبة نفسك؟

في البدء، بقيت أليسون صامتة. ثم أحست نفسها منجذبة نحو حاجة لا تقاوم إلى الإفضاء بكل شيء لهذا الرجل الذي لم تعرفه إلا

منذ بضع ساعات. كانت الحاجة إلى تفكيك السر الذي يقوضها من أساسها شديدة. بالطبع، كان بوسع النتائج أن تكون مرعبة: السجن، الخزي... لكن، عند النظر إلى الأمر بتمعن، فقد صارت حياتها منذ سنوات سجناً.

بالنسبة إلى الخزي...

عندما تقاطعت نظراته بنظرات الشابة، فهم مارك أنها كانت المرة الأخيرة التي يطرح فيها سؤاله:

- لماذا تسعين إلى معاقبة نفسك؟

- لقتلي صبياً صغيراً، أجابت أليسون.

27

أليسون

ثالث فلاش باك

بيفيرلي هيلز، كاليفورنيا

ربيع 2002

الثانية بعد الظهر. في إحدى حجرات شقة باذخة وذات طراز متوسطي، فتحت أليسون عيناً لتغلقها في الحال.

آي، رأسي!

كانت قد نظمت، ليلة البارحة، أمسية كبيرة للاحتفال بعيد ميلاد صديقها الحالي، عبارة عن لقاء ضم حفنة من شباب بيفرلي هيلز الذين يسايرون الموضة. استمر الاحتفال إلى وقت متأخر من الليل، بحيث لم تذهب أليسون إلى الفراش إلا عند الفجر وكانت ثملة تماماً وتشعر بالغثيان.

عندما حزمت أمرها أخيراً ونظرت إلى الساعة، أطلقت شتيمة حقد وقفزت خارج السرير.

اللعنة!

كانت قد وعدت بأن تحضر افتتاح الصالة الرياضية الجديدة من قبل شخصية مهمة في هنتنغتون بيش وهاهي تتأخر عن الموعد.

سارت بضع خطوات باتجاه صالة الحمام، لكن كان من العسير عليها أن تستيقظ: كانت تحس كما لو أن ملزمة تضغط على صدغيها بإحكام وكان لديها حرقة في المعدة وفمها جاف وجفونها ثقيلة. وفي تلك اللحظة تحسرت على كل كأس فودكا وعلى كل قنينة تاكيلا تجرعتهما ليلة البارحة برفقة ابتسامة. كانت قد اعتادت بمضي السنوات على استيقاظات صداع ما بعد الشراب. مع ذلك، في كل مرة، كانت تقسم أنها لن تعود إلى تناوله أبداً، لكن قراراتها الصائبة لا تدوم أبداً لوقت طويل.

بعد أن بللت وجهها بقليل من الماء، زحفت إلى المطبخ حيث كانت غرازييلا، مربيتها البرتوريكية العجوز، تتحرك منذ الصباح لتعيد النظام إلى الشقة بعد فيضانات البارحة.

- لماذا لم توقظيني؟ اقتربت أليسون منها.

- لم تطلبي مني ذلك.

- وماذا كنت تنتظرين؟ إنها الثانية من بعد الظهر!

أخرجت المواطنة الإسبانية طبقاً من الفرن ووضعته على الطاولة.

- أمسكي، أعددت لك الفطائر التي تحبينها.

لكن أليسون دفعت الطبق بفظاظة.

- بالدهن والسكر! أنت مجنونة أو ماذا! لا أرغب في أن أنتهي سمينة مثلك!

تحملت غرازييلا التوبيخ من دون ردة فعل. كانت تعمل في خدمة ريتشارد هاريسون منذ أكثر من عشرين عاماً، فهي تعرف أليسون منذ ولادتها. فيما مضى، كانتا منسجمتين. وكانت أليسون تسرد على مسامع غرازييلا أحداث يومها وانشغالاتها وأسرارها. لكن منذ بعض الوقت، اتسعت الشقة بينهما.

وقد تعكر مزاجها، تناولت المرأة الشابة بعض بتلات الشوفان وخلطتها بعصير البرتقال.

- أشعر بألم في البطن، اشتكت فيما تفتح الواجهة الزجاجية.

كان المطبخ يطل على مجموعة رائعة من المنازل المنضدة حول مسبح واسع ممتلئ بالماء على شكل غيتار. جلست أليسون لبضع ثوان على كرسي من خشب الساج، بيد أن قطرات المطر التي بدأت بالتساقط أجبرتها على ترك الكرسي.

حتى الطقس! تنهدت الوريثة من أعماقها.

في عودتها إلى المطبخ، بحثت عن قرصين من الفوار وأذابتهما في كأس من الماء.

- يفضل أن تأخذي باراستامول، لفتت غرازييلا انتباهها. الأسبرين ينذر بمضاعفة حرقة معدتك.

- ماذا تعرفين عن حرقة المعدة، احتدت أليسون مغتاظة. لست طبيبة، أنت خادمة منزل!

كانت هذه الإهانة هي آخر ما قالت قبل أن تغادر المطبخ وتذهب لتغلق على نفسها داخل صالة الحمام، حيث ستهيل على نفسها ماءً بارداً يؤذيها أكثر مما يهدأها. عند عودتها إلى الغرفة، ارتدت بنطال جينز ضيق من ماركة بلو كيلت وصنادل رومانية من ماركة فيراغامو ثم، بتعصيب، قلبت الخزائن رأساً على عقب بحثاً عن قميص.

- أين وضعتيها! صرخت وهي تهبط إلى المطبخ.

- ماذا هنالك أيضاً؟ سألت غرازييلا.

- كنزتي!

- لديك المئات منها.

- كنزتي الوردية، ماركة ستيلا ماك كارتني!

- إن لم تجديها، فلابد أنها في المغسلة.

- لكن، طلبت منك أن تغسليها!

- لم تطلبي على الإطلاق. وأوقفي نزواتك يا أليسون. عمرك اثنين وعشرين عاماً لا عشرة أعوام.

- لا يحق لك أن تتحدثي إلي هكذا!

- أتحدث إليك كما كانت لتتحدث أمك لو كانت على قيد الحياة.

- لكنك لست أمي، أنت مستخدمتي.

- ربما أكون مستخدمتك، لكن سأقول لك أربع حقائق مع ذلك: لقد صرت لا تطاقين يا أليسون. وتتصرفين كطفل مدلل، سطحي وأناني. لم يعد لديك قلب ولا إنسانية. لقد تلوثت بكل ما تجلبه النقود من مساوئ: الاحتقار وفقدان القيم. مازلت لا تفهمين أن الثروة لا تمنح حقوقاً فقط وإنما تتطلب أيضاً واجبات. لكن الواجبات لا تعنيك! ولا تملكين أي مشروع لحياتك. والحال كذلك، نعم، ربما أكون مستخدمتك يا صغيرتي، لكن ذلك لا يمنع أنك منذ بعض الوقت تشعرينني بالخجل...

وقد جرحتها الحقيقة القاسية التي صفعتها بها غرازييلا، أمسكت أليسون صحن الحبوب الموجود على الطاولة، ومن دون أن تحسب عاقبة فعلها رمتهُ في وجه مربيتها.

على الرغم من سنها المتقدم، كانت غرازييلا من اليقظة إلى الحد الذي سمح لها بأن تتفادى الوعاء المقذوف الذي انتهى به المطاف بالتهشم على الجدار.

لثوان، بقيت المرأتان مسمرتان أحداهما أمام الأخرى، يشلهما العنف وفجائية مواجهتهما.

كانت أليسون هي من استسلمت أولاً. إذ فرت من المنزل لائذة

بسيارتها ذات الدفع الرباعي واللون الأحمر الفاقع. مرتعدة وبعيون مبللة، أدارت مفتاح التشغيل وأسرعت إلى مغادرة العزبة.

*

لماذا فعلت ذلك؟

كان مطر غزير تتخلله بروق ورعود يهطل على سطوح المنازل المصطفة في خط مستقيم تماماً، بحدائقها المزهرة والمعتنى بها عناية لا تحتمل أدنى خطأ. انطلقت جيب الرانغلر بأقصى سرعة على امتداد الشوارع المحفوفة بأشجار النخيل والدلب.

لماذا كنت بغيضة إلى هذا الحد؟ تسألت أليسون فيما تمتلئ عيناها بالدموع.

كانت تعرف أن كل ما قالته غرازييلا للتو كان صحيحاً. فقد كانت تتصرف، منذ بعض الوقت، مثل بلهاء صغيرة. وكان إسرافها في تعاطي الكحول والمخدرات يعيقانها عن السيطرة على نفسها فيما كان طيشها يجرفها أحياناً إلى شفا الكارثة.

بينما كان المطر يزداد غزارة، غادرت المرأة الشابة روابي بيفرلي هيلز المتأنقة وتغلغلت داخل تقاطعات سكك حديد كاليفورنيا. اتجهت تلقائياً نحو ساحل هنتنغتون، بيد أنها تعرف الآن أنها لن تذهب إلى الافتتاح.

حاولت أن تعيد ترتيب أفكارها بينما ترزح تحت مشاعر الخزي. كان عليها أن تغير أسلوبها في الحياة وكان ذلك ضرورياً. وإلا فإنها ستنتهي بالانزلاق واقتراف ما لا يمكن إصلاحه.

ابطأت أليسون من سرعتها كي يتسنى لها مسح دموعها.

كان المطر يزداد غزارة إلى درجة أنهك معها ماسح السيارة الذي كان يكد في تصريف المياه عن الزجاج الأمامي.

حاولت المرأة الشابة أن تدخل الطمأنينة إلى نفسها بالقول إنها لا تزال شابة، ولم تضيع سوى بضع سنوات، وإن الوقت لا يزال مواتياً لتتدارك نفسها وتستأنف دروسها، متوقفةً عن مخالطة الأصدقاء الذين ليسوا فعلاً أصدقاء، وعن الخروج مع المتباهين الصغار التافهين.

تيارات الرياح تؤرجح السيارة الجيب. وعلى الطريق السريع، بضع لافتات إرشادية تحث على الحذر.

كانت أليسون قد تجاوزت يأسها وشرعت في العودة إلى المنزل وقد عقدت العزم على أن تطلب الصفح من غرازييلا شاكرة لها كونها من فتحت عينيها ومقررة أن تمضي فترة ما بعد الظهر معها متخلية لها عن جزء من المسؤولية في اتخاذ القرارات الصائبة. ومثلما كانت تفعل عندما كانت صغيرة، ستساعدها في إعداد الوجبة. كما وضعت في حسبانها أن تزف، هذا المساء، الخبر السعيد لأبيها. بالمناسبة، كان ريتشارد هذا الأسبوع في لوس أنجلوس. لطالما كانت لديه مشاريع كبيرة لأجلها، لكنها ابتعدت عنه بدافع التحدي والحماقة. مهما يكن، كان ليتفاخر مجدداً بابنته!

متعجلة على تنفيذ نواياها، انحشرت بين السيارات كي تتبع أول مخرج تراءى لها. كان الطريق السريع يطل على أحد الأمكنة النموذجية في لوس أنجلوس، حيث تتابع مواقف السيارات التابعة للمناطق التجارية. ولقد ضيقت أليسون عينيها كي يتسنى لها تمييز اللافتات الإرشادية خلال ستائر المطر. والحق يقال، لم يكن يمثل معنى الاتجاه نقطة قوتها على وجه التحديد. لذا فقد ضلت التقاطع الذي أرادت أن تسلكه ووجدت نفسها في نهاية المطاف تطل على حاجز مدخل الموقف في الهواء الطلق. مصحوباً بريح عنيفة، كان المطر الذي يتساقط بغزارة أشبه ما يكون بعرض مشهدي. ولقد أعاد

إلى ذهن أليسون فيلم مانغوليا الذي ينتهي بمطر من الضفادع غامض ومفزع. توقفت عربات كثيرة في الممر الجانبي بانتظار أن تهدأ العاصفة، لكن أليسون تابعت طريقها.

رن جرس الهاتف فجأة. كان الجهاز في حقيبة اليد، وكانت الحقيبة في أسفل مقعد الراكب. وإننا لنعرف أن من غير المسموح الرد على الهاتف فيما نحن أمام عجلة القيادة، بيد أننا نعملها مع ذلك...

انخفضت أليسون كي تتناول هاتفها المحمول، قائلة لنفسها أنها ستنظر فقط إلى الرقم واسم المتصل كي تتصل به فيما بعد حين ت...

كان الاصطدام عنيفاً وغير متوقع.

استيقظت أليسون مفزوعة. فلقد ارتطمت بشيء ما. حافة رصيف؟ حيوان؟ داست على الفرامل وفتحت باب الجيب. وخلال ثلاثة ثوان كانت نبضات قلبها قد تضاعفت. بمجرد نزولها من السيارة تحققت أسوأ مخاوفها: ما دهسته لم يكن شيئاً، بل إنساناً.

طفل.

*

- بخير؟ لم تصب بشيء؟

ارتمت باتجاه الصبي الصغير، وإذ تنظر إلى جسده الهامد انتابها الذعر. كان ضعيفاً وضئيلاً. ولم يكن ثمة أثر للدم على ثيابه أو على الأرض، لكن كانت وضعية رأسه تستدعي الخشية من أن تكون قد اصطدمت بإحدى الأصص الخرسانية التي تحف الشارع.

مشوشة، أدارت أليسون رأسها إلى كل الاتجاهات مفتشة بيأس عن مساعدة.

- أغيثوني! ساعدوني!

كان المكان مقفراً. وكانت العاصفة التي توحدت بهزيم الرعد ولمعان البرق أكثر ضراوة في قوتها وأخلت الشوارع.

لا تخف! لا تخف!

استدارت نحو سيارتها والتقطت هاتفها النقال وألفت الرقم 911، لكن رقم الطوارئ كان مشغولاً، بسبب العاصفة دونما شك.

حاولت لمرة ثانية ثم ثالثة. لكن دونما نجاح.

رغم الوابل، قررت أن تحمل الطفل إلى المستشفى بنفسها.

بكل احتراس، رفعته وحملته إلى الجيب.

- ستنجو منها! قاوم!

انطلقت، وتسنى لها رغم ذعرها بلوغ الطريق السريع. لم يكن المستشفى العام، الواقع في شرق داون تاون، بعيداً جداً.

- لا تمت!

كانت مياه الأمطار مختلطة بالدموع، تنضح منها في جداول. لم تكن تؤمن بالله، لكنها توسلت إليه مع ذلك:

بمشيئتك، نجِّه مما هو فيه! نجه مما هو فيه!

كانت الثالثة بعد الظهر. مع ذلك، بفعل وابل المطر، كان كل شيء على الطريق معتماً وبلا شكل حتى ليظن المرء أنه في منتصف الليل.

لا تعاقبني من خلاله.

وفي الحال، وصلت السيارة إلى موقف الطوارئ، لكن المدخل الرئيس كان مسدوداً بشاحنتي إطفاء حرائق تباشران أعمالهما. عوضاً عن الانتظار إلى أن تغادرا، فضلت أليسون أن تسلك خلال الثغرات المضيئة التي تدعو إلى التوجه إلى المواقف الخلفية. ما أن وصلت

حتى أوقفت المرأة الشابة سيارتها بمباغتة. فتحت الباب ودارت حول السيارة الصالحة لكل أرض. حملت الطفل على ذراعيها. لكنها بمجرد أن رفعته اضطرت إلى التسليم بما لا يقبل الجدال: مات الصبي الصغير. أطلقت صرخة رعب. على نحو غير طبيعي، راحت تضمه بقوة إليها.

مرت لحظة طويلة قبل أن تغلق أبواب السيارة. مخبولة وغير متيقنة مما عليها أن تعمله، غرقت في حالة من الإعياء. حينئذٍ، من قبيل الفعل اللاإرادي، قررت أن تتصل على رقم أبيها.

*

بعد نصف ساعة

توقف المطر. عوضاً عنه خيم على الموقف غيم مشبع بالرطوبة.

اخترقت سيارة هامر ذات زجاجات ملونة فناء المستشفى العام. كان ريتشارد هاريسون هو أول من نزل منها، وعلى مسافة قصيرة خلفه سار رجل أسود ذو قامة لافتة. وكان كورتيز، هذا اسمه، هو الحارس الشخصي لهاريسون وفي الوقت نفسه منفذ أعماله الوضيعة. وذلك أن رجل الأعمال، خلال صعوده المهني، حرص على أن يحيط نفسه بعدد قليل من الأشخاص الذين يتكفلون بكل شيء ولا يترددون عن التضحية بحياتهم لأجله. وكان كورتيز واحداً من هؤلاء.

وقعت نظراتهما فوراً على أليسون. كانت تجلس إلى جدار منخفض وتسند رأسها إلى ذراعيها المتقاطعين. كان وجهها شاحباً وملابسها مبللة فيما ترتعش وتصطك أسنانها، فبدت كما لو أنها أصيبت بنوع من الهذيان. وكانت تضم في إحدى يديها المتشنجتين، إلى حد انبثاق الدم، سلسلة فضية وقعت من الطفل داخل السيارة.

انحنى ريتشارد باتجاه ابنته ولامس وجهها بيده فتحقق من أنها كانت تحترق بالحمى.

- خذها إلى المنزل، طلب من كورتيز، غرازييلا ستعتني بها. اتصل بالدكتور جنكينز إذا تفاقمت حالتها ودع الطائرة في حالة تأهب للإقلاع.

بينما كان كورتيز يلف أليسون بغطاء ويحملها إلى سيارة الهامر، فتح ريتشارد باب الجيب فوقعت نظراته على جثة الطفل، فأغلق الباب في الحال.

- و«الباقي»؟ سأل كورتيز بصوت بارد.

- ما تبقى، أنا سأتكفل به، أجاب ريتشارد.

*

صحراء موجاف

شرق كاليفورنيا

كان ريتشارد هاريسون يجلس أمام مقود سيارة الجيب الخاصة بابنته ويقود منذ ثلاث ساعات. كان قد غادر العاصمة المنبسطة كي يغوص في الصحراء. فمن بعد رعب، كان الآن في رحلة مع -على مقعد السائق- غطاء اسكتلندي يلف، مثل كفن، جثمان طفل. لم يكن، حتى في أسوأ كوابيسه، يتخيل أنه سيقاسي ألماً كهذا ذات يوم. كان قد اجتاز في حياته كل أنواع التجارب: فيتنام 1965 عندما كان ضابطاً شاباً، السرطان الذي أصاب زوجته التي كان قد لازمها خلال كل مراحل المرض، الحرب الاقتصادية التي يعيشها كل يوم داخل عالم المال والأعمال... في مراهقته، في سبيل السيطرة على مخاوفه، كان يعمد باستمرار إلى استباق أسوأ المخاوف باستعراضها ذهنياً على أمل التعايش معها. مع تقدم العمر ازداد صلابة، بيد أنه

حافظ على هذه العادة. في السنوات الأخيرة، بالطريقة ذاتها، راح يعد نفسه للمرض، للموت، مستشعراً الجدارة في مواجهة كل ذلك بشجاعة. لكنه لم يهيئ نفسه قط لمثل هذا: أن يدفن بيديه طفلاً قتلته ابنته. وأن يجد نفسه بمواجهة السؤال حول مدى جدارته في الذهاب بهذا الأمر إلى نهايته. منذ انطلاقته على هذه الطريق، كان قد توقف عدة مرات كي يتقيأ، ليتابع من ثم طريقه وقد فتح النوافذ على سعتها خشية أن يصير الهواء غير قابل للتنفس. مع ذلك، ما انفك يشعر بالاختناق وبأنه على وشك الإصابة بانسداد الشرايين. لكن ما كان له أن يتخلى عن ابنته. فقبل أسابيع، صدر ضدها حكم يقضي بتعليق رخصة قيادتها بعد أن قبض عليها متلبسة بمخالفة؛ القيادة في حالة سكر. وإذا ما أوقفت الآن بتهمة قتلها طفلاً أثناء قيادتها من دون امتلاك رخصة لحكم عليها بالسجن عدة سنوات. وآنذاك، لن يسعه على الرغم من علاقاته أن يعمل شيئاً من أجلها. والحال كذلك، ليس أمامه لإنقاذ الموقف وتجنيب ابنته هذه العقوبة سوى متابعة طريقه.

بعد تجاوزه بالم سبيرنغ بمسافة قصيرة، توقف في محل لبيع المعدات كي يشتري رفشاً ومعولاً. وبينما يدفع قيمتهما نقداً، راح يدير رأسه بعيداً عن كاميرا المراقبة، بالكاد تأكد له أن أحداً لم يتعرف إليه. لقد كان مالك إحدى أكبر الثروات في البلد. إلا أنه، باستثناء الصحافة الاقتصادية، فلم يكن لديه الغطاء الإعلامي الذي لبيل غيتس أو دو وارين بوفييت. إلى ذلك، فقد كان بمقدوره، يا لحسن طالعه، أن يراهن أن الفتاة الواقفة عند درج المحاسب، كانت تتابع على الأغلب القناة الإرشادية أكثر من متابعتها قناة أسبوع المال والأعمال.

بالمقابل، كانت أليسون تمثل عقبة أخرى: بأعمالها الطائشة، كانت قد حازت الكثير من الصيت السيئ لدى قراء صحافة الحوادث، إن لم يكن. . . لدى كل سكان لوس أنجلوس. من جهة أخرى،

على الرغم مما قالته له على الهاتف، كان ريتشارد يجد صعوبة في تصديق أن شاهداً لم يكن حاضراً وقت وقوع الحادث، ما يجعله يخشى أن البوليس لن يستغرق وقتاً طويلاً حتى يصل إليها، فقد كان عليه أن يتصرف بسرعة، بسرعة كبيرة جداً.

*

خلال ساعة من الآن، كان على سيارة الجيب التي يقودها أن تستمر في اجتياز الكتل الجبلية والسهول الصخرية حيث لا ينمو سوى الصبار. وبينما يخيم الظلام، وصل ريتشارد إلى منبسط بري غير بعيد عن حدود نيفادا. غادر الطريق الرئيسة كي يغوص في منطقة مكسوة بالحصى المغبر وبالصخر الصلب. ولقد لمح وسط هذه الأرض القاحلة قطعة أرض منزوية ذات تربة متصدعة، تظللها شجرة غوشيه. خاطبه المكان، فأوقف سيارته تاركاً مصابيحها مضاءة.

كانت السابعة مساء، عندما عزق ريتشارد بالرفش العزقة الأولى.

في العاشرة، أنزل الجسد في الرمس.

في منتصف الليل، ألقى آخر غرفة تراب.

في الواحدة صباحاً تلا صلاته الأخيرة وقاد سيارته سالكاً الطريق في الاتجاه المعاكس.

في الثالثة، كان كورتيز ينتظره في مكان ما لإشعال النار في سيارة الجيب قبل أن يخلفاها وراءهما وقد أضحت هيكلاً.

في السادسة، عاد ريتشارد إلى بيفرلي هيلز وأخذ ابنته إلى المطار.

بعد ساعتين، أقلعت طيارة الميلياردير النفاثة باتجاه سويسرا وعلى متنها أليسون.

*

بقي ريتشارد في الولايات المتحدة وانتظر ما سيأتي.

في اليوم الأول، لم يحدث شيء، ليس أكثر من ذلك في اليوم الثاني أو الثالث أو الرابع.

بعد أسبوع، اعتبر ريتشارد أنهم لن يصلوا إليهما أبداً وأن ابنته تخلصت من الورطة.

لكن كيف يسع المرء أن يمحو فعلاً كهذا من ذاكرته ويتوهم أنه لم يحدث؟

28

الحياة لا تزال أمامك

المستقبل هو الحاضر الذي يخلفه الماضي لنا.

أندريه مالرو

اليوم

في الطائرة

السادسة مساء

سيداتي سادتي، بعد قليل، تبدأ طائرتنا هبوطها في نيويورك، نرجو منكم ملازمة مقاعدكم ورفع ظهورها والتأكد من ربط الأحزمة.

وضعت توجيهات مدير الكابينة حداً لقصة أليسون. وكما يحدث حين يخرج المرء من حلم مزعج، رفعت المرأة الشابة عينيها ونظرت حولها. كانت الفلوريديتا قد بدأت تخلو بينما كانت مضيفتان تدعوان آخر الزبائن للالتحاق بمقاعدهم.

- ما اقترفته لا يغتفر، أكدت أليسون فيما تمسح جفونها من آثار مستحضرات التجميل. الأسوأ من ذلك أنني تركت أبي يهتم بكل شيء. فبعد الكارثة، بقيت لأشهر في سويسرا، انتقل من الانشغال بمداواة الإدمان إلى علاج الاكتئاب. وعندما عدت تصرفنا وكأن شيئاً لم يحدث!

وقد زلزلته قصة أليسون وأرعبته. وفي الوقت نفسه، حاول مارك أن يجد الكلمات المناسبة مع ذلك:

- ليس ثمة ما لا يغتفر، لكن هنالك أشياء في الحياة لا يمكن تغييرها. عبثاً ستتكبدين كل آلام العالم، لكن ذلك لن يعيد الطفل إلى الحياة.

- تقول ذلك من باب المواساة.

- كلا وأكثر من ذلك أنني لست أحرص على مواساتك. ينبغي أن تتحملي مسؤولياتك وأن تحتاطي لما هو أسوأ، لكن حياتك لم تنتهِ. وهي مليئة بأشياء يمكنك الاشتغال عليها: بإمكانك أن تجلبي المساعدة لأطفال آخرين، كأن توظفي أموالاً في مجال الأنشطة الاجتماعية والإنسانية. ولا يقتصر الأمر فقط على نقودك. الأمر متروك لتقديراتك، لكن لا تبقي سجينة ماضيك. ومن ثم، فمن المحتمل أننا لا نفهم كل شيء...

ترك جملته معلقة. كان يفكر بابنته التي عثر عليها بأعجوبة وبألمه الخاص. بنظرة دعته أليسون إلى المتابعة.

- ربما كان الألم لا يجدي أبداً. إلا أنه يفتح الطريق إلى شيء آخر، قال ملمحاً. وربما أن معنى كل هذا يفلت منا.

أسدلت الوريثة عينيها وسألت:

- أي معنى يمكن أن يعزى لموت طفل؟

متحيراً فتح مارك فمه، لكن لم يجد شيئاً ليجيبها به.

*

- عليك أن تعود إلى مقعدك، سيدي، بنبرة صارمة أبلغته إحدى المضيفتين.

مثل إنسان آلي نهض مارك وكانت نظرته لا تزال غارقة في نظرة

أليسون. لعله كان يود أن يتحدث معها مطولاً، كي يقنعها بعدم جرجرة هذه الدراما مثل سلسلة، حاثاً إياها على إعادة تشييد مستقبلها من دون نسيان ماضيها.

في الحال، تأرجحت الطائرة وبدأت هبوطها نحو السحب. هذه المرة، أبدت المضيفة إلحاحاً أكثر ورافقت الطبيب إلى السلم المؤدي إلى المقصورة الرئيسية.

في عجلته، نسي محفظته على طاولة الفلوريديتا. حين لمحتها أليسون، كان مارك قد غادر المكان. وإذ تتفحصها لفت انتباهها الجلد المدعوك، لكنها قاومت إغراء فتحها. بدلاً من ذلك، وضعتها في جيبها وتعهدت بإرجاعها إليه في ما بعد.

على سبيل الوعد برؤيته ثانية.

*

في اللحظة ذاتها، في مانهاتن، ألقى كونور نظرة على الساعة الكبيرة ما بعد الحداثية التي تزين جدار المكتب الذي يشغله في عيادة موزارت. فهنا كان يعتني بالحالات الأكثر خطورة التي لا يستطيع أن يعتني بها في عيادة الطبيب. بعد أقل من ساعة، كان عليه أن يقابل مارك، وهي اللحظة التي كان ينتظرها في مزيج من نفاد الصبر والخشية.

على بعد أمتار منه، خلعت نيكول نعليها وثنت ساقيها تحتها فيما تجلس داخل مقعد ذي خطوط صافية. كانت ترتعد. ولما لاحظ كونور ذلك جلب لها غطاء وضعته على ركبتيها قبل أن ترميه بنظرة ممتنة. وضع يده على كتفها، وبقيا في هذا الوضع صامتين للحظة. وكانت الشمس تميل ناحية بيتري بارك مرسلة إلى داخل الغرفة نوراً دافئاً، بلون الشاي، يتعارض على نحو صارخ مع التدرجات اللونية الزرقاء، الباردة، للعيادة.

- في ظنك، كيف ستكون ردة فعله حين يعرف الحقيقة؟ سألت نيكول أخيراً.

هو أيضاً، كان قد طرح السؤال على نفسه. هل ستصمد الصداقة التي كانت تربطه بمارك أمام ما يوشك أن يحدث؟ لكي يقنع نفسه بذلك، تذكر ليلة عيد الميلاد المفزعة تلك حيث ثلاثة كائنات بلا هدف آلت إليه...

29

الليل عندما بدأ كل شيء (تتمة)

إذا كنت لا تعرف إلى أين تذهب، تذكَّر من أين أتيت.

مثل أمريكي

ليلة عيد الميلاد 2006، في قلب مانهاتن

3:30 بعد منتصف الليل- كونور وأليسون

كان الثلج يتلألأ تحت مصابيح سوهو.

بعدما ركن كونور سيارته الأستون مارتين صعد إلى شقته، عبارة عن مستودع بارد وغير شخصي لا يعود إليه إلا لكي ينام. وإذا ما ضغط على المفتاح الكهربائي، فإنما لكي يشعل الأمبولة البسيطة التي تتدلى من السطح، فتبدو الشقة كما لو أنها لا تزال قيد التجهيز. شارداً، اجتاز الصالون الكبير ذا الأرضية الخشبية، حيث تقبع بضع كراتين لم يجد الوقت لإفراغها. وكان المطبخ عارياً شأنه في ذلك شأن غرفة المعيشة بينما كانت الخزائن فارغة، أما شرائح السراميك والزجاج التي صنعت منها فكانت تتوهج من جِدَّتها. فتح الثلاجة المطلية بالكروم، وتناول قنينة شاردونيه وصب لنفسه كأساً قبل أن يعود إلى الصالون. ولما كانت البرودة في الصالون عالية، فقد رفع

درجة حرارة منظم الحرارة، لكن الجهاز لم ينفث سوى هواء بارداً. لكي يدفئ جسده، شرب كأسه دفعة واحدة وصب كأساً أخرى. ربما كان عليه أن يجلب القنينة معه. وكما يحدث غالباً عندما يغادر عمله، استشعر فراغاً كبيراً في داخله. كهف ليس بوسع أي شيء أن يشغله: لا أحد، لا ملكية، ولا مخدر. وهكذا، فقد كانت حياته الخاصة على صورة شقته: خواء كئيب.

خلع كرافتته وتقدم عدة خطوات باتجاه الواجهة الزجاجية. في الأسفل، على الرصيف، لمح، وكان وحيداً مثلَه، رجل الثلج الهرم الذي وضع شاله على عنقه. رفع كونور كأسه باتجاه رفيق النحس، ثم هوى على الكنبة مشغِّلاً من دون قصد الشاشة الكبيرة المسطحة الملتصقة بالجدار. أوقف الصوت مكتفياً بالتنقل من قناة إلى أخرى. على شاشة الأفلام تتابع لقطات من أفلام قديمة تجري أحداثها في ليلة عيد الميلاد: *It's a wonderful life, Miracle on 34th Street*.

في المعتقد الشعبي، يفترض بهذه الليلة أن تكون خاصة: إنها الليلة حيث يمكن لكل شيء أن يحدث. . .

أنت تتحدث!

أغلق كونور عينيه. كانت صورة إيفي، الفتاة الغريبة والحزينة التي حاولت أن تسرق حقيبته، مستمرة في التأرجح في أعماقه. كان يعرف أنها ستمضي ليلتها في الخوف والبرد. أحسها قريبة من الانهيار، يستهلكها عبء الكراهية، بيد أنه لم يوفق في مساعدتها.

كان يؤنب نفسه على ذلك، حين رن جرس الهاتف. فراح يغضن حاجبيه. فمن المؤكد أن المتصل هي نيكول. لقد نسي أن يتصل بها. نظر إلى المكالمات الواردة: «رقم خاص».

- أنت. . . أنت كونور ماك كوي؟

- نعم.

- أعرف أن الوقت متأخر، وإنني أتسبب في إزعاجك، لكن. . .

كان صوت امرأة، شابة على الأرجح، وكان الهلع يستولي عليها.

- . . . أبي هو من دلني عليك. . . قال لي أنك الوحيد الذي يسعه مساعدتي. . .

كانت كل كلمة من كلماتها يخنقها الفواق.

- بماذا تشعرين؟ سأل الطبيب.

- قتلت شخصاً.

ترنح كونور للحظة. على الطرف الآخر من الخط، لم يعد يسمع سوى النشيج والتنهدات.

- عليك أن تهدئي يا آنسة، نصحها. بداية هل أستطيع أن أعرف من أنت؟

- أنا أليسون هاريسون.

تقدم كونور بضعة خطوات باتجاه النافذة. من خلال الزجاج، في الشارع، رأى امرأة شابة تستند إلى مقدمة سيارة.

- وأين أنت الآن يا أليسون؟

فيما هي ضائعة وسط ندف الثلج، رفعت المرأة الشابة عينيها نحو نافذة الدور الأخير. بلغت نظرتها المتسلقة كونور في اللحظة ذاتها التي أجابته فيها:

- أسفل شقتك تماماً.

*

بعد ساعة

كانت الشقة غارقة في العتمة. وكانت أليسون نائمة على كنبة

الصالون. أجبر جهاز التدفئة المعطل كونور على استخدام الموقد للمرة الأولى، وعلى الفور طقطقت النيران داخل الصالون. من مكان وقوفه أمام النافذة، نظر الطبيب إلى مريضته الجديدة بارتباك.

كان يعرف من تكون. فقد سبق له أن رأى صورتها في الصحف والمجلات. كما لم يكن يجهل، وقد سمع من يتحدث عن تصرفاتها الطائشة، أن اسمها هو المرادف للفضيحة والصحافة الشعبية. لكن المرأة الشابة التي تحدث إليها للتو لم تبد متغطرسة ولا طفلة مدللة. بالأحرى ضائعة، وأسيرة ماض يدفعها يومياً قدماً نحو الهاوية، على هذا النحو جاءت تطلب باحتشام مساعدته.

خلال ساعة تقريباً، روت له أليسون قصتها المرعبة: حادث السيارة الذي كلف حياة الصبي الصغير، الجثة الذي قام والدها بإخفائها، الكبت، ومن ثم استحالة «العيش مع ذلك»، ودوامة التدمير الذاتي، ومحاولات الانتحار.

بأسلوب أو آخر، أرادت لهذا الكابوس أن يتوقف حتى لو كانت تخشى عدم وجود أي مخرج من هذا الجحيم. هذا المساء، كانت جاهزة للذهاب إلى البوليس كي تسلم نفسها، لكنها لم تمتلك الشجاعة لفعل ذلك. حينئذٍ، كإستغاثة أخيرة، لجأت إلى كونور متبعة بذلك نصيحة قديمة كان أبوها قد أسداها لها ومصممة على وضع مصيرها بين يدي الطبيب.

أضاف كونور قطعة حطب إلى المدفأة، مؤججاً بذلك النار. يتذكر الآن، أنه بعد بضعة أشهر من ظهور كتابه، تلقى كلمة من ريتشارد هاريسون. كان رجل الأعمال قد حظي بإشارة في كتابه وعليه فقد رغب بمقابلته. لم يستجب كونور ولقد شعر بالأسف حينما كشف الملياردير عن مرضه، بعد بضعة أشهر، وكان حينها في ذروة النجاح.

«الطفل الذي قتلته، باحت أليسون عند نهاية قصتها، يظهر كل ليلة في أحلامي». مع هذه الكلمات، انتابت كونور قشعريرة خفيفة. اعتقد، إذ يسمع المرأة الشابة، أنه يصغي إلى نفسه، ويحس بألمها كما لو كان ألمه الخاص. حينئذٍ وعد أن يساعدها.

كان قد تركها تأخذ دواء مهدئاً للقلق واقترح عليها أن تمضي ليلتها في شقته. واضعاً في حسبانه أن يحدثها غداً عن طرائق جديدة للعلاج. وبانتظار ذلك، كان عليها أن تأخذ بعض الراحة.

أعادت إليها كلمات الطبيب الهدوء، فتمددت بالقرب من النار وانتهت بالنوم ملتفة داخل غطاء.

*

4:45 -كونور وإيفي

كان كونور ضائعاً في أفكاره، يتأهب لإشعال سيجارة، عندما رن الهاتف مجدداً. وقد أدهشه أن يتلقى للمرة الثانية اتصالاً ليلياً، رفع سماعة الهاتف على وجه السرعة كي لا يتسبب الرنين بإيقاظها.

– هل أنت الدكتور كونور ماك كوي؟

– نعم أنا.

– معك البوليس...

إنني أتهمك بقتل رجلين، في شيكاغو، سنة 1989.

– ... ملازم ديف دونفن، من الدائرة 14...

اتهمك بحماية قاتلة تحت سقفك.

– اعذرني لإزعاجك في منتصف الليل يا دكتور.

– ما الذي بوسعي أن أقدمه لك، أيها الملازم؟

– اثنين من رجالنا سيأتون للقبض على فتاة شابة تحتل بهو عمارة الفيلاج. لقد قالت إن أمها ماتت وليس لها عائلة في نيويورك.

- إيفي هاربر؟

- إنه الاسم نفسه الذي أعطته لنا، وهي تزعم أنها مريضتك.

- ب... بالضبط، كذب كونور. هل هي بخير؟

- كان لديها هبوط في الضغط، لكنها على ما يرام حالياً، نظرياً يجب أن أتواصل مع الخدمات الاجتماعية، لكنني فضلت أن أخطرك أولاً.

- سآتي، وعد كونور قبل أن يغلق الخط.

متنفساً الصعداء، أحس الدكتور بنوع من النشاط والخفة لمجرد التفكير أنه عثر على إيفي مجدداً. وماذا لو كانت هذه الليلة هي الليلة التي يمكن فيها لكل شيء أن يحدث؟

- **انتبه... جيرمي! انتبه!**

بحركة مفاجئة، استدار كونور باتجاه الكنبة. كانت الكوابيس قد هيجت أليسون فراحت تقاتل خصمها غير المرئي.

جثم قربها وأيقظها بلطف.

- علي أن أتغيب لبعض الوقت، شرح لها.

- لكن سترجع؟ سألت المرأة الشابة وهي تنتفض من نومها.

- بمجرد ما يتسنى لي ذلك، طمأنها.

غادر إلى المطبخ كي يعد لها مشروباً دوائياً.

- هل يدعى جيرمي، الصبي الذي صدمته؟

- هذا كل ما أعرفه عنه، أكدت أليسون. لقد كان اسمه الأول مدوناً على سلسلته.

- سلسلته؟

- كان يحمل سواراً على معصمه. وجدته في قاع سيارتي وكان قد انكسر مشبكه..

أرفقت كلامها بالحركة وراحت تفتش داخل حقيبتها، أخرجت منها سلسلة بمشبك مسطح وضعتهما على الطاولة المنخفضة.

عند عودته إلى الصالون ناول أليسون عقب سيجارة. وإذ يمسك بالسلسلة الصغيرة، أصيب بصدمة. كان عليه أن يقوم بجهد فوق إنساني كي يخفي اضطرابه عنها. ارتدى معطفه، ذو التصميم غير المحدد الذي يقال إنه «يصلح لكل حين» وغادر الشقة. رأساً وجد نفسه في المصعد حيث يسعه أن يعبر عن ألمه بكل حرية.

كان يعرف من يكون جيرمي.

*

مخفر شرطة الدائرة 14

- هذا ما طلبت مني، قال كونور فيما يناول الضابط الاستمارة المعتمدة طبياً التي أملاها تحت عينيه.

بينما الشرطي يجوب بنظراته الوثيقة بحماسة، كان كونور يذرع البهو جيئة وذهاباً. في ليلة عيد الميلاد هاته، كان نشاط كثيف يهيمن داخل المخفر: من كل ناحية، يبرز رجال شرطة مصحوبين بمجرمين وبسكارى وبمقترفي حوادث على الطرقات. كان كونور يكره هذا المكان كما يكره كل ما يذكره، من قريب أو بعيد، بالبوليس. منذ أن شاهد البؤساء في شارع بروادواي وهو يعتبر نفسه شبيهاً بجان فالغين الذي لا يكف عن الخوف من عودة جافير. في أعماقه، كان مقتنعاً أن قاتل بائعي المخدرات سيطفو إلى السطح في هذا اليوم أو ذاك، ليختتم حياته بين جدران سجن.

- جيد، بت أخيراً الضابط وهو ينضد الاستمارة.

رفع السماعة وغمغم بضع كلمات قبل أن يستدير نحو كونور.

- ستأخذ معك الفتاة، أعلن برقة خليقة بمالك ماخور.

- هذا لطف زائد منك.

مع ذلك، كان على كونور أن ينتظر أيضاً عشر دقائق قبل أن يطلق سراح إيفي.

- مرحباً، قال وهو يلمحها أخيراً.

- مرحباً، أجابت فيما تتقدم بضع خطوات باتجاهه.

كانت متسخة ومنهكة وبالكاد قادرة على إبقاء عينيها مفتوحتين. البرد والسهر واحتجازها في الزنزانة، كل ذلك كان قد ترك أثراً قاسياً عليها.

- نغادر؟ اقترح مارك وهو يمسك بقبضته حقيبة الظهر الخاصة بالفتاة.

*

سارا بصمت داخل رفاهية الأستون مارتين في حين كانت المدينة المعدنية البيضاء تمر أمام أعينهما. وكانت الماسحات ذات الكفاءة العالية تطرد في الحال عن الزجاج الأمامي ندف الثلج التي استمرت في السقوط.

- شكراً لمجيئك، تنهدت إيفي بلهجة متعبة. آسفة لإيقاظك في منتصف الليل.

- عملت خيراً باتصالك، كنت قلقاً بشأنِك...

كانت الشوارع مقفرة، مع ذلك كان الثلج يستدعي الاحتراس. لدى وصوله إلى تقاطع هوستن ستريت، أبطأ الطبيب من سرعته ثم اتجه جنوباً.

- ... وفي كل حال ليس من عادتي أن أنام كثيراً، قال بمزيد من التحديد.

- أعرف ذلك، أكدت إيفي.

في شارع ليفييت وبينما يجتاز نوليتا وليتل إيطالي، غضن كونور حاجبيه.

- كيف هذا، تعرفين ذلك؟

- لأنه مدون في الكتاب؟

- أي كتاب؟

- كتابك، قالت ذلك بينما تخرج نسختها القديمة من البقاء على قيد الحياة.

مضطرباً، هز كونور رأسه. وللمرة الأولى، يلمح بريق مكر على وجه الفتاة الشابة. ليس ابتسامة حقيقية، لكن خيال ابتسامة.

انحنت إيفي على النافذة. لم يكن النهار قد طلع. لكن كان بوسع المرء أن يحس بأن الليل شارف على نهايته.

كانت السيارة تتغلغل الآن في شوارع لاوير مانهاتن الضيقة. ضئيلة عند أقدام الحيطان العمودية لناطحات السحاب، شقت السيارة طريقها باستقامة داخل الوادي العميق والضيق من الزجاج والحديد، غائصة في شارع شيرش في اتجاه غراوند زيرو.

- إلى أين نمضي؟

- إلى عيادة موزارت. إنه المكان حيث أعمل حين لا أكون في عيادتي.

- لا أريد الذهاب إلى مستشفى، أنذرت المراهقة.

بضع ثوان كانت كافية كي ترتفع شكوكه وريبته إلى الأوج، مع هذه الخشية المستمرة من عدم قدرة الفتاة على تنفيذ الانتقام الذي تحمله في نفسها كمتنفس.

- يلزمك بعض الراحة والحصول على العناية، أجاب كونور بلهجة لا تقبل النقاش.

لكن إيفي لا تريد أن تعرف شيئاً:

- أريد أن أنزل! تذمرت فيما تمسك بالمقبض الداخلي للباب.

- ربما كان علي أن أتركك في السجن، تحسر كونور من دون أن يتوقف مع ذلك.

بغتةً بينما السيارة تسير بكل سرعة، فتحت المراهقة الباب على حين غرة وخلعت حزام الأمان.

بالمباغتة نفسها، داس كونور على الفرامل أمام ترينيتي شيرش. غاضباً، وثب إلى الخارج. دار حول الأستون مارتين وأمسك بالفتاة الشابة من ياقتها.

- هل تريدين أن تقتلي نفسك؟ انفجر فيما يجرها خارج السيارة.

وقد فاجأها غضب الطبيب، أغلقت إيفي عينيها وأدارت رأسها كما لو خشيت أن تتلقى صفعة.

- انظري إلى نفسك، يا إلهي! صرخ كونور. لم تعودي تشبهين شيئاً! لقد استنفدت، ذبلت، وشخت قبل الأوان!

تأملت المراهقة انعكاسها في زجاج الباب، لكنها خفضت عينيها بسرعة خشية أن يسبب لها ما تراه الألم.

تابع كونور:

- إن كنت تريدين أن تهلكي، استمري على ما أنت عليه، أنت ضائعة بما فيه الكفاية! أنت لا تعرفين نيويورك! ولو تركتك على هذا الرصيف، لن تصمدي أسبوعاً! من هنا إلى هناك ستكونين قد مت وستمارسين العهر بخمسة دولارات مقابل الاضطجاعة الواحدة مع رجل. هكذا تريدين أن ينتهي بك الأمر؟

مسعوراً، سدد الطبيب قبضته على غطاء السيارة في حين تركت إيفي، وقد أصابها الذهول، دمعات حارقة تسيل على امتداد خديها.

*

بعدما قالا كل ما لديهما، بقيا هناك ينظران إلى بعضهما في الفجر الجليدي، في حمى الأبراج الميتة. كانا محطمين ومنهكي القوى وخاليين من كل انفعال.

بخطوات متثاقلة عاد كونور إلى مقعده، شغل المحرك وتركه يدور بينما وقفت إيفي ساكنة مثل طيف على الرصيف.

- ليس أسبوعاً، ردد كونور كما لو كان يكلم نفسه.

*

غادرت الأستون مارتين متاهة شوارع وول ستريت المعتمة لتجد نفسها على ضفاف هايدسون. تراجع كونور بسيارته إلى الوراء وسار عبر باتري بارك سيتي. مبنياً على مداخل المحيط، كان المجمع الفاره يمتد على الركام الذي اقتلع من الأرض أثناء بناء مركز التجارة العالمي.

باستخدام البطاقة الممغنطة، فتح الطبيب مدخل باحات وقوف السيارات وتوقف في المستوى الأدنى. غادر السيارة واجتاز الموقف من دون أن يوجه كلمة إلى إيفي التي سارت على بعد مترات وراءه. استمرا في صمتهما إلى أن وصلا المصعد الذي حملهما مباشرة إلى داخل بهو عيادة موزارت، مؤسسة ما بعد حداثية تشغل دورين من المركز التجاري.

في مكتب الاستقبال، استغرق كونور دقيقة من التفاوض مع مسؤول الحراسة ثم قام بنفسه بإملاء ملف السماح بالدخول الخاص بإيفي في حين قامت ممرضة بمرافقة الفتاة الشابة إلى حجرتها.

*

بعد عشرين دقيقة

بلطف دفع كونور باب الحجرة. لم تكن هنالك أي لمبة مضاءة،

مع ذلك تسنى له أن يرى إيفي في ضوء البريق الأزرق الواهن الذي يصعد من المدينة. كانت ترتدي البيجاما السريرية وتتمدد على السرير بحقنة مغذية في الذراع ونظرة تائهة في المجهول.

- كيف حالك؟ سأل الطبيب.

صمت.

في محاولة لإثارة حوار، قال لها بتمهل كل الكلمات التي في القلب:

- أتصور أنك لم تحصلي على القدر الكافي من المساعدة ولا من الفهم وأنك لحماية نفسك أقمت حصناً ما من القسوة ومن الريبة...

لم تحرك إيفي قيد أنملة، مع ذلك سمع كونور صوت تنفسها.

- معك حق: على هذا النحو يتفوق المرء على قسوة الحياة، لوقت طويل كنت مثلك يا إيفي: لم أكن أمنح ثقتي لأحد.

وقد أحست بنظرة كونور مصوبة نحوها، أغلقت الفتاة الشابة عينيها.

- لكن البقاء في العزلة والوحدة لن يحل مشاكلك.

تقدم كونور بضع خطوات باتجاه النافذة. وبينما هو مستمر في الكلام، تاه نظره باتجاه حاويات نورث كوف التي وهي متموضعة على حافة الماء، بدت أشبه بعلبة مجوهرات فاخرة من خمسين باخرة تتلألأ أضواؤها في عمق الليل.

- في عملي، لا أقدم وعوداً في الغالب، شرح بلكنة صادقة. لا وجود لليقينيات حينما ندلف إلى ميدان الانفعالات والأهوال الباطنية. لا استطيع أبداً أن أضمن لمريض أنه سيتحسن حتماً بعد استشارته لي.

فجأة، انفتح باب الحجرة وأبلغت ممرضة كونور:

- معك مكالمة لدى موظف التحويلة يا دكتور ماك كوي، على ما يبدو إن الأمر ضروري.

- استدار كونور باتجاه المراهقة. كانت عيناها ما زالتا مغمضتين، لكنها كانت قد استردت تنفسها المنتظم وبدت نائمة. مع ذلك أكمل الطبيب بيانه:

- ما أستطيع أن أعدك به بالمقابل، هو أن أقوم بكل ما أنا أهل للقيام به، لمساعدتك. لكن إذا شئت أن يكون هنالك حظ في أن ينجح الأمر، يجب عليك أن تثقي بي...

انحنى على السرير وبمثابة وداع تمتم بهذا:

- بدون ثقة، لا أستطيع شيئاً.

*

السابعة صباحاً- كونور ومارك

أمسك الطبيب السماعة التي ناولها إياه موظف التحويلة.

في الطرف الآخر من الخط، بدا صوت امرأة مألوفاً:

- أنا نيكول.

- أردت أن أتصل بك.. بدأ كونور.

بيد أنها كنست شروحاته:

- عليك أن تساعدني، أحدثك بخصوص مارك.

- هل عاد؟

- نعم، لكن...

تهشم صوت نيكول.

- كان يعيش في الشارع، هل اتضح لك الأمر؟ خلال كل هذا الوقت، كان يعيش مع المتشردين! ينبغي عمل شيء ما، هو ليس على ما يرام أبداً: إنه منهك القوى ولديه مشكلة في التنفس.

- اهدئي، طلب كونور منها، واشرحي لي كل شيء.

بصوت يتخلله النشيج، روت له نيكول حينئذٍ كيف أن مارك، بعد أن أنقذها من حادث الاعتداء، آل أمره إلى أن يمضي الليل عندها. ورغم جروحه، أراد أن يغادر مع أنوار الفجر الأولى مع اللابرادور الذي كان برفقته. ولقد تابعته نيكول بنظراتها وهو يبتعد في البرد مغلوبة على أمرها ومرتاعة لفكرة أن تفقد، للمرة الثانية، الرجل الذي أحبته. لوقت طويل مكثت ساكنة وسط الرصيف إلى أن لمحت اللابرادور يقبل باتجاهها نابحاً. سارت وراءه، فقادها لمسافة شارعين إلى الأسفل.

لم يكن مارك قد مضى بعيداً. ممدداً وسط الثلج وذراعاه متقاطعان، كان قد فقد وعيه، غير مدرك لنواح الكلب.

- إذا لم نقم بشيء سيموت، أتمت نيكول كلامها.

- ابقي معه، طالب كونور، سأبعث لك سيارة الإسعاف بأقصى سرعة ممكنة.

*

بلغت ليلة عيد الميلاد نهايتها.

رغم البرد، خرج كونور إلى أمام المدخل كي ينتظر عودة سيارة الإسعاف. خلفه، كانت ترتفع أبراج المركز التجاري المصنوعة من الزجاج والغرانيت. كي يقي نفسه من الصقيع الصباحي، أخذ الطبيب يذرع جيئة وذهاباً المتنزه المتاخم للنهر.

عاش للتو ليلة غريبة خلالها آلت إليه ثلاثة كائنات جريحة.

أليسون

وإيفي

ومارك.

ثلاثة كائنات على شفا الهاوية، مع أنهم لا يزالون أحياء.

أحس هذا الصباح بأنه يرزح تحت مسؤولية ثقيلة.

هل سيكون قادراً على مساعدتهم؟

وكيف؟

مفكراً في الأمر، أشعل سيجارة ونظر إلى رجال البوليس الذين كانوا يقومون بدورية في الميناء. كانت الريح تهب بقوة الآن، طاردةً السحب باتجاه الغرب. سيكون النهار صحواً. رفع كونور رأسه. في الأعالي، خلال فرجة بين السحب، لمح طائرة تجر ذيلاً أبيض طويلاً وراءها.

حينئذٍ فقط، خطرت له فكرة.

30

افتح عينيك

ليس أسهل من الحياة وعيونك مغمضة. . .

جون لينون

سيظل الخوف موجوداً على الدوام. بوسع الإنسان أن يهدم كل شيء في نفسه: الحب، الإيمان، الكراهية، وحتى الشك. لكنه، مهما امتدت به الحياة، لن يستطيع أن يهدم الخوف.

جوزيف كونراد

اليوم

في الطائرة

الساعة السادسة والنصف

تابعت الطائرة هبوطها نحو السحب ملقية ظلها الفسيح على الامتداد القطني للسحب الشاهقة.

عاد مارك إلى مكانه بالقرب من ليلى وإيفي التي بدت نائمة في زاويتها.

- هل عقدت حزامك؟

هزت الطفلة رأسها.

- نوشك على الوصول، أعلن لها فيما يربت على خدها.

هل أنت راضية بالعودة إلى المنزل؟

نظرت ليلى إليه بحنان، لكنها لم تجب عن سؤاله.

لم يلح مارك، أدار وجهه نحو النافذة. الآن، كانت سحب كثيفة ودبقة تغلف الطائرة مثل كفن رطب ومعتم. مثل حشرة في الفخ، بدت الإيرباص إذ تصارع في وسط بيت العنكبوت السماوي.

أخيراً، قطعت ليلى صمتها بجملة تنبؤية:

- أنت تعرف، لقد رأيتك عندما كنت في الظلام...

- في الظلام؟

- في النفق، أوضحت فيما تنظر إلى أبيها بملامح حزينة. نفق المترو...

النفق، الظلام، المترو...

استغرق مارك لحظة طويلة ليفهم أن ليلى كانت تستدعي الزمن الذي أمضاه في أنابيب المجاري وأنفاق مانهاتن، عامان من الجحيم في العالم القاسي للمشردين. عامان داخل أحشاء المدينة، ملازماً أوعية المترو وأنفاق سكك الحديد. عامان دفن خلالهما نفسه حياً مقتفياً عالم المهمشين ومتعاطياً المخدرات. عامان من إغراق كآبته في الكحول...

استولى عليه الهلع فجأة: كيف تسنى لليلى أن تعرف هذه الحادثة؟ من حدثها عن انحداره إلى الجحيم؟ نيكول؟ خاطفها؟

- لقد شعرت بالحزن عندما ذهبت إلى النفق، استأنفت البنت الصغيرة حديثها. لن تذهب ثانية إلى هناك، بابا!

- لكن... غمغم مارك، كيف عرفت أن...

- لأنني رأيتك، كررت ليلى.

- رأيتني، لكن أين كنت؟

- في الأعلى... وصوبت إصبعها نحو السقف.

متحيراً، رفع رأسه باحثاً عن هذا «الأعلى» الذي لا يستطيع أن يراه.

- ليس عليك أن تشرب، توسلت ليلى. لم يعد يجب عليك أن تغادر. عد للعيش مع ماما.

مشدوهاً، حاول مارك أن يبرر سلوكه:

- غادرت لأنني لم أعد أقوى على المواجهة. كنت... كنت خائفاً عليك. بدونك، لم أكن أعرف لأي شيء تصلح حياتي...

في ثوان، فقد مارك مجدداً كل يقينياته وسبح في الضباب. نظر إلى ليلى. مطوية في مقعدها، بدت صغيرة جداً. كان مارك واعياً أن معطى أساسي يفلت منه: عنصر بداهي كان تحت عينيه منذ بداية الرحلة.

- عليك أن توضحي لي شيئاً، حبيبتي، قال فيما ينحني على ليلى.

- نعم؟

- لماذا لم ترضي أن تتحدثي إلى ماما؟

أخذت البنت الصغيرة وقتاً للتأمل. ثم وقد أحست أن اللحظة قد حانت ربما، اعترفت بتؤدة:

- لأنها كانت تعرف ذلك في حينه.

- ماذا كانت تعرف في حينه؟

- إنني ميتة، أجابت ليلى.

*

في اللحظة ذاتها، في المقصورة العلوية، كانت أليسون هاريسون تنظر من خلال النافذة: كانت السحب تتشتت تدريجياً، تاركة فجوات تتراءى خلالها أطراف المحيط.

بوجه متشنج، كانت تضم بيدها المحفظة التي نسيها مارك على

طاولة الفلوريديتا. لماذا تنتابها رغبة لا تكبح لتفحص المحتوى؟ إنه أمر مختلف عن الفضول: حاجة حيوية، رغبة عميقة، كما لو أن صوتاً يهمس في أذنها بأن حياتها تعتمد على ذلك.

لم تجد شيئاً ذا شأن داخل الغلاف الجلدي الصقيل. فقط بطاقتان تأمينيتان وبضع دولارات ورخصة قيادة وبطاقة وظيفية وأيضاً صورة لمارك وزوجته. حملقت أليسون في صورة نيكول بافتتان فوجدتها جميلة ومميزة: نوع من الرشاقة التي كانت تحلم هي بامتلاكها، لكن لم تملكها قط. كانت تتأهب لإغلاق المحفظة عندما لاحظت صورة أخرى ملتصقة خلف صورة الزوجين.

كانت صورة شخصية لفتاة صغيرة في حوالي الخمس سنوات، بأنف مرتفع وابتسامة شقية. كسوَتُها الرياضية وشعرها القصير وطاقيتها الخاصة بلعبة البيسبول، كل ذلك يمنحها هيئة صبي متأنث. كانت تطوي يديها تحت ذقنها، وفي معصمها الأيسر كان بوسعنا أن نرى بوضوح سلسلة فضية نقش عليها اسم جيرمي.

على نحو مؤلم، اجتاز بريق دماغ أليسون. لقد فهمت كل شيء الآن: الطفل الذي صدمته بسيارتها كان... ابنة مارك! تحت تأثير الفزع والمطر وبسبب بدلة لعبة البيسبول، خيل إليها أنه صبي صغير، وتأكد انطباعها الأول عن طريق الاسم على السلسلة. ولعلها علمت في ما بعد أن السلسلة تنتمي إلى ابن عم ليلى التي كان قد قدمها هدية لها عندما كبر معصمه ولم يعد يتسع لها.

مذعورة، نهضت أليسون، ورغم توبيخ المضيفة هرولت باتجاه السلم الذي يؤدي إلى المقصورة الرئيسية.

*

– لماذا... لماذا تقولين أنك توفيت؟ استمر مارك وقد صعقته إجابة ابنته.

- لأنها الحقيقة، أجابت ليلى، أنا آسفة فعلاً.

- لكن ذلك مستحيل، بما أنك موجودة هنا.

رفعت بتهذيب كتفيها، كما لو لتبين أن الأشياء ليست بهذه البساطة.

- منذ متى توفيت؟

أجبر أبوها نفسه على السؤال.

- منذ البداية، اعترفت ليلى بهدوء. منذ ارتطمت السيارة بي.

- السيارة؟

- الجيب، حددت.

- أنت... لم تختطفي قط؟

- كلا، كان حادثاً. كنت قد خرجت من المحل كي أتسلى، فضعت بسبب العاصفة.

متجاوزاً الوضع، قام مارك بردة فعل غير متوقعة:

- لكن لماذا خرجت؟ وبخها. ألم نردد عليك ألف مرة عدم الابتعاد داخل المحال التجارية. كانت تمطر، وذلك أمر خطير.

- حين يكون المرء طفلاً، فمن المسلي السير تحت المطر، أجابت ليلى بنبرة مهدئة.

أحس مارك عينيه تؤلمانه. بقدر لاواقعية هذه المحادثة نفسها، كان يعرف من أعماقه أن ليلى تقول الحقيقة حتى لو لم يكن مهيأً لقبولها.

- لقد مت لكن يجب عليك أن لا تحزن، قالت الصغيرة وهي تمسك بيده.

- كيف لك أن ترغبي في أن لا أكون حزيناً؟ سألها مارك بنبرة متوسلة.

- أحياناً تحدث الأشياء لأنه يجب لها أن تحدث، شرحت ليلى القَدَرِيَّة.

كان مارك يدرك الآن أن الوقت نفد منه، وأنه مهما فعل فإن الموقف أفلت منه. حينئذٍ، ضم ليلى بين أحضانه، كما لو لا يزال بوسع هذا العناق أن ينتزعها من مخالب الموت.

- أحياناً تحدث الأشياء ببساطة لأن ساعتها قد حانت، أضافت ليلى بصوت خافت يطغى عليه قليلاً ضجيج المحركات.

- كلا! صرخ مارك في محاولة أخيرة.

اختلط هتافه بفرقعات صوت انبثق من مؤخرة الطائرة. استدار الطبيب فرأى أليسون تركض باتجاهه. عندما وصلت إلى مسافة متر توقفت المرأة الشابة في الحال.

- الطفل الذي صدمته... استهلت الحديث بصوت بارد.

أفلتت الصورة التي كانت تمسك بها بكلتا يديها. دارت في الهواء قبل أن تستقر عند أقدام الطبيب.

- ... ظننته صبي صغير، أكملت أليسون. لكنها كانت... ابنتك.

استدار مارك وأليسون إلى الاتجاه نفسه، نحو مقعد ليلى.

البنت الصغيرة لم تعد هنا.

لكن ذلك ليس كل شيء.

المضيفات، المضيفون، الستمائة راكب، كان جميع هؤلاء قد تلاشوا! كانت العملاقة أ-380 خاوية. في السماء، داخل الطيارة التي تتسع لأكثر من خمسمائة طن، لم يكن قد تبقى سوى ثلاثة أشخاص:

مارك

وإيفي

وأليسون.

31

كما في السابق

أنت تتناول قرص الدواء الأزرق، فتتوقف القصة عند هذا الحد،
تستيقظ في سريرك، وتصدق ما تريد.
تتناول قرص الدواء الأحمر، وتبقى في بلاد
العجائب، كي أدلك على الاتجاه الذي يذهب إليه الكلب.
حوار من فيلم **ماتريكس**

اليوم
في الطائرة

- ما...

أرادت أليسون أن تصرخ، لكن صرختها اختنقت في حلقها.

جحظت عينا إيفي واستولى عليها هلع لا يمكن السيطرة عليه.

مستحيل...

وقد أربكه ما يجري، تأمل مارك بعين مذهولة مئات الكراسي الفارغة على نحو يصعب تفسيره. لم يعد هنالك أحد.

خلال ثانية، اختفى جميع المسافرين وأعضاء طاقم الطائرة.

تخطى الدكتور الحاجز المركزي تتبعه الشابتان. كانت جميع المقاعد خاوية. على الكنبات، لم تعد هنالك ملابس ولا حقائب ولا كتب ولا صحف. في طريقها، راحت أليسون تفتح خزائن الأمتعة متفحصة محتوياتها: كانت خاوية، خاوية، خاوية.

- ليلى! انتحب مارك. ليلى!

لكن صرخته اليائسة ظلت من دون إجابة.

تبادلت أليسون وإيفي النظرات، مفتشة كل منهما لدى الأخرى عن قليل من الراحة. هذا غير واقعي، فكرت إيفي كي تدخل على نفسها الطمأنينة، لكن الكابوس كان يملك قسمات ما هو واقعي إلى حد انصهرت معه في الدموع تحت صدمة الخوف العنيف الذي يتعذر السيطرة عليه.

- الطيارون! سأل مارك. ما مصيرهم؟

في الظاهر، كانت الطائرة ساكنة، تستأنف هبوطها باتجاه نيويورك من دون مخالفة، لكن هل لا يزال أحد في القيادة؟

برفقة أليسون وإيفي، اعتلى الطبيب السلم المؤدي إلى المقصورة العلوية راكضاً. كانت مقاعد الدرجة الأولى وطبقة رجال الأعمال خاوية مثل باقي الطائرة. وكان مارك هو أول من ولج إلى قسم الخدمة، قاعة عملية تتيح مدخلاً إلى قمرة القيادة التي تقع في منطقة ما بين الدورين. لم يكن باب الدخول إلى مقصورة الطيار مغلقاً، دفعه مارك بتوجس.

في واجهة القاعة الفسيحة، كانت ثمان شاشات مراقبة تؤطر المقابض الرأسية التي تشبه قضباناً ضخمة. لكن مقعد الطيار والمساعد كانا خاويين. لحقت أليسون وإيفي بمارك إلى داخل المقصورة. غارقين في الهلع، اقترب الثلاثة من السطح الزجاجي. كانت الطائرة

تحلق على ارتفاع منخفض. كانت قد تجاوزت السحب مقتربة من مانهاتن. وكان النهار قد بدأ في الغروب. ورغم رعب ما جرى فإن من تبقى من مسافري الرحلة 714 لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الافتتان بالمشهد الذي يهب نفسه للنظر. كان الضوء يضفي على السماء انعكاسات نحاسية، قاطعاً صف ناطحات السحاب الأكثر شهرة في العالم، بلون أسمر ذهبي عميق وساطع. أما ما هو أكثر إدهاشاً في المشهد الذي يستلقي تحت أعينهم، فكان حضور برجي مركز التجارة العالمي وقد بدوا وكأنهما يثقبان السماء.

كما كانا في السابق...

قبل أن يفقد مارك ابنته.

قبل أن تدهس أليسون ليلى.

قبل أن تفقد إيفي أمها.

لقد كان من الغرابة بمكان، العودة بالزمن إلى الوراء وأن يروا مجدداً نيويورك «القديمة».

منقادة لقوة غير مرئية، أبطأت الطائرة من سيرها. بخفة طائرة شراعية، مست البرجين التوأمين، وانعكس جسدها الأبيض داخل الزجاجات الفضية.

اقترب مارك وأليسون وإيفي من بعضهم. تلامست أذرعهم وأيديهم وأكتافهم. كانوا خائفين، ولم يشاءوا أن يكونوا الوحيدين في اجتياز هذه التجربة. ما الذي حدث؟ كل على حده، حاول كل دماغ من أدمغتهم الثلاثة أن يجد تفسيراً عقلانياً لما هم بصدد عيشه. أهو الحلم؟ أعراض هلاوس إدمان الكوكايين والكحول؟ كلا. كانت هذه الرحلة العجيبة قد أحالتهم على آلامهم الأكثر صميمية. إذ كانوا قد واجهوا شياطينهم وعاشوا ذهنياً اللحظات المصيرية لوجودهم محاولين

ثلاثتهم أن يعودوا القهقرى على مجرى حياتهم كي يضفوا بعض النظام على حياتهم كما لو ليتهيؤوا للـ. . . موت.

الموت. . .

هل كانت تلك هي الغاية الحقيقية للرحلة؟ هل أمكن لهذا التحليق أن يكون نوعاً من المطهر؟ هل اجتياز نفق طويل مظلم يماثل ما يجتازه هؤلاء الذين عاشوا تجربة موت وشيك؟

ممكن. . .

فوق إيست ريفر، استهلت الطائرة نصف دورة جوية أفضت بها إلى الانحراف نحو جنوب الجزيرة. كانت تحلق في الوقت الحالي على ارتفاع شديد الانخفاض، على بضع عشرات المترات من الأرض والماء. ولقد بدت المدينة مقفرة وساكنة. تجاوزت الطائرة العملاقة باتيري بارك وحلقت فوق خليج نيويورك باتجاه أليس آيلاند وتمثال الحرية.

*

قبل تحطم الطائرة ببضعة ثوان، تشبثت أليسون بذراع مارك وتمتمت في أذنه:

- أنا آسفة.

هز الطبيب رأسه. داخل نظرته الغائمة، جذبه التعاطف نحو الكراهية.

حركته الأخيرة كانت أن استدار نحو إيفي. وقد قرأ الفزع في عيني المراهقة، تناول يدها وهدأ من روعها:

- لا تخافي.

*

ارتطمت الطائرة بسطح الماء بعنف.

تعالت صرخة مبتورة.

ثم بعض الأزرق.

يليه بعض الأسود.

وبعد؟

وبعد...

32

الحقيقة

للعثور على السعادة، يجب اختبار التعاسة.
إذا أردت أن تكون سعيداً، ليس عليك أن تسعى إلى الفرار أمام التعاسة بأي ثمن. عليك بالأحرى أن تفتش كيف -وبفضل من- ستتمكن من تجاوزها.

بوريس سيريلنيك

اليوم
عيادة موزارت
السابعة مساء

ثلاثة أجساد.

مارك

وأليسون

وإيفي.

ثلاثة أجساد ممددة جنباً إلى جنب في رواق المستشفى.

ثلاثة أجساد وضع كل منها داخل مقصورة صغيرة عازلة للصوت على شكل شرنقة.

ثلاثة رؤوس غطيت بخوذة مزودة بأقطاب كهربائية موصولة بجهاز كمبيوتر.

كان كونور ونيكول يقفان خلف لوحة المراقبة، ينتظران بقلق استيقاظ المرضى الثلاثة من حالة التنويم المغناطيسي التي غرقوا فيها منذ عدة ساعات.

لم تكن ثمة طائرة.

لم توجد الرحلة 714 قط.

لم تكن هنالك حادثة تحطم إطلاقاً.

التقاء مارك وأليسون وإيفي أثناء الرحلة بالطائرة لم يعدو كونه سيناريو من سيناريوهات العلاج الجماعي المؤسس على التنويم المغناطيسي، نوع من لعب أدوار علاجية متخيلة من قبل كونور بهدف معالجة الأشخاص الثلاثة الذين، في ليلة عيد الميلاد الشهيرة هذه، أتوا طالبين مساعدته.

لم يكن لا هو ولا نيكول قد حاولا أن يعلنا لمارك على نحو منطقي أن ليلى ماتت. كانا يعرفان أنه في حالة الضعف والاضطراب الذهني التي كان عليها، فمن شأن مكاشفة كهذه أن تحوله نحو الانتحار أو الجنون. ومن أجل إبلاغه بالخبر المرعب، خطرت في بال كونور فكرة إخراج هذا المشهد الذي كان عليه أيضاً أن يجتذب إيفي نحو التخلي عن انتقامها وجعل أليسون تتقبل إثم قتلها ليلى.

نظرت نيكول إلى زوجها بقلق. بينما بدا قبل دقائق نائماً بسكينة، كان جسده يختض الآن في حركات صغيرة معلناً خروجه القادم من غشاوة التنويم المغناطيسي. في الوقت نفسه تقريباً، حركت إيفي رأسها وسحبت أليسون ذراعها.

أدرك كونور أن الخروج من «الغيبوبة» قد حان، فراح يتفحص

شاشات الكمبيوتر الممتدة في قوس دائري أمامه. كان المستشفى مجهزاً بأحدث الأجهزة التكنولوجية التي تعمل وفقاً للتصوير بالرنين المغناطيسي، الأمر الذي سمح لطبيب الأمراض العصبية أن يتابع، في زمن واقعي، نشاط أدمغة مرضاه. على مدار التجربة، كان قد راقب حالة مرضاه عبر أجهزة المراقبة. وبدا النشاط الدماغي، خلال جلسة التنويم المغناطيسي، شديد الكثافة عموماً وقد أدى إثباط ميكانيزم الكبت إلى تحسين إنتاج الصور الذهنية وجعل المكبوت سريع التأثر بالانفعالات. على لوحة المراقبة البصرية، لاحظ كونور زيادة في نشاط الجزء الأمامي حيث يقع مركز التحكم بالوظائف العملية، ولقد استدل من ذلك على أن موضوعات التجربة كانت بصدد استعادة السيطرة على أجسادهم. وبالفعل استيقظ المرضى الثلاثة تدريجياً من سباتهم.

- أحتاجكما، أعلن كونور عبر الهاتف الداخلي.

على الفور تقريباً، أقبلت ممرضتان لتكونا حاضرتين عند استيقاظ المرضى ولتساعدان في التخلص من الحقن الوريدية التي تضخ منذ بضع ساعات في الأجساد الثلاثة محلولاً علاجياً مركباً على أساس الدي. إم. تي.، المستحضر الكيميائي القوي المثير للهلوسات.

كان مارك هو أول من فتح عينيه منتزعاً خوذته. حاول أن يقف، فترنح واضطر للجلوس. في رأسه، كانت تتداخل آلاف الصور والأحاسيس التي تنبثق بسرعة البرق: الانفعالات التي كانت تنتابه أثناء لقاءاته بابنته، فرحه الذي يفوق الوصف لمعرفته أنها حية، الخوف التحذيري لدى انطلاق الطائرة، الهلاوس التي أرعبته، الحاجة للكحول التي ظن أنه لن يستطيع تجاوزها، لقاءه الغريب بأليسون، واعترافات إيفي التي أثرت فيه كثيراً.

- كيف تشعر؟ سأله كونور.

أراد مارك أن يجيب، لكن، وكان لا يزال يترنح، رفع يده إلى جمجمته. كانت الصور لا تزال تتابع في رأسه مثل لمعاناتٍ مؤلمة: كسرات من طفولته مع كونور، أطراف من قصة حبه مع نيكول، وجه ليلى الضاحك أمام مثلجها الضخم، ثم وجهه الشاحب عندما كشفت له أخيراً أنها ماتت. . .

تقدم كونور نحو صديقه ووضع يده على كتفه.

- سيكون الأمر على ما يرام يا صديقي، سيكون الأمر على ما يرام.

بمعونة نيكول وممرضة، وقفت أليسون بصعوبة. تخلصت من خوذتها ووضعت يديها على ركبتيها كي تتفادى السقوط. كان رأسها يدور، وكانت تجد مشقة في التنفس. كان التنويم المغناطيسي لا يزال يمارس تأثيره عليها، لذا فقد لزمتها لحظة طويلة كي تضع قدمها في الواقع.

بدورها مدت إيفي ساقيها وذراعيها ومؤخر عنقها. بينما كانوا ينتزعون الحقن المغذية منها، كان ثقل هائل يزايلها يليه إحساس قصير بالإغماء. رمشت عدة مرات جاهدة إلى تمييز الأطياف التي تزوبع حولها. كان رد فعلها الأول أن ميزت ذراعها: كان وشمها الشبيه تماماً بوشم أليسون قد اختفى.

عاد كونور إلى لوحة المراقبة كي يضاعف تدريجياً ضوء الحجرة التي كانت لا تزال حينئذٍ شبه معتمة. فتراءى لعيون الجميع، وكان مطرزاً على جيب سترته، رمز العيادة:

عيادة موزارت

*

هل أفلح كونور في رهانه؟ كان لا يزال الوقت مبكراً لمعرفة ذلك. في كل حال، فقد ذهب إلى الحدود القصوى لمعارفه مازجاً داخل هذه التجربة كل المعلومات التي اكتسبها خلال مساره المهني.

لطالما فتنه التنويم المغناطيسي. فمنذ سنوات، استخدم هذه التقنية لمعالجة إدمان التبغ والكحول والاكتئاب والصداع النصفي والأرق واضطرابات السلوك وفقدان الشهية. كان التنويم المغناطيسي يسمح بتجنب الحصر، وإعادة وصل الدوائر الكهربائية القصيرة بالعمليات الذهنية الدفاعية. وبشكل خاص، في حالة غيبوبة التنويم المغناطيسي، يتسنى للطبيب المختص ومريضة الولوج إلى خزائن اللاوعي، حيث تودع آلاف المعطيات التي تتحكم بحياة كل كائن بشري. في هذه الحالة الخاصة، يحوز المريض المقدرة على الولوج إلى ذكرياته المنسية، ويعيش أحلام يقظته كما لو كانت واقعية.

كان كونور قد بلور هذا السيناريو كشيء من قبيل لعب الأدوار، وذلك لكي يقود مارك وإيفي وأليسون على طريق الشفاء، بـ«قطع الاتصال» عن الجسد واتصال الروح بنوع من الواقع الافتراضي، كان عليهم مواجهة شياطينهم ومخاوفهم الأكثر عمقاً. خلال عدة ساعات، قادهم كونور متلفظاً ببطء بإيحاءات من شأنها أن ترشدهم على طريق

الحداد والقبول والصفح. وهكذا، فقد لعب التنويم المغناطيسي دور المسرع للعلاج متيحاً لأرواحهم أن تحرز في بضعة ساعات التطورات التي كانت لتتطلب سنوات من العلاج التقليدي.

لإحداث حالة غيبوبة عميقة كهذه، ضبط كونور خوذة ممغنطة من شأنها، إذ يخضع قشرة الدماغ الصدغية لحقل مغناطيسي كثيف، أن تدخل الغشاوة على وعي المرضى. وإذ يرفق ذلك بالعلاج المحضر على أساس الدي. إم. تي.، عمل على إثارة قدر كبير من الهلوسات كما عمل على إيقاظ ذكريات كثيفة تعود إلى طفولتهم أو إلى تلك الحقبة من حياتهم حين تعرضوا للصدمات.

الآن، وقد أفاقوا تماماً، كان مارك وأليسون وإيفي يتبادلون فيما بينهم نظرات حائرة. منذ أعياد الميلاد، أجرى كونور معهم كل على حدة محادثات نفسية، باذلاً ما في وسعه للحيلولة دون أن يلتقي أحدهم بالآخرين. إذاً، كانت هذه المرة الأولى التي يرون فيها بعضهم في «الحياة الواقعية»، وحتى إذا لم يكن قد تجرأ أيٌّ منهم على التوجه بالكلام إلى الآخرين، فقد كانوا يعرفون أنهم من الآن فصاعداً أصبحوا مشدودين إلى بعضهم برابطة لا تنفصم. فيزيقياً، كانوا لا يزالون يحسون بأنفسهم غير طبيعيين ومنهوكي القوى ومستنفدي الطاقة كما لو انتهوا تواً من ركض استمر لساعات ولم يلتقطوا خلاله أنفاسهم. لكن، على المستوى الداخلي خصوصاً، كان التطور ملحوظاً أكثر.

على غرار قرص الكمبيوتر الصلب، كان دماغهم يعطيهم الانطباع بأنه قد تمت برمجتهم وإلغاء تجزئتهم وحقن كل منهم بفيروسات الآخرين وبملفاتهم المعطوبة. لكن هل تخفَّفوا من أثقال الغم والتأثم التي كانت تبهض كاهلهم منذ وقت طويل؟

*

بعدما غادروا العيادة ذهبوا جميعاً إلى ساحة باتري بارك سيتي.

كانوا يتقدمون في الهواء العليل لحافة النهر حينما داهمتهم جموع العدائين والباعة الموسمين وهواة الروليه-بلاد. كانت الشمس تميل إلى المغيب الآن، مع ذلك ما فتئت السماء تسطع بهذا البهاء الكهربائي الذي يبرز اللون الربيعي في العشب حيث يلهو الأطفال بالبالونات والأطباق الطائرة.

سار كونور خلف مرضاه الثلاثة. من موقعه في المؤخرة، راح يراقبهم متسائلاً عما عساه يخبئه لهم المستقبل. وذلك لأنه ليس بوسع المرء أن يتوقع نتائج هذا النوع من العلاج. فإذا كان المريض، بعد خروجه من حالة التنويم المغناطيسي، على المدى القريب، يستمر في الشعور بأنه أكثر حرية وخفة إلا أن النتائج ليست مضمونة على المدى البعيد. إذ سبق لكونور أن اعتقد أن بعض مرضاه قد شفوا فإذا بهم ينتحرون على نحو لا يقبل التفسير. وعلى نقيض ذلك، اعتبر بعض زملائه آخرين «حالات ميؤوس منها» فإذا بهم يعيشون اليوم حياة متوازنة وسعيدة.

هل حالة أليسون من هذا النوع؟ خطر السؤال في بال كونور بالتزامن مع ولوج الوريثة إلى داخل تاكسي. من خلال الزجاج، رآها تدل السائق على الاتجاه وتتفاوض معه لبضعة ثواني. أخيراً انطلقت سيارة الأجرة الصفراء وقبل أن تضيع في التيار تبادلت المرأة الشابة والطبيب النفساني نظرة قصيرة لكن عميقة. كان آخر ما تبقى لكونور من أليسون صورة يدها إذ تلصقها على زجاج السيارة كإيماءة وداع.

بدورها ابتعدت نيكول متجهة نحو سيارتها. وبينما تفعل ذلك، كان مارك وكونور يجلسان جنباً إلى جنب صامتين وأعينهما إلى المجهول.

- لو رأيت كم كان وجهها حقيقياً... باح مارك بعد دقيقة.

نظر كونور إليه بتعاطف.

- ليلى... تابع مارك بصوت مرتعش، كانت واقعية جداً... حية جداً...

- إنها الوسيلة الوحيدة التي وجدتها لمساعدتك، وضح كونور. عندما عدت في ليلة عيد الميلاد، لم تكن بحالة تسمح بإخبارك بموت ابنتك. كنت لتموت أنت أيضاً.

- معك حق، أقر مارك.

تاهت نظرته في البحر، إلى جوار تمثال الحرية وإليس آيلاند.

- شكراً لسماحك بالتحدث إليها لمرة أخيرة.. قال كان أمراً مهماً بالنسبة إلي...

نظر كونور إلى صديقه. كانت دموع صامتة تنهمر على كنزته وعلى الأرض. وبينما يرتمي الرجلان في أحضان بعضهما، أضاف مارك:

- كانت بخير، أنت تعرف. كانت تبدو سعيدة، في الأعلى... في الأعلى...

كان للكلمة صدى غريب في أعماقهما، ومجدداً غرقا في الصمت متأملين في معنى يمنحانه لهذا الـ.. في الأعلى: هل هو منتج صرف لروح تحت التنويم المغناطيسي أم له وجود حقيقي في الماوراء؟

توقفت سيارة الصالون الخاصة بنيوكل أمامهما، قاطعة تأملاتهما. فتحت عازفة الكمان الزجاج الكهربائي، بنبرة مختلجة تخفي على نحو سيء قلقاً ما سألت زوجها:

- أين تريد أن تذهب؟

من دون تردد، جلس مارك إلى جوارها وأجاب:

- إلى بيتنا.

*

الآن، كانت الشمس قد اختفت تقريباً وما هي إلا عشر دقائق حتى تصطبغ أبراج باتري بارك بالأسمر والرمادي. التحق كونور بإيفي وكانت تقف قرب سياج أحواض السفن الذي يطوق دفيئة حديقة الشتاء. فمع أن الهجمات أوقعت الضرر بالمكان، لم يتبق من 11 أيلول/ سبتمبر أي أثر مرئي. مع ذلك، كانت غراوند زيرو قريبة جداً وما فتئت تنشر في الجو فائض الموت والريح والحياة.

كانت الفتاة الشابة تجلس القرفصاء على إحدى المقاعد المشرفة على النهر. فيما هي كذلك، راحت تنظر، لكن من دون أن تراها، إلى القوارب الشراعية الرشيقة التي تقف في صفوف في نهر نورث كوف.

- كيف تشعرين؟ سأل كونور فيما يتكئ على الدرابزين.

- بخير، أجابت إيفي بنبرة محايدة.

من دون أن يغادر المراهقة بنظراته، أشعل كونور سيجارة وسحب بعصبية نفساً طويلاً، لعله كان يود بشدة أن تنجح طريقته في المعالجة وأن تتخلى إيفي نهائياً عن نيتها في الانتقام لأمها.

- هذا سيقتلك، أكدت بعد لحظة.

- عما تتحدثين؟

- السيجارة.

هز كونور كتفيه.

- كثير من الأشياء تقتل.

- ألا يثير فيك هذا إذاً الخوف من الموت؟

انهمك كونور في التفكير لثوان، وترك لفافة التبغ تفلت منه.

- ما يثير فيَّ قدراً أكبر من الرعب هو أن أكون حياً، اعترف بصدق اندهش له هو نفسه.

رغم ذلك، رمى عقب سيجارته في النهر وقاوم إغراء إشعال سيجارة أخرى.

خلال الأسابيع الأخيرة، لم ينم بما فيه الكفاية. كل ليلة، بضراوة تامة، عمل من دون توقف كي يصيغ مراحل هذا العلاج الجماعي. كان كل التعب المتراكم ينبثق الآن على نحو غير متوقع، محطماً جسده ومشوشاً روحه. مع ذلك، لم يكن قد انتهى من «مهمته». كان عليه أيضاً أن يتأكد أن إيفي لن تنتقل إلى التنفيذ. ولم يكن أمامه سوى وسيلة وحيدة ليتأكد من ذلك. وسيلة قاسية لا تدرس في كلية الطب. بيد أنه لم يكن طبيباً مثل الآخرين...

نجاحه، ثروته، سيارته الفارهه، شقته التي بقيمة مليوني دولار: كل هذا، كان بلا قيمة، وكان يعرف ذلك. لم يكن ينتمي إلى الحلقة الضيقة من الأطباء النفسانيين النيويوركيين. لم يكن ذلك العالم هو عالمه. إن عالمه هو عالم أحياء شيكاغو المسحوقة، عالم الطفولة المسلوبة، عالم العنف والخوف.

بعد تردد أخير، اقترب من إيفي، جلس إلى جوارها على المقعد وأخرج من جيب معطفه مسدس ذو مقبض فضي.

*

كان السلاح الذي استولى عليه قبل عشرين عام في منزل تاجري المخدرات. وكان دليلاً دامغاً، لم يتخلص منه مع ذلك، كما لو أن الحاسة السادسة أخبرته أنه سيكون بحاجة إليه ذات يوم.

لم تكترث إيفي لمرأى المسدس. فمثلها مثل كونور، كانت قد

جاءت من العالم السفلي: عالم الشجارات واللكمات، العالم حيث الأسوأ يحدث أكثر من الأفضل.

- لقد عثرتُ عليه، أوضح كونور.

- من؟ سألت فيما تعلق نظرتها بنظرته.

- كرايج دافيس، قاتل أمك.

لم يكن وجهاهما يبعدان الآن عن بعضهما بأكثر من بضع سنتمترات. وكما لاحظ كونور، فقد أسفر جسد إيفي عن اختلاجة خفيفة وتوهجت عيناها بلهب مفاجئ.

- إنه يعيش في عمارة صغيرة، بالضبط خلف كاتدرائية شارع القديس جون الديفين. منذ أسبوع وأنا أذهب إلى هناك كل مساء. أعرف رقم شقته وشفرة بوابة المدخل ومواعيد دوامه والأمكنة التي يتسوق فيها.

غريزياً، أحست إيفي أن كونور يقول الحقيقة، لكنها لم تتوقع للحظة واحدة الاقتراح الغريب الذي كان يوشك أن يقوله لها:

- لو تطلبين مني القيام بذلك، فأنا على استعداد لأن أذهب لقتله، قال ذلك وهو يمسك قطعة السلاح من الرأس.

أصيبت إيفي بالخرس لهذا العرض.

- إذا أردت أن تثأري لنفسك، استمر الطبيب النفساني، فإن ذلك سينتهي هذا المساء. كلمة واحدة منك، وبعد ساعة، لن يكون كرايج دافيس من هذا العالم.

ارتبكت إيفي، لاسيما وأنها تدرك أنها لم تكن مجرد كلمات في الهواء.

- الآن، إليك يعود القرار، قال ونهض من مكانه، واعياً تماماً بأنه قد وضع مصيره بين يدي المراهقة.

*

مرت دقيقة على الأرجح قبل أن تلحق إيفي بكونور إلى جوار الدرابزين. من دون كلمة، باحتراس، انتزعت من يديه المسدس، الشاهد الأخير على الحادثة التي وسمت حياة الطبيب.

بمزيج من النفور والافتتان نظرت إلى السلاح لبضع ثوان قبل أن تلقيه بكل قواها في المياه الباردة لهايدسون.

*

كانت الشمس قد غابت بالكامل الآن. في مواجهة مروحة ناطحات السحاب المضيئة، كان رصيف الميناء مقفراً تقريباً. لوقت طويل، بقي كونور وإيفي صامتين وجامدين ووحيدين على الرغم من وجودهما معاً. ثم هبت الريح لمرة واحدة وانتابت إيفي قشعريرة.

بينما هما عائدان إلى العيادة، وضع كونور معطفه على كتفي الفتاة الشابة.

تبادلا نظرة وادعة، فهم كونور من خلالها أنه أنقذها.

وأنها أنقذته بدورها.

خاتمة رقم 1

الحياة في ما بعد...
مارك وأليسون

لم يعد مارك قط إلى عمله في عيادة كونور.

بعد شهرين من جلسة العلاج، حصل على وظيفة «طبيب شوارع نفساني» في منظمة تعنى بمساعدة المشردين. كان، خلال النهار، يذرع الشوارع مشرفاً على مئات المتشردين محاولاً أن يبعدهم عن الكحول، ويخرجهم من الشارع، ويساعدهم على تحاشي الوقوع فيه مجدداً. كرس نفسه بالكامل لهذه المعركة ولقد عرف نجاحات فيها. انحداره الخاص إلى الجحيم كان قد غيره: كان الطبيب النفساني الشاب، الطموح والواثق من نفسه، قد أخلى مكانه لرجل أكثر قابلية للانكسار لكن أكثر إنسانية.

*

يحدث له غالباً أن يرى ليلى، عند منعطف أحد الشوارع، جالسة على درجات أحد المنازل، أو على أرجوحة ملعب. كان لها الوجه الرزين والرائق نفسه الذي كان لها في الطائرة. لم تكن تتحدث إليه، لكنها كانت ترسل ناحيته بإيماءة من يدها، فيرد عليها من دون مواربة. وإذ يعرف أنها هنا، في حماه، يسهر عليها كما كان يفعل

الملاك الحارس في طفولته. كان من شأن ذلك أن يدخل الطمأنينة إلى نفسه. ولم يكن ليتحدث عن هذه التجليات، لا إلى كونور ولا إلى نيكول، لأنه كان يعرف جيداً أنها لم تكن تحدث إلا في رأسه. مهما يكن من أمر: كان هذا المتخيل يشكل جزءاً من التوازن الذي شيده لنفسه كي يتسنى له الوقوف على قدميه.

وكان ذلك هو كل ما يعول عليه.

*

ذات صباح من أيلول/ سبتمبر، وفيما يشغل الراديو، علم مارك بخبر وفاة أليسون هاريسون بحادث سقوط طائرة هيليكوبتر في الأمازون. وكانت الوريثة الشابة إذ تقف منذ أشهر على رأس إحدى المنظمات التي أسسها أبوها، قد استثمرت الكثير في المعركة التي يخوضها أنصار البيئة ضد تدمير أكبر غابة استوائية.

*

استغرق تحديد مكان حطام الطائرة عدة أشهر وحين تم لهم ذلك، لم يعثروا قط لا على جسد الطيار البرازيلي ولا على جسد الوريثة الثرية.

*

في تشرين الثاني/ نوفمبر، تلقى مارك بطاقة بريدية من لهسا في التبت. وكانت الصورة تمثل منحوتة لدولاب القوانين أمام مدخل دير تبتي.

لم تحمل الرسالة توقيعاً، لكنه فهم في الحال أنها بعثت من أليسون.

غالباً ما أفكر فيك.

لعلك كنت على صواب: ربما، من الواقعي القول إن بوسع المرء أن يبدأ حياته من جديد، ولا يكتفي بمواصلتها فقط. الأمل هو ما أتشبث به من الآن فصاعداً.

في الأثناء، أردت أن أبلغك شيئاً ما: عثرت على هذه الملاحظات في إحدى المفكرات التي تعود إلى أبي. يحلو لي أن أظن أنه كان يحتفظ بها وفي نيته أن يريكَها ذات يوم...

يلي ذلك ثلاث كلمات: **خط العرض، خط الطول، الارتفاع...** مصحوبة بسلسلة أرقام أغرقت مارك في الحيرة إلى أن فك معناها.

إنها بيانات نظام المراقبة العالمي جي. بي. إس. عن المكان الذي دفنت فيه ليلى.

*

ذات سبت من كانون الأول/ ديسمبر، على متن سيارتهما، اجتاز مارك ونيكول السلاسل الجبلية والسهول الحصوية لصحراء موجاف. وفي بعد ظهر غير مشمس، وصلا إلى المنبسط البري، غير البعيد عن حدود نيفادا. وكما أرشدهما جهاز الاستقبال الخاص بالـ جي. بي. إس. غادرا الطريق الرئيسية ليغوصا في المنطقة المكسوة بالحصى المغبر والصخور الصلبة. وسط هذه الأرض القاحلة، حزرا رقعة جانبية ذات تربة متصدعة، لكن محمية بشجرة غوشيه. عرفا في الحال أنها هنا. نزلا من السيارة وهما يمسكان بأيدي بعضهما، وتقدما نحو المكان حيث دفنت طفلتهما.

بعد ست سنوات من موتها تسنى لهما أخيراً أن يقولا لها وداعاً.

*

ثم استولت عليهما الحياة مجدداً. . .

ذات يوم، فوجئ مارك بنفسه يبتسم ويتحدث عن المستقبل.

بمرور الوقت، صار طيف ليلى يظهر له بين أوقات متباعدة.

ليس لأنه لم يعد يفكر بابنته، لكن لأنه صار يفكر بها بطريقة مختلفة.

من الآن فصاعداً، كان بوسعه أن يتذكرها من دون أن ينتابه ألم رهيب.

ذات مساء، أعلنت له نيكول أنها حامل، فاستقبل البشرى بابتهاج.

رزقا بطفل أول، ثم بثانٍ بعد ثلاث سنوات.

*

ومرت السنوات. . .

ذات أصيل من تموز/ يوليو، بعد مضي عشر سنوات على بداية هذه القصة، حدثت مصادفة غريبة في مطار هاثرو.

في ذلك الصيف، أخذ مارك ونيكول إجازة طويلة كي يريان ابنهما -ثيو، ثمان سنوات، وسام، خمس سنوات- أعاجيب القارة القديمة. بعد زيارتهم أثينا، فلورنسا، باريس ولندن، كانت العائلة الصغيرة تتأهب الآن للإقلاع نحو لشبونة.

- هيا بنا، يا سامي، أهاب مارك بالصبي الصغير فيما يرفعه على كتفيه، في حين أمسكت نيكول بثيو من ذراعه. سائرين على هذا النحو، اعتلى الأربعة السلم المتحرك الذي يقود إلى منطقة الشحن.

كان ثمة زوجان يهبطان في الاتجاه المعاكس. كانت للرجل سحنة جنوب أمريكية، وكان يرعى بعينيه امرأته وابنته الصغيرة والجميلة والخلاسية ببشرتها النحاسية.

حينما وصلت العائلتان إلى المستوى، التقت نظرة مارك عفواً بنظرة المرأة التي تمر أمامه. فتأكد له أنها أليسون هاريسون. فيزيقياً، كان قد طرأ عليها تحول. كانت الشقراء، ناتئة العظام، ذات الجسد الخيطي والمظهر الأنيق، قد صارت الآن امرأة متفتحة سمراء مع استدارات تمنحها مظهراً رائقاً. عيناها وحدهما لم تتغيرا.

غالباً ما كان مارك يسأل نفسه عما تكون آلت إليه أليسون. فبعد أشهر من موتها المفترض، كان قد قرأ في جريدة أن أرملة هاريسون هي من تدير إمبراطورية غرين كروس بعد الاختفاء التراجيدي لابنة زوجها.

كان ذلك كل شيء.

كان آخر خبر حظيت به أليسون في الصحافة، فهي التي احتلت خلال سنوات الصفحة الأولى في الصحف الشعبية في العالم أجمع.

حين كان مارك يسأل نفسه حول المشاعر التي تثيرها أليسون فيه، لم يكن يشعر بأي مرارة ويتمنى حتى أن تكون قد وجدت السكينة.

إذ يلتقي بها على السلم المتحرك، خمن مارك إن الوريثة السابقة كانت قد بدأت حياتها الجديدة تحت هوية أخرى، برفقة كابتن الطائرة الهيليكوبتر الذي ساعدها في اختلاق موتها وأنها كانت سعيدة في نهاية المطاف.

من جانبها، تعرفت أليسون إليه. ومع أنهما لم يتبادلا سوى نظرة طويلة، فقد رأى كل منهما في نظرة الآخر انعكاس كل ما قاساه.

خاتمة 2

قصتهما...
إيفي و كونور

شيكاغو

خرجت إيفي جرياً من المستشفى وصعدت إلى التاكسي الذي كان ينتظرها منذ عشرين دقيقة. ناولت السائق عنوان مطعم يطل على ماغنفيسنت مايل، ثم، وقد اكتشفت أنها لا تزال ترتدي السترة البيضاء، قامت بتغييرها في المقعد الخلفي من السيارة.

كانت قد مضت عشر سنوات منذ لقاءها الأول بكونور. وبعد أن افتديت، صارت المراهقة الآن امرأة جميلة في الخامسة والعشرين. قبل شهرين، حصلت على شهادتها الجامعية في الطب، وبدأت هذا الأسبوع عامها الأول متدربةً في قسم الحروق الخطيرة في مستشفى شيكاغو بريسبيتيريان، المكان الذي تعالج فيه كونور قبل سنوات، بعد حادثة الاعتداء عليه. وتلك مصادفة ليست فريدة زمانها. . .

كانت إيفي قد بذلت كل ما بوسعها كي تحوز على هذه الوظيفة. إذ كانت تتمنى أن تجيء إلى هذا المدينة، حيث ولد كونور وأمضى طفولته. كانت تريد أن تقتفي خطاه وترى ما رآه وتقاسي ما قاساه حتى تصل إلى حد الامتزاج به.

بمناسبة حصولها على شهادتها الجامعية، دعت كونور إلى المطعم. شيء من قبيل الامتنان على كل ما فعله من أجلها منذ عشر سنوات: كان حاضراً على الدوام في كل المواقف، فهو من دفع تكاليف دروسها واستقبلها في أحضان العائلة التي يشكلها مع مارك ونيكول.

ومن ثم، كان لديها أيضاً اعتراف تبوح به له.

شيء كان يثقل على قلبها منذ وقت طويل...

*

قبل يومين، أثناء زيارتها التمهيدية لوظيفتها الجديدة، التقت إيفي بعميدة المستشفى، لورينا ماك كورميك التي كانت تدير فيما مضى قسم الجروح الخطيرة. من دون أن تكون إيفي قد رأتها من قبل، عرفت أنها كانت هي. كان كونور قد حدثها عنها وعن تفانيها أثناء رقوده في المستشفى.

- إذا كنت لا أزال على قيد الحياة، فذلك بفضلها، كان قد اعترف لها في لحظة نادرة من لحظات الاعتراف بالجميل.

إذاً، كان لدى إيفي فضول للالتقاء بالدكتورة. أما ما أثار دهشتها فهو الإلحاح المثير للاضطراب الذي نظرت به العميدة إليها، في حين كان من المفترض أنها لا تعرفها.

تنامت حيرة المرأة الشابة أكثر عندما تلقت في اليوم التالي من لورينا ماك كورميك بريداً إلكترونياً يتلخص في الرقم البسيط لملف مريض مجهول.

بحثت إيفي عنه، لكن الملف كان من القدم بحيث لا يمكن العثور عليه في الأرشيف الإلكتروني. وفي منتصف الليل، أثناء نوبتها، ذهبت إلى الأرشيف الواقع في الدور الثالث تحت الأرض.

ذرعت خلال ساعات الأروقة التي نضدت على جوانبها الرفوف المتهالكة تحت ثقل الكراتين، قبل أن تضع يدها على الملف المطلوب.

كان ملف كونور.

*

فتحته بأيدٍ مرتعشة. وفي وسط صور الأشعة وتقارير العمليات، عثرت إيفي على عشرات الرسومات التي نفذها كونور أثناء رقوده. بحلق مشدود، نظرت بانتباه إلى التخطيطات الأولى ثم التالية. كانت الرسوم تمثل على الدوام وجه المرأة نفسها، وكان مرسوماً بانسيابية تامة.

ذلك الوجه كان وجهها.

*

قررت أن تؤول هذه الواقعة كعلامة مصير. العلامة التي يجب أن تمنحها الشجاعة للاعتراف بحبها لكونور.

كانت جذور تعلق إيفي عميقة. فبعد جلسة التنويم المغناطيسي، أحس كونور أنه المسؤول عن الفتاة الشابة التي تذكره بالمراهق الذي كانه.

«إنها منا» أقر مارك أثناء العلاج، فمن الصحيح أنهم كانوا قد عاشوا التجارب نفسها وتجرعوا الإذلالات نفسها.

كانوا قريبين من بعضهم منذ البداية، بحيث لم تعمل السنين سوى أن رسخت ميل كونور تجاه إيفي.

من ناحيتها، لم يكن لها أحد سواه في العالم. وبقبولها مساعدته، وضعت حياتها بين يديه وصار لها بالكامل. وغالباً ما تذكرت القائمة التي كتبتها في نهاية يوميتها عندما كانت لما تزل تعيش في لاس فيغاس. قليل من الأشياء تحققت. فهي لم تذهب قط في

إجازة مع أمها. إذ ماتت الأخيرة من دون أن تحصل أبداً على كبدها الجديد. لكن إيفي نجحت في المغادرة إلى نيويورك وقابلت أخيراً الشخص الذي يفهمها.

بالنسبة إلى أمنيتها الأخيرة - «أن يقع، ذات يوم، شخص ما في حبي» - فلم تعد تتمنى سوى شيء واحد: أن يكون هذا الشخص هو كونور.

*

وصل كونور أولاً إلى أمام المطعم. تخلى للسائق عن الكوبيه الـ بي. إم. دبليو. التي استأجرها من المطار وصعد على متن المصعد إلى الشرفة البانورامية التي تشرف على نهر شيكاغو. أجلسوه إلى طاولة تسبح في ضوء الشمس حيث، من مكانه، راح يتأمل على أقل من مهله الغابة المهيبة لناطحات السحاب التي تنفسح أمامه. كانت المرة الأولى التي يضع فيها أقدامه في هذه المدينة التي كانت شاهدة على ولادته والتي غادرها قبل ثلاثين عاماً في ظروف تراجيدية. كان قد غادر منبوذاً وعاد ظافراً.

كانت السنوات العشر الأخيرة سنوات مترفة. وكانت تجاربه في مجال العلاج عن طريق التنويم المغناطيسي قد تم الاعتراف بها من قبل زملائه وتدرس في مدارس الطب. فبفضل هذا المنهج، عالج مئات الأشخاص واستقبل قبل عامين من الآن لقب أفضل دكتور في أمريكا.

على المستوى العائلي: كان عراب طفلي مارك اللذين استمر في رؤيتهما يومياً تقريباً. وقد بقي الصديقان، حتى إن لم يعودا يعملان معاً، قريبين من بعضهما. فضلاً عن ذلك، كان مارك الوحيد الذي تجرأ فباح له بالسر الذي، منذ قرابة العامين، يعذبه ويتصارع معه. . .

*

في التاكسي، غيرت إيفي حذاءيها الرياضيين واستبدلتهما على نحو ملائم بخفين رياضيين أنيقين. فتشت في حقيبتها اليدوية لتخرج منها علبة أدوات الماكياج صغيرة. هوب! بقليل من البودرة وبلمسة من قلم العين، كانت الزوبعة قد دارت! أرادت أن تكون جميلة كما هي في رسوم كونور.

ماذا سيكون رد فعله وهو يسمعها تبوح له بمشاعرها المضطرمة؟ هي لا تعرف شيئاً عن ذلك على وجه الدقة. بيد أنها، لهذا السبب بالذات، لا يمكنها أن تكتم حبها لوقت أطول، إذ في نموه كان يوشك على خنقها وتدميرها.

كل ما حدث لها من خير، في حياتها، كان بفضل كونور. وغالباً ما كانت تسأل نفسها عما كانت ستؤول إليه لو لم يتقاطع طريقها بطريق الطبيب النفسي، في ذلك المساء الرائع من مساءات عيد الميلاد الذي حاولت فيه أن تسرق حقيبته. أين كانت الآن؟ في السجن؟ ميتة؟ خادمة موتيل في المنطقة الثالثة؟ أحياناً، لا يتعلق النجاح في الحياة بشيء كبير: مقابلة، قرار، حظ، مجرى...

لم تكف، خلال كل هذه السنوات، عن مباغتته، محاولة دونما توقف أن تنال إعجابه. وكل ما كانت تقوم به، تقوم به من أجله. إذ لم تكن تشعر بذاتها حقاً إلا معه. كان كونور هو نصفها المفقود. كان يعرف كل شيء عنها وتعرف كل شيء عنه. كانت تشعر بجروحه، بتصدعاته، وبمخاوفه...

وعندما تستعرض المستقبل بخاصة، مراراً وتكراراً يكون هو من تراه إلى جانبها ولا تتخيل أحداً سواه ليكون أباً لأطفالها.

*

نظر كونور إلى ساعته وشرب جرعة من المياه المعدنية. لماذا قبل هذه الدعوة؟ ولماذا يخضع نفسه لهذا الألم؟

لوقت طويل، اتسمت علاقتهما، إيفي وهو، بتواطؤ قوي ثم في أوقات متأخرة، ابتعد كونور وقد ازدادت مشاركاته في الخارج، فلم يعد يتصل بها. لماذا؟ تأكد له أنه وقع مغرماً بالمرأة الشابة ولم يعد يحس في نفسه القدرة على إخفاء حبه تحت ماكياج من الوله العادي. لقد أحب كل شيء فيها: صوتها، إيماءتها، ابتسامتها، شامتها وكانت تعرف كل شيء عنه. حينما يكون معها، يحس باستيقاظ ما كان يفتش عنه في أعماقه: الأمل، والرغبة في الانفتاح على الآخرين، والثقة بالمستقبل. وبوصفه طبيباً نفسانياً، كان يعرف أن العملية العشقية لا تعدو كونها شأناً يتعلق بالبيولوجيا، وبالهارمونات، وبالنواقل العصبية. بيد أن ذلك لا يغير شيئاً من مشكلته: وجب عليه أن ينسلخ من سيطرة الحب. حتى لو كان قد كسب قلب إيفي فإن إمكانية أن يخسرها ذات يوم كان كافياً لجعله يعدل عن ذلك، هو الآن في الخامسة والأربعين، أي في ذروة مساره المهني وشعبيته. في الوقت الراهن، كان لا يزال مفتوناً ومنجذباً. لكن غداً؟ بعد عشر سنوات، خمسة عشرة أو عشرين؟

بغتة، لم يعد يحتمل، فنهض بغتة. ما الذي يفعله في هذا المطعم الخاص بالسواح، منتظراً امرأة لعله لا يستطيع أن يحبها أبداً؟ رمى ورقة نقدية على الطاولة، وشق طريقه نحو المخرج، ضغط على زر المصعد كي يغادر الشرفة.

*

أنزل التاكسي إيفي أمام مدخل المطعم. اجتازت الصالة الرئيسية وضغطت زر المصعد لتصل إلى الشرفة.

كابينتي المصعد تقاطعتا من دون أن يعرفا شيئاً عن ذلك.

ما سبب أن حبين يفوتان بعضهما؟ حفنة قليلة من التبادلات، تردد، حظ، مجرى...

*

عاد كونور إلى سيارته، وفي حالة من الاضطراب، قرر العودة إلى المطار. كان على وشك أن يدلف إلى الخط السريع عندما، وبإلهام مفاجئ بقدر ما هو خطير، نفذ نصف دورة وغير اتجاهه نحو حي طفولته.

*

خلال ثلاثين عاماً، تغيرت أشياء قليلة في غرينوود. إذ لم تصب عملية البرجزة التي أصابت جزءاً من الجانب الجنوبي للأبراج المتهالكة لمدينة طفولته. ركن سيارة الكوبيه اللامعة الجديدة في وسط الموقف. في ذلك العهد، سيارة كهذه كانت سُرقت أو أحرقت في أقل من ربع ساعة. فهل ستصمد لوقت أطول اليوم؟ بدون شك، لا، ولقد استشف ذلك من خلال النظرات والتهكم الذي كان قد رشق بها للتو من قبل مجموعة من السكان المحليين. مر كونور أمامهم من دون أن يحيد قيد أنملة عن طريقه. كرة سلة دارت في الهواء ووقعت عند أقدامه. انحنى كي يلتقطها ويرسلها في اتجاه صبيين يلعبان «واحد لواحد» في البقعة التي غالباً ما كان مارك وهو يستهلكان نعلَيْهما عليها. في نوع من الرهبة، دلف إلى بهو عمارته القديمة. قسم فقط من صناديق البريد كانت قد انتزعت. على الصناديق المتبقية، قرأ بضعة أسماء كانت مألوفة فيما مضى، لكن ليس من بينها اسم آخر عائلة استضافته.

في بئر السلم، كان ثمة صبي يحل واجباته بصمت.

هنالك واحد دائماً، فكر كونور وهو يحييه بإيماءة من رأسه.

اعتلى السلم الذي يقود إلى موضع براميل القمامة. بخطوات غير مطمئنة، نزل السلم، وفقد رباطة جأشه أمام الصناديق الخرسانية. لماذا كان يفعل ذلك؟ عما كان يفتش داخل هذا المكان البارد والمعتم، حيث فقد طفولته؟

- هذا أنت، أيها الماصة، هل تعرف ماذا نفعل، نحن، بصناديق القمامة؟

استدار مفزوعاً، لكن أحداً لم يكن هناك. كان خياله فقط يدور به. مضت ثلاثون سنة منذ تلك العشية المأساوية، بيد أن الجرح كان لا يزال يضطرم في رأسه كما لو حدث الآن.

عندما وصل إلى المكان المخصص للقمامة، ضغط على مفتاح الكهرباء. لكن الحجرة بقيت معتمة، كما لو أن الأمبولة المحطمة لم تتغير منذ ذلك الوقت. تردد في الدخول. يريد أن يثبت لنفسه ماذا؟ أنه لم يعد خائفاً؟ أن بوسعه أن يواجه شياطينه؟

متهيباً، دلف إلى داخل الحجرة وأغلق الباب المعدني وراءه.

- **الماصات، نحن نضرم فيها النيران**، صرخ صوت في رأسه.

كان الآن وحيداً في الظلام. وكان يحس بجسده يرتعد وقطرات العرق تسيل على امتداد ظهره. كانت هنالك ضوضاء جديدة، ورغم الظلام ميز فيها الطيف الشبحي لفتى في الخامسة عشرة. تسارع نبض قلبه. تقدم ناحيته بضع خطوات ورأى فيه ما كان هو عليه في ما مضى، بشحوبه، بنحوله، بالملابس الضيقة على صبي في سنه. الطفل الذي كانه ينظر إليه كما ينظر إلى زائر لطالما انتظر وصوله. استيقظ في كونور الخوف المتحدر من الأجداد والذي لم يكن قد تركه قط والذي غالباً ما أفسد عليه حياته.

- لم يعد عليك أن تخاف، خاطبه المراهق الشاب بغمغمة.

أجابه كونور بنبرة حزينة:

- لكن عليك، أنا خائف.

نظر إليه الآخر بملامح تريد لنفسها أن تكون واثقة:

- أنا، على ما يرام، الآن.

وضع كونور يده على كتف الطفل الذي كانه، ثم أغلق عينيه، وترك الخوف ينحسر.

إلى أن تلاشى.

*

حينما خرج كونور من العمارة، كانت إيفي بانتظاره قرب السيارة.

لم تستغرق وقتاً طويلاً لتعثر عليه. في أعماق نفسها، كانت تخشى دائماً أن ينتهي كل شيء هنا، عند أقدام أبراج الطفولة التي لا يغادرها المرء أبداً.

بثقة، تقدمت باتجاهه.

كانت تعرف أن كل شيء سيسير على ما يرام من الآن فصاعداً.

لأنه هنا حيث نتحابّ لا يخيم الليل أبداً.

بيننا...

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة،

على مدار أربعة كتب حتى الآن وأنا، بفضل تبجيلكم وثقتكم، أتتبع نفسي خلال شخصياتي وعوالمي.

بأعداد كبيرة، كتبتم إلي لتشهدوني على تعلقكم بقصصي التي صارت قصصكم. قرأت كل رسالة من رسائلكم، وكل خطاب من خطاباتكم.

لمرات، في ما مضى، التقينا على هامش حفلات توقيع: بضع كلمات مؤثرة، قصيرة جداً بالضرورة، بضع كلمات دافئة، تبادلات سريعة جداً. . .

بعد كل لقاء من هذه اللقاءات، ينتابني الانطباع نفسه: الانطباع بأنني لم أقل لكم الأهم.

والأهم هو: شكراً.

شكراً لأنكم تمنحون الحياة لرواياتي.

شكراً لأنكم تمنحونها وجوداً وتعرفون بها وتدافعون عنها.

لأن قراءتكم هي التي تمنح معنى لكلماتي.

سوى أنكم، دونما شك، كنتم على الدوام تعرفون كل هذا. .

إلى اللقاء، بين صفحتين.

غيوم

6 آذار/ مارس 2007

الجمل التي تظهر على حائط في الصفحة 99 تعود، إحداها، إلى ماري كوري «لا شيء يخيف، كل شيء يمكن فهمه» والأخرى لإرنست همنغواي «ممكن أن يتحطم الإنسان لكن ليس له أن يهزم».

في **حمى الأبراج الميتة**، التعبير الموظف في الفصل 29، هو عنوان الألبوم الشهير لآرت سبيغلمان الذي كتب بعد مأساة 11 أيلول/ سبتمبر.

المحتويات

غيوم ميسو

لأنني أحبك

ليلى، طفلة في الخامسة، تختفي في مركز تجاري في لوس أنجلوس. والوالدان المكسوران تنتهي علاقتهما بالانفصال.

خمس سنوات بعد ذلك، تم العثور على ليلى في المكان عينه الذي اختفت فيه عن الأنظار. إنها حية، لكنها غارقة في حالة غريبة من الخرس.

بعد فرحة اللقاء، تتوالى الأسئلة: أين كانت ليلى كل تلك السنوات؟ مع من؟ وبالأخص، لماذا عادت؟

رواية إنسانية بعمق...

نهاية مذهلة!

«لا شك في أن غيوم ميسو يقدم لنا هنا أفضل رواياته. الأكثر إثارة وحميمية وإنسانية».

صوت الشمال

«تتمتع الشخصيات برهافة مثيرة، وبإنسانية تشدنا إليها بوجداننا. عند ميسو ترتقي المشاعر إلى طبقاتها العليا».

مجلة لوفيغارو

***

منذ أن عرفه الجمهور من خلال روايته «...وبعد» التي حققت مبيعات ناهزت المليوني نسخة، وترجمت إلى ثلاث وعشرين لغة، وبعد أن حاز اعترافاً عالمياً مستحقاً، لم تعد شهرة الكاتب الفرنسي **غيوم ميسو** في حاجة إلى إثبات.

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

سما للنشر

ISBN 978-9953-68-575-5
9 789953 685755